الدبلوماسية بين النظرية والتطبيق

حقائق ووقائع من الممارسة العملية

د. ضرغام الدباغ

المركز العربي الألماني
Deutsch Arabisches Zentrum

الدبلوماسية بين النظرية والتطبيق
حقائق ووقائع من الممارسة العملية

د. ضرغام الدباغ

الطبعة الثانية
صادرة عن المركز العربي الألماني / برلين 2021
رقم المطبوع (63)
يوزع مجاناً

إهداء

إلى الدبلوماسي العراقي المخلص الذي أدى واجبه بكل كفاءة وأمانة

إلى الشخصية الوطنية العراقية الكبيرة
السفير والوزير محمد سعيد الصحاف

فهرس

1. إهداء 03

2. مقدمة
..... 06
3. في غمرة العمل : العميد الركن هاشم عبد الجبار. 08
4. الفريق الأول هاينز هوفمان، والفريق الأول الركن عدنان خير الله. 08
5. الفريق هاينز كيسلر. 10
6. السفير الدكتور كلاوس فيلردينغ 11
7. اللواء الركن سيد حميد سيد حسين الحصونة 12
8. زلة مواطن عراقي 14
9. مشكلة خطاب رسمي. 15
10. الموسيقار العراقي منير بشير.....16
11. الشاعر عبد الوهاب البياتي 18
12. حفلات ثقافية 22
13. دبلوماسية أفغانية رفيعة..... 24
14. العلاقات العراقية الألمانية. 25
15. معرض الفنان د. خالد الجادر. 27
16. حادث مؤسف..... 28
17. قبول طلاب في الدراسات العليا..... 29
18. عازف الكمان فوق السطح..... 30
19. جولة دبلوماسية 31
20. سفير دفع حياته ثمناً لمبادئه 33
21. الدبلوماسية شؤون وشجون..... 36
22. شخصية الدبلوماسي 38
23. إنقاذ مبتعث عراقي. 40
24. اللواء الركن إسماعيل العارف 42
25.. دبلوماسية ممر إجباري. 43
26. هل يمارس الدبلوماسي الكذب 45
27. الكورونا والدبلوماسية 46
28. الكمين دبلوماسياً 48
29. دبلوماسية طرق العبور 49
30. ظواهر وخفايا الخلاف الأوربي الأمريكي 50
31. نيكولا ميكافيلي 65
32. تفادي طلب رسمي..... 92
33. زلة لسان ..أم تعمد..... 93
34. دبلوماسيون آثاريون جواسيس..... 99
35. العالم بعد كورونا 114
36. أفهما كما تريد 116
37. الحلول الصعبة 121
38. تفادي طلب 123
39. تعديلات في فلسفة الحق 124

40. كيف تتنبأ بالاحداث المقبلة 132
41. السياسة بين العلم والاستخارة 137
42. القوي الاحمق 140
43. نصف نجاح 142
44. تعرف على سقف الموقف 143

مقدمة

خلال مرحلة العمل في السلك الدبلوماسي، وعلى مقاعد الدراسة في اختصاص العلوم السياسية / العلاقات الدولية، حدث الكثير وتعلمنا اكثر ... والدبلوماسي كما أوردنا في إحدى فصول الكتاب، هو جندي في الخدمة الدبلوماسية، ليس أمام ناظريه سوى تقديم الخدمة الصحيحة للبلاد، وخدمة أهدافها السياسية والاقتصادية بالوسائل السلمية والحوار والإقناع، وفق قواعد التعامل الدولي.

وبتقديري، ينبغي أن يكون الدبلوماسي العراقي والعربي على درجة عالية جداً من الكفاءة، والخلق والنزاهة، ليتمكن من تحقيق خدمة حقيقية لبلاده وسط الأنواء الجوية العاصفة التي تكتنف العمل الدولي، في ميدان يعج بالمصالح المتشابكة، والمتنافرة أحياناً، فبلاده تنتظر منه الخدمة، وقد انتدبته لهذه المهمة الكبيرة، فعليه أن لا يخيب أمل شعبه به.

والدبلوماسية هي معرفة علمية يمكن الحصول عليها على مقاعد الدراسة في الكليات أو المعاهد، ولكن لابد من الممارسة العملية وتكوين خبرات عمل، تمنح الدبلوماسي آفاق العمل والتصرف حيال المشكلات أو الأزمات التي يواجهها. وقد لا تتيسر الظروف للدبلوماسي ليحصل على تأهيل وعلمي رفيع، إلا أن بوسعه أن يحصل على معارفه إذا كان مستمعاً جيداً، ويخزن بدقة وترتيب ما يمر أمام ناظريه، وما يقرأ، ويسمع من دبلوماسيين قدماء في المهنة، وبذلك يراكم تجاربه.

والدبلوماسي بتقريب بسيط، هو من يحول الأفكار الصعبة، وربما المستحيلة إلى برنامج ممكن التطبيق، ولنتصور وجود هوة بين أفكار جهتين أو أكثر، يتمكن الدبلوماسيون بصبر بناء جسر للعبور إلى موقف جديد، ثم هناك صورة أخرى .... يتصارع السياسيون في أفكارهم، ولكن الدبلوماسيون بخبرتهم يتمكنون من تحويلها إلى جمل مفيدة، ووثائق قابلة للإبرام، تجنب الأطراف صراعات متعبة وباهضة التكاليف.

بتقديري أن ليس كل شخص يمكن أن يصبح دبلوماسيا ناجحاً، فعدا الدراسة الأكاديمية الجادة، والتأهيل العلمي الدبلوماسي، هناك فترة طويلة نسبياً بين الالتحاق الأول للموظف الدبلوماسي بدرجة ملحق، (ثلاث درجات)، ثم درجة سكرتير (وهي ثلاث درجات أعلاها هي درجة سكرتير أول وهي درجة قيادية مهمة)، بعدها درجة مستشار وهي درجة رفيعة، ثم وزير مفوض، وهي الدرجة الأعلى قبل درجة السفير. وخلال هذه الخدمة الطويلة بوسع الدبلوماسي أن يتعلم الكثير إذا كان منتبهاً ويجند طاقته للتعلم، وقد صادفت خلال خدمتي الدبلوماسية، أشخاصاً من خارج السلك شغلوا وظيفة السفير فأبدعوا فيها، كالسفير صالح مهدي عماش الذي كانت العسكرية هي مهنته الأصلية، ولكنه كسياسي أبدع في الدبلوماسية وكان سفيراً رفيع المستوى. ودبلوماسيون آخرون عراقيون وعرب تعرفت عليهم، كانوا مبدعين في أداءهم لواجباتهم.

وخلال العمل الدبلوماسي (نحو 15 سنة)، بوسع الدبلوماسي أن يتعلم الكثير جداً لو أعطى المهنة حقها من الانتباه. تصادف مواقف محرجة، ومواقف إنسانية صعبة، وإذا كنا لا ندعو لأن ينتزع الدبلوماسي معاني الإنسانية من قلبه، إلا أننا نجزم أنه يمكن التوفيق بين مصلحة البلاد (وهي الأهم) وبين المشاعر الإنسانية والصداقية حيال شخصيات وطنية نحبها ونحترمها. وقد تعرفنا خلال العمل على الكثير من هذه الشخصيات اللامعة، وتحولت درجة التعارف إلى الصداقة العميقة مع بعضهم، وبهذه المناسبة أحي ذكراهم، من ورد أسمه بين دفتي هذا الكتاب، ومن لم يرد، للجميع تحية الذكرى والإخلاص.

الغاية الرئيسية من هذا الكتاب والخواطر، هو تكريس التجربة، وتعميم الفائدة، وتأكيد الشهادة إلى قراءة مفيدة ... وممتعة أدعوكم .. مع تقديري واحترامي

ضرغام الدباغ

1. خواطر من العمل الدبلوماسي
العميد الركن هاشم عبد الجبار

في بداية عملي في سفارة الجمهورية العراقية في برلين/ جمهورية ألمانيا الديمقراطية، حزيران / 1975، كمستشار في السفارة / الشخص الثاني. حدث أن نقل القنصل في السفارة إلى دولة أخرى، ولقلة عدد الموظفين، كنت اشتغلت لفترة وجيزة بمهام القنصلية أيضاً، إلى جانب عملي الأساسي كمستشار في سفارة الجمهورية العراقية في برلين / جهورية ألمانيا الديمقراطية، كقنصل بسبب الشواغر في الملاك، ومن بين مهام القنصل هي الوكالات وتسجيل الولادات للعراقيين، وتصديق وثائقهم، وتجديد وتمديد جوازات السفر، وإصدار وتمديد جوازات سفر المواطنين العراقيين، ولم يكونوا في تلك الأيام بأعداد هائلة كما هي عليه اليوم، وحتى مع إضافة برلين الغربية التابع لألمانيا الغربية، إلا أننا كنا تسهيلاً لأمور المواطنين نتعامل معها في سفارتنا، لم تكن الأعداد كبيرة، ربما بضعة مئات فقط.

ذات يوم دخلت علي سكرتيرتي الألمانية(النصف الثاني من 1975)، تخبرني أن مواطناً عراقياً يريد تجديد جواز سفره، وأعطتني الاستمارات، ولما قرأت الأسم وإذا به : هاشم عبد الجبار وهو ينتظر في الاستعلامات كأي مراجع، فقلت لها فوراً، " فليتفضل عندي، فهذا قائد في سابق في جيشنا ". فطلبت منها أن يتفضل إلى مكتبي ريثما ننجز جواز سفره احتراماً وتقديراً له. وعندما دخل على الرجل وهو متوجس بعض الشيئ، نهضت من كرسي تقديراً واحتراماً لسنه ورتبته، وصافحته ورحبت به. وطلبت له فنجاناً من القهوة.

وفي فترة إعداد الجواز علمت أنه يسكن في مدينة بوتسدام القريبة من برلين (40 ـ 45 كم) أعزب وغير متزوج. وبعد دقائق أرتاح من طريقة تعاملي معه، وأنا أظهر له الاحترام، فهو على كل حال أحد قائد إحدى القطعات الهامة في جيشنا العراقي (آمر اللواء العشرين مشاة) بصرف النظر عن الأحداث السياسية التي رافقت أسمه وتاريخه العسكري. فتلك أحداث مضت، والرجل في شيخوخته، وهو إنسان وطني ومعاد للأستعمار، ومحب لوطنه العراق وهذه أهم الاعتبارات.

عندما شعر بالراحة التامة صار يحدثني عن تاريخه العسكري، وإنه يعرف معظم القادة العسكريين العراقيين وخاصة الذي عملوا في خلايا الضباط الأحرار، ولم يظهر عاطفة خاصة تجاه عبد الكريم قاسم، وملاحظاته عنه لم تكن إيجابية، ولكنها ليست سلبية، اكتفى بالمرور السريع، وهي إشارة إلى عدم رضاه التام. ولكنه أبدى ملاحظات سلبية جداً بحق الرئيس المشير الركن عبد السلام محمد عارف,

وعندما أنهينا الجواز سلمناه له بكل احترام، ورجوته أن يزورني كلما تردد إلى برلين، وقد فعل ذلك بعد فترة وجيزة، إذ قام بزيارتي للمرة الثانية، وقمت تجاهه بكل الاحترام الذي يستحقه، إلا أني لاحظت بأنه كان متعباً(صحياً) وأبديت استعدادي لأي خدمة يطلبها، من السفارة أو مني شخصياً.

وبعد فترة قصيرة، ربما لم تتعدى بضعة شهور، جاءت سكرتيرتي لتخبرني أن هناك سيدة ألمانية تطلب مقابلتي، وهي صديقة العميد الركن هاشم عبد الجبار وقد توفي قبل أيام قليلة فحسب. وعندما دخلت على السيدة الألمانية لاحظت أنها تبلغ حوالي الستين من العمر، والحزن يكسو موقفها وملامحها وثيابها، واستقبلتها بود واحترام، وطلبت لها الضيافة من القهوة. وعرفتني بنفسها أنها صديقة المرحوم هاشم عبد الجبار، وأنه كان يسكن في بيتها، وأنها رغم معرفتها بحالته الصحية السيئة، فوجئت بوفاته، إذ فارق الحياة وهو في ترامواي المدينة (وليس كما قرأت مؤخراً). وقالت لي أنه كان ممتناً جداً من تعاملي معه، وطلب منها أن تراجعني في حال حاجتها لشيئ، فأكدت لها ذلك.

وهنا أخرجت بعض النقود(قليلة)، من العملات الألمانية والعملة الصعبة، وقالت أنها كانت بحوزته وهي تريد إعادتها، فقلت لها أن بوسعها الاحتفاظ بها، ولكنها رفضت بصورة قاطعة، ولكنها، (ولن أنسى ذلك أبداً من الناحية الإنسانية) نظرت إلى بعيون يترقرق الدمع فيها: ولكني يا سيدي المستشار أريد منك شيئاً واحداً فقط، وإذا رفضت ذلك فإني سوف أتفهمه بدقة، أعلم أن هاشماً كان قائداً في جيشكم وليس ملكي أنا، فأيدت قولها نعم أن هاشم عبد الجبار كان أحد قادة جيشنا الوطني، وأنا أحترمه وأقدره كثيراً، أخرجت صورة من حقيبة يدها، وإذا بها صورة للعميد الركن هاشم عبد الجبار قد ألتقطها ربما في ستوديو بابل بقيافته العسكرية الأنيقة التامة ويضع أوسمته على صدره ويعتمر السدارة العسكرية، قالت لي ودموعها تجري على وجهها، أتسمح لي بالاحتفاظ بهذه الصورة ....؟ إنها الشيئ الوحيد الذي بقي لي من هاشم ..

وأمام هذا الوفاء الرائع لم يكن لي سوى أن أوافق على طلبها، وأكدت عليها أن تراجعني إن كانت بحاجة إلى شيئ، إلا أن السيدة غادرت بأحترام وشيعتها إلى باب السفارة تقديراً لوفاءها لضابط عراقي هو أحد قادة جيشنا الوطني.

2. خاطرة دبلوماسية

الفريق الأول هاينز هوفمان والفريق الأول عدنان خيرالله

ظهيرة يوم 17 / 10 / 1977، وكنت حينها القائم بالأعمال سفارة الجمهورية العراقية في برلين وكان ذلك عام 1978 /1979، أتصل بي هاتفياً رئيس دائرة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بوزارة الخارجية الألمانية، وكانت بيننا صلات ودية طيبة، وكان يبدو عليه التعب، والاستعجال، وطلب مني أن أؤمن لهم موافقة السلطات العراقية على منح طائرة ألمانية (نوعها ورقمها) تقل وزير الدفاع الألماني الفريق الأول هاينز هوفمان (عضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي الألماني الحاكم)، التي تطير فجر الغد إلى عدن / اليمن الديمقراطي.

وقال " أنهم علموا أن السلطات في بغداد أغلقت الأجواء العراقية غداً بسبب التعداد العام الذي سيصادف غداً، وأن الحكومة الألمانية قد أجرت اتصالاتها مع كافة الأجواء التي ستمر بها الطائرة، وهي بلدان اشتراكية، وفي الأجواء الدولية البحر المتوسط، ثم دخول سوريا، والعراق، والأجواء الدولية في الخليج العربي وصولاً إلى مدينة عدن في جمهورية اليمن الديمقراطي. وأن كافة التحضيرات السياسية والفنية جاهزة، ولكن غلق الأجواء سيفشل الرحلة وهذا ما نرجوه منك ومن السلطات العراقية تأمين رحلة الطائرة الألمانية "، قال ذلك وأدركت المأزق الذي يدعو مدير عام في وزارة الخارجية أن يتصل بنفسه بالقائم بالأعمال العراقي.

لم يكن بوسعي أن أعده بشيئ، قبل أن أستلم إشارة واضحة من بغداد، وكان الدوام على وشك أن ينتهي، فطلبت الموظف المسؤول على المراسلات السرية مع مركز وزارة الخارجية العراقية ببغداد، وكتبت رسالة سرية وشخصية فورية لوزير الدفاع العراق، وكان في وقتها الفريق الأول الركن عدنان خير الله وأكدت على أهمية وضرورة منح أذن خاص لطائرة وزير الدفاع الألماني بالمرور بالأجواء العراقية، وأن القيادة الألمانية ومواقفها المؤيدة للعراق والأمة العربية كثيرة تستحق موقفاً خاصاً. وبعد مراسلات وانتظار، وردود واستفسارات، جاءت الموافقة الرسمية وكما يلي " توافق السلطات العراقية على منح موافقة خاصة لطائرة وزير الدفاع الألماني، وتأكيداً للعلاقات الودية بين البلدين والجيشين، سيستقبله وزير الدفاع العراقي بنفسه في المطار، وسيدعوه والوفد الألماني لطعام الفطور ريثما يعاد تعبئة الطائرة بالوقود ".

عندما استلمت البرقية السرية وفتحت الشفرة، على الفور اتصلت بالسفير كونشل، مدير عام دائرة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وكان متلهفاً لسماع الموافقة، شكرني كثيراً وأرسل لي بطاقة تتيح لي دخول المطار الخاص الذي ستقلع منه الطائرة الساعة الرابعة فجراً. وكانت الساعة تناهز منتصف الليل، وغادرنا السفارة أنا والموظف المختص، في القاعة الخاصة بكبار الضيوف، استقبلني وزير الدفاع الفريق الأول هاينز هوفمان بود وعانقني، وأخبرني أنه سمع بأني بذلت جهوداً وتعبت لإنجاز هذه السفرة، وشكرني كثيراً. وسألني أن كنت مرتاحاً في برلين، وقلت له " سيادة الوزير، أنا كنت أتمنى أن أقابل شخصية مثلكم شاركت في الحرب الأهلية الأسبانية وأصابكم جرح " فضحك كثيراً ..أوه .. أرى أنك تعرف الكثير من المعلومات ..هذه كانت أيام كنا مناضلين وفي عمر الشباب .

وعلى أرض المطار طائرة تقف طائرة توبوليف 134 وشهدت مراسم رائعة، وكان الفجر لم يبزغ بعد والأضواء تنعكس على أرضية المطار .. أصطف طاقم الطائرة بشكل مهيب عند سلم الطائرة، وتقدم قائد الطائرة " العقيد الطيار ....." وأوجز الواجب سنطير سيدي الفريق الأول وزير الدفاع فوق أجواء تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا والبحر المتوسط، وسنهبط في مطار بغداد الدولي، ونتزود بالوقود وندخل أجواء الخليج العربي، وصولاً إلى عدن .. جاهزون للواجب بعد تلقي الأمر منكم ".

غادر الوزير، وبعد أيام استقبلناه في العودة، أنا وسفير اليمن الديمقراطي، وكان ممتناً جداً لحسن الاستقبال والضيافة في بغداد.

وبعد 4 أو 5 سنوات، كنت في ألمانيا كطالب دراسات عليا، وليست لي صفة رسمية، كنت ذات يوم مع صديق لي في مطعم ببرلين، وكان وزير الدفاع وزوجته يتناولان الطعام على بعد نحو عشرة أمتار، وعندما أنهى طعامه، ومر بالقرب من طاولتي، نهضت لتحيته، والغريب أنه تذكرني تماماً وقال لي أن لقاءه مع الرفاق العراقيين في المطار كان جميلاً لا ينسى, وسألني ماذا تعمل في برلين، فلما أجبته أني أدرس الدكتوراه، فقال لي هذا أحسن شيئ تفعله.

الجنرال : الفريق الأول هاينز هوفمان، مناضل رائع هو في الأصل من مدينة مانهايم (بغرب ألمانيا) ناضل كشيوعي في صفوف الجمهوريين في الحرب الأهلية الأسبانية (1936 - 1939)، وجرح فيها، ونقل إلى موسكو للعلاج، عاد لبلاده بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح عضواً في المكتب السياسي للحزب الاشتراكي الألماني الموحد، وبدأت مسيرته مع بناء الجيش الألماني الحديث، وبلغ منصب وزير الدفاع برتبة فريق أول (Armygeneral). توفي بعمر 75 عام 1985 في برلين.

3. خاطرة دبلوماسية

الفريق هاينز كيسلر

كلفت في فترات متقطعة بمهام الملحق العسكري في سفارة جمهورية العراق ببرلين. وهذا التكليف كان يلزمني ببضعة زيارات قمت بها إلى وزارة الدفاع الألمانية، ومقابلة رئيس أركان الجيش عدة مرات. بمهام مختلفة وكانت العلاقات بين الدولتين والجيشين والحزبين (حزب البعث العربي الاشتراكي، والحزب الاشتراكي الألماني الموحد) ممتازة، لذلك كانت العلاقات العسكرية بالطبع جيدة جداً. وكنا نحصل على كل شيئ نريده تقريباً وبشروط جيدة. ومن خلال تلك الزيارات المتكررة لوزارة الدفاع الألمانية، توطدت علاقتي برئيس الأركان الفريق هانز كيسلر، وكنت نتبادل التحية والسلام في كل لقاء خلال حضورنا الحفلات الرسمية الحكومية الألمانية، في حفلات استقبال السفارات الأجنبية.

في حفل العيد الوطني لسفارتنا يوم 14 – 17 / تموز / 1978، كان الفريق كيسلر من بين الحاضرين بالطبع كرئيس أركان الجيش، وكصديق للسفارة والعراق. وبينما كنت كراع للحفل أدور بين المدعوين وأحي الحضور من الضيوف، التقيت بالفريق كيسلر وتبادلنا السلام كأصدقاء، ولاحظت أنه يشرب كأساً من عصير البرتقال، فقلت له سأطلب لك شيئاً آخر، فقال لي " لا أشكرك لا أستطيع تناول شيئ به الكحول، فسائق سيارتي ليس معي، وأنا أسوق السيارة بنفسي، وإذا أوقفني البوليس لإجراء فحص الكحول ستسحب إجازتي لستة شهور ...! ".

تصوروا أعزائي القراء ... رئيس أركان الجيش وقيادي في الحزب الحاكم يخشى من أن توقفه شرطة المرور ... لنقرأ ونستفيد ونتعلم كيف تبنى الدول...! هذه الأمثلة للاعتبار ..!

4. خاطرة دبلوماسية

السفير كلاوس فيلردينغ

الدكتور كلاوس فيلردينغ، وكيل وزارة الخارجية الألمانية (في عهد ألمانيا الديمقراطية)، تعرفت عليه من خلال العمل واجتمعت معه مرات عديدة رغم أنه كوكيل لوزارة كان يمكن أن يحيل مقابلتي إلى مدير عام في الوزارة، ولكنهم كانوا أولاً يضعون العراق في منزلة خاصة، وثم لعلاقتي المتميزة معهم كانت بدرجة جيدة جداً. وبوسعي القول، أن عمل السفارة العراقية كان سهلاً في برلين، وكنا نجد التفهم التام لطلباتنا بكافة أنواعها.

في السنة الثالثة، وفي الرابعة صرت أذهب للوزارة الخارجية بلا مترجم، بعد أصبحت لغتي الألمانية تسمح لي بالتفاهم، وفي إحدى المرات قال وهو يودعني ويوجه الحديث لعدد من معاونيه " لاحظوا السيد الدباغ، صار يستغني عن المترجم، فهو يجيد اللغة الألمانية ..! ".

فأجبته " أيها الرفيق فيلردينغ .. لقد مضى على وجودي في ألمانيا أكثر من ثلاثة سنوات كيف لا تريدني أن أتعلم الألمانية ".

فضحك د. فيلردنغ وقال وهو يقهقه " لا .. هذا ليس بالضرورة .. أنظر سيد الدباغ .. هذا ديتر ".. والتفت إلى أحد معاونيه قائلاً .." كم سنة أمضيت في القاهرة ؟". فأجاب ديتر " خمسة سنوات رفيق فيلردينغ ".
" وكم كلمة عربية تعلمت ..؟
" فضحك ديتر وقال " السلامو عليكم ... ودوغري يا أسطة "...
وكنا وقوفاً في الصالة مباشرة بعد دخول الوزارة، فصار الجميع يضحكون . وصار يسأل موظفيه الآخرين، ماذا تعلم أي منهم في البلدان التي عمل بها.

وكانت الصلة الحسنة مع د. فيلردينغ وغيرة من الدبلوماسيين وسيلة دبلوماسية وشخصية لحل الكثير من المعضلات، وبعضها ما كان ليتحقق بدون تلك الصلة واللمسة الإنسانية الشخصية في العلاقة الدبلوماسية، وبتقديري ولعل الكثير من الأخوة الدبلوماسيين يقرون بهذه الحقيقة.

نعم مكانة بلادك مسألة مهمة، ولكن شخصية الدبلوماسي لا تقل أهمية، ولدي أمثلة تاريخية كثيرة، أن دبلوماسي ممثل لدولة كبرى، كان فاشلاً في أداء مهمته بسبب ضيق أفقه، في حين تمكن دبلوماسي من دولة صغيرة تحقيق الكثير بسبب تكوينه الممتاز وكفاءته.

في خواطر لاحقة، سأتحدث عن بعض تلك المعضلات التي جرى حلها بلباقة.

5. خاطرة دبلوماسية

اللواء الركن سيد حميد سيد حسين الحصونة

أثناء خدمتي في السلك الدبلوماسي، وفي سفارة الجمهورية العراقية ببرلين / ألمانيا الديمقراطية كمستشار في السفارة، تصادف وجود الأخ والصديق والرفيق العزيز المرحوم عبد الله غركان الحصونة كمدير لمكتب الخطوط الجوية العراقية في برلين.

وأخي عبدالله كان من ضباط الجيش العراقي أحيل لأسباب سياسية للعمل في وظائف مدنية في الخطوط الجوية العراقية في أستامبول وبرلين. وهو أبن عم اللواء الركن سيد حميد سيد حسين، وصهره(زوجة الأخ عبدالله هي كريمة السيد حميد الحصونة)، وعندما كان السيد حميد يريد الحضور إلى برلين كان الأخ عبدالله يطلب مني أن أرتب دعوة من السفارة للسيد حميد وهو ما كنت أفعله بسرور.

والحق أن السيد حميد الحصونة وبعد أن تعرفت عليه بصورة جيدة، وجدت فيه ذلك الإنسان الفاضل المثقف، المخلص للعراق، ويتمتع بلطف معشر، يجد رحمه الله القدرة على التلائم معنا وكنا نصغره سناً بكثير(ربما بثلاثين عاماً) ويقرأ باللغة الإنكليزية ولديه أفكار تستحق الاستماع. وبعد تلك المعرفة التي تحولت إلى صداقة بحيث زارني في برلين مرة أو مرتين حتى بعد نقل الأخ عبد الله إلى بغداد، وبالضبط تابعنا معاً بأسف أنا وهو ومن تلفاز بيتي ببرلين، نقل وقائع زيارة الرئيس أنور السادات إلى الكيان الصهيوني. تلك الأجواء الصداقية وفرت إمكانية أن أتقدم إليه بسؤال وأنا كنت قد أنهيت الماجستير في التاريخ السياسي المعاصر، فسألته برجاء أن يروي لي بالضبط ما يقال عن أوامر الزعيم عبد الكريم قاسم لأحتلال الكويت وما قيل عن امتناعه أو تلكؤه بتنفيذ الأمر، وأخبرته إن شاء أن لا أكتب ذلك يوماً في كتاب أو مذكرات وما شابه، وإن شاء أن ننسى الموضوع. فقال لي بالعكس أنه يقدر كوني مؤرخ سياسي شاب وأنه يثق بنزاهتي بصورة تامة وأنه من هذا المنطلق سيروي لي قصة أوامر الزعيم عبد الكريم قاسم بأحتلال الكويت.

وأبتداء لم يخفي محبته واحترامه للفريق الركن عبد الكريم قاسم (وتلك رتبة الزعيم يوم مصرعه)، لجهتين: احترام الرتبة الأدنى للرتبة الأعلى(وهو تقليد كان راسخاً بعمق شديد في الجيش الوطني)، ثم العلاقة الشخصية التي كانت تربطهما. وروى لي بعض من ذكرياتهما الشخصية البحتة التي تدل على صداقة بين الرجلين. وأن الزعيم كضابط وقائد كفوء (لا يجادل أحد في ذلك)، وكصديق شخص رائع

ووفي (أكده لي فيما بعد شخصيات أخرى). ولما قلت له : وفي السياسة. أجابني: أنا لا أفهم فيها ولا أستطيع أن أقدرها، قالها مبتسماً وكأنه يريد التخلص من إجابة لا يريدها إخلاصاً لذكرى الزعيم وهذا ما أكبرته فيه، (والحق أن اللواء الركن سيد حميد سيد حسين كان يقرأ بالإنكليزية أيضاً).

وعن الأمر المزعوم الذي أصدره الزعيم بأحتلال الكويت أجاب : ثق يا أخي، وأقسم لك أن الزعيم لم يصدر مثل هذا الأمر، ولو أنه أصدره كيف لي وأنا العسكري منذ أول صباي أن أتمرد عليه ولا أنفذه، وكيف يقبل مني الزعيم هذا التمرد ولا يحاسبني عليه وهو القائد الفذ للقوات المسلحة. بل وبعد أن أنهيت خدمتي كقائد للفرقة الثالثة، نقلني إلى منصب محافظ ديالى، وأستمر على تقديره ومحبته لي. ورجح أن الزعيم كان يعتقد أن مجرد تصريحه سيحدث الفعل المؤثر، دون الحاجة لتدخل القوات المسلحة.

سيد حميد الحصونة كان يعيش في القاهرة، وقد تعرض لحادث على أيدي موظفين طائشين، ولكنه وكما أخبرني أنه أرسل رسالة إلى الرئيس أحمد حسن البكر يشكو فيه ضيق الحال ويرجوه بصرف راتبه التقاعدي، فأمر الرئيس البكر بذلك وصرفت له رواتبه وهو في القاهرة.

السيد حميد كان يتمتع بصحة جيدة، ويسير مسافات طويلة، ويقرأ كثيراً، ودقيق الملاحظة صافي الذهن، وعندما بلغنا وفاته في لندن وهو في رحلة شخصية لزيارة ولده الطبيب الذي يدرس هناك، كان الأمر مثار دهشتنا وهو قضاء الله وما تدري نفس ماذا كسبت وما تدري نفس بأي أرض تموت.

استقبلنا جثمان اللواء الركن سيد حميد سيد حسين الحصونة، من مطار بغداد الدولي بتشيع عسكري مهيب شارك فيه الكثير من رفاق السلاح وفي مقدمتهم الشخصية الوطنية الكبيرة اللواء الركن ناجي طالب (الوزير ورئيس الوزراء) إلى مثواه الأخير في النجف الأشرف. الرحمة روحه الطاهرة الطيبة ولذكراه ألف سلام.

6. من خواطر العمل الدبلوماسي

زلة مواطن عراقي

كنا خلال عملنا الدبلوماسي نصادف حوادث وأحداث وشخصيات غريبة، ومن تلك ما سأرويه اليوم للقراء والقارئات، وهي عن صحفي عراقي معروف ومخضرم يتجاوز عمره الستين عاماً (النصف الثاني من السبعينات)، كان متواجداً في برلين لغرض السياحة. وكنت قد سمعت عرضاً من موظفينا بوجوده في العاصمة الألمانية.

ذات صباح، أتصل بي مستشار السفارة اللبنانية الأخ والصديق العزيز ريمون بعقليني (فيما بعد سفير لبنان في كندا)، وكانت بيننا صلات ممتازة، وطلب زيارتي في السفارة ومعه صديق، وبالطبع رحبت به، والزيارات بين الدبلوماسيين عادة لا تكون عشوائية، بل لها أصول وهدف وطريقة عرض وقبول الزيارة، بأختصار هي ليست مسألة ضيف وضيافة، والسفارة ليست مضافة، والزيارات لها بروتكول.

على كل حال اعتبرت زيارة ريمون بعقليني لي شخصية للصداقة بيننا، لا علاقة لها بالبروتكول، وفعلاً حضر صديقي ريمون، ومعه شخص لبناني عرفني عليه، وجلسوا وطلبت من سكرتيرتي، أن تضيف الأصدقاء وعادة نقدم لضيوفنا القهوة والكيك والشكولاته.

طيب يا أخ بقليني .. مالذي أتي بك ..فقال لي .. والله يا سيد دباغ هناك مشكلة، وأنا لم أشأ أن يكون بيننا البوليس والقضاء الألماني حكماً، حدث اعتداء فضيع، وصديقنا وهو مواطن لبناني حضر للسفارة يريد الذهاب لتحريك دعوى، ولكني تذكرتك ولم أشأ أن أحرج السفارة العراقية، وقلت لمواطننا أن نأتي عندك ولتجد أنت الحل لنا.

المشكلة كانت حقاً كبيرة، وهي كما يلي: أن الصحفي العراقي، يسكن في نفس الفندق الذي يقيم فيه اللبناني وزوجته البولونية، وقد تصادفا مراراً في مقهى الفندق ممتاز (وهو بدرجة 4 نجوم) ويقع وسط برلين، وتعارفوا وتسامروا، وانعقدت أواصر معرفة بينهم. وذات يوم(بالأمس) صادف الصحفي السيدة البولونية زوجة اللبناني في المقهى لوحدها، وسألها عن زوجها فقالت أنه ذهب لوحده لأمر ما، وهنا عرض الصحفي على السيدة أن يعرض عليها بعض ما اشتراه من تحف فنية، فرافقته السيدة لغرفته، (وهي تبلغ العشرينات من العمر) وفي الغرفة عرض عليها كأسا من الكحول، ولم تقبلها السيدة، وحاول أن يغتصبها بالقوة، وتسببت المحاولة بأذى جسدي وتمزيق ثياب وما شابه ...!

فقال لي المستشار ريمون أنا لم أشأ أن أتسبب للسفارة العراقية بإحراج، وما تقبله أنت من حل، سنقبله أنا والمواطن اللبناني. فشكرتهما كثيراً على ثقتهما بي وبالسفارة، وعلى مبادرتهما الأخوية، وطلبت من أحد موظفينا ألذهاب إلى الفندق والاتيان بالصحفي المخضرم. ولما حضر، أدرك عمق المشكلة التي أوقع نفسه بها، وراح يتوسل بكلمات مهينة لنفسه ويطلب الصفح. ولم أشأ أن أزيد في جرح الصحفي، لكنه قلت له بلغة هادئة، أن ما فعله قد ينهي حياته الصحفية والشخصية والسياسية بفضيحة وكارثة مدوية، يقبع فيها خلف القضبان لسنوات طويلة، فجرائم الاغتصاب في أوربا لها عقوبات قاسية جداً. وقد شعرت أن الصحفي قد أهين كما لم يهان في حياته، حتى طلب مني صديقي المستشار اللبناني ومواطنه، أن كفى .. لا يريدان أكثر من ذلك. وشكراني، بل أنا من شكرتهما على موقفهما النبيل، والشفقة على الصحفي والعفو عنه والتخلي عن تحريك دعوى عند البوليس الألماني.

خرج الصحفي العراقي يجر أذاله مجللاً بالعار، وقال لي " أنه لن ينسى ما فعلته لأجله، وبرجاء أن لا أكتب للسلطات العراقية ما حدث " فوعدته بأن أتستر عليه، وخرج.

7. خاطرة دبلوماسية

مشكلة خطاب رسمي

كنا كطاقم سفارة، دبلوماسيين وإداريين، وملحقيات فنية (التجارية، والثقافية، والعسكرية) في سفارة جمهورية العراق ببرلين / ألمانيا الديمقراطية، نعمل كفريق عمل متكامل ومتفاهم، ولذلك كنا بطاقم يضم عدداً قليلاً من الموظفين، نقدم خدمة جيدة، بدليل أنها أرتقت بمستوى الأداء إلى درجات عالية، بمنجزات مهمة سياسياً واقتصادياً، وثقافياً، وفي سائر صعد العلاقات.

كنا قد أعتدنا أنا وكنت بدرجة مستشار، والسفير الأخ المرحوم زهير البيرقدار، أن نجتمع صباح كل يوم على فنجان قهوة، ونتحادث حول أهم وأبرز المعطيات السياسية الألمانية والعالمية، من أجل أن نوحد وجهات نظرنا، ولكي يسود التنسيق أعمالنا. وبتقديري انها صيغة عمل ممتازة.

وذات يوم وبعد ساعة القهوة عدت إلى مكتبي، أتصل بي السفير زهير يطلب مساعدتي، فلما ذهبت إليه، وجدت أنه يواجه مشكلة فعند عند فتح البريد، كانت هناك رسالة من وزير الصحة العراقي، (وكان الدكتور رياض حسين)، إلى نظيره وزير الصحة الألماني، والمشكلة أن حالة الخطاب كان في حال يرثى له، مطبوع على ورق أبيض شفاف (مما يستخدم في النسخ الثواني) وتوقيع الوزير مختوم (وليس توقيع بالقلم) ناهيك أن الورقة في وضع مجعد تقريباً، وهناك خرم دبوس في زاوية الصفحة العليا، والطباعة غير واضحة ... بأختصار يستحيل إرسال هذا الخطاب بحاله الحالي إلى وزير في دولة أجنبية. ... نظر الأستاذ زهير إلي بحيرة ..... مالعمل يا أبو فراس ...؟

بالطبع كانت الرسالة في وضع لا يسمح مطلقاً بإرسالها .. ومضمون الرسالة (وهي بلا ظرف ..!) يشير إلى أمر لا يحتمل إعادة الرسالة وانتظار قدوم أخرى، ناهيك عن حساسية إعادة خطاب الوزير العراقي .. فمالعمل ..؟

قلت له حول الرسالة لي، وأنا سأتصرف ... وهو أدرك أني سأحلها بطريقة أنيقة ولكن تنطوي على مسؤولية، على كل حال حول الخطاب لي، وعدت إلى مكتبي، وأخرجت ورقة خطاب من أوراق السفارة الأنيقة الزرقاء، وتحمل شعار الجمهورية بالألوان في وسط الصفحة، وكلمة الجمهورية العراقية بالإنكليزية، وأوراق السفارة الرسمية نوعين / الأول يحمل إلى يمين أو يسار الصفحة (حسب لغة الخطاب) أسم " سفارة الجمهورية العراقية برلين " والنسر يتوسط أعلى الصفحة،، وصفحة الثانية، لا تحمل النسر في وسط الصفحة فقط، وهذا ما استخدمته .. وطبعت رسالة الوزير نصاً كما وردت، ومشكلة التوقيع .... قمت ببساطة بتقليد توقيع الوزير بأناقة ... ثم طويت الصفحة ثلاث ثنيات وليس أربعة كما متفق في العراق بحيث يكون النسر يواجه القارئ أو فحت الرسالة، واخترت ظرفاً أنيقاً ....

لما شاهد السفير الرسالة، قال أنها مسؤولية أن نغير الخطاب ونقلد توقيع الوزير، فأجبته أن هذه المسؤولية أخف من إرسال رسالة بهذا الشكل المسيئ، وأرسلنا الرسالة للوزير الألماني، وقمت بكتابة رسالة إلى الوزير رياض رحمه الله، أعلمناه بما فعلنا، وأعدنا خطابه كدليل على تصرفنا. وفي الأسبوع المقبل تلقينا رسالة من الوزير العراقي يشكرنا كثيراً على تصرفنا ويؤيد ما قمنا به ويعتذر من تصرفه سكرتارية مكتبه.

كنا نصادف أحياناً مواقف معقدة، يمكن معالجتها بمرونة وبذكاء، وكنا نهدف من كل ذلك خدمة البلد وتديم أفضل صورة لعمل الدبلوماسي العراقي.

(الصورة : الدكتور رياض حسين)

8. خاطرة دبلوماسية

الموسيقار العراقي منير بشير

(في إحدى زيارات منير بشير الفنية لألمانيا، مدعوين على العشاء من قبل وزارة الثقافة الألمانية)

تعرفت على الموسيقار منير بشير في أواسط السبعينات، ربما في عام 1975. أنا كنت دبلوماسياً، وهو كان موسيقاراً كبيراً ولكن كلانا كان يمثل العراق كل بطريقته. وبعد ذلك توالت لقاءاتنا، وسرعان ما وجدنا نفسينا وقد صرنا صديقين حميمين.

وكان منير مرة في برلين بدعوة من وزارة الثقافة الألمانية، وقد خصصت له أمسية راقية جداً عزف فيها في أوبرا أبولو، وهي أرقى دار أبرا في برلين، بحضور جمهور راق، تمكن منير من أن يقنعهم أن آلة العود هي ذات قدرات هائلة، يمكن استخراج ألحان عجيبة منها، وبقدراته هو تمكن شدهم طيلة فترة العزف. وهذا أمر ليس بالسهل أنمام جمهور يفهم الموسيقى ويقدرها، ويزن الموسيقار الذي يعزف أمامه ويعطيه حق قدره. وحقا نال منير بشير الموسيقار العراقي القادم من بلاد الرافدين على تقدير عال من الجمهور البرليني.

في زيارة أخرى، وكانت هذه تتم بموجب الاتفاقية الثقافية بين الجمهورية العراقية، وجمهورية ألمانيا الديمقراطية، خصصت له للعزف في قصر الجمهورية، وهو أهم قصر للثقافة والفن في برلين، وحضر الحفل كبار الدبلوماسيين المعتمدين، بما فيهم السفير السوفيتي الذي لم يكن يحضر إلا الحفلات من طابع معين، وكبار الشخصيات الثقافية في ألمانيا، وأستطاع منير بشير أن يثبت مرة أخرى حجم الموسيقى العراقية وطول باع الموسيقار العراقي.

وبديهي مثل هذه الحفلات التي كانت تقوم بها السفارة تؤدي خدمة كبيرة للثقافة العراقية والعربية، وليس سهلاً أن تقدم عملاً فنياً كبيرا في بلد كألمانيا، الذي يعزف فيها حتى الاطفال الموسيقى بأتقان، في بلد في تاريخه موسيقيون كبار : بتهوفن، موزارت، وباخ وغيرهم من عمالقة الموسيقى العالمية ..! وكانت هذه لها انعكاساتها في الوسط الثقافي الألماني.

منير على الصعيد الشخصي الإنساني كان شخصاً رائعاً حقاً ويمكن اتخاذه كصديق، فكنا نقضي الساعات الطويلة في لقاءات صداقية أو عائلية، منها، وأجد نفسي مضطراً أن أروي للقراء مفردات إحداها. كان منير موجود في برلين /ألمانيا في زيارة فنية ترافقه السيدة زوجته، فدعوتهما للعشاء في بيتي المطل بشرفته على ساحة نبتون، كما أقتصر ت الدعوة على صديق عزيز آخر هو الشاعر الرائع كاظم جواد. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما ذهبت لآخذه من فندقه، وجدته يصطحب عوده المميز، وأنا أعلم علم اليقين أن منيراً لا يعزف في البيوت، مهما علا شأن صاحب البيت أو الدعوة، وفي ذلك أستاء منه مسؤولون وشخصيات حكومية كبيرة.

منير عزف تلك الليلة كما لم يعزف بحياته، كنا نتحدث عن ذكريات، ذكريات الموصل وبغداد والناصرية وبيروت، وعن تاريخ الثورات، فأسمعته نشيد كومونة باريس، فدهش أيما دهشة، إذ لم يكن قد سمعها من قبل، ثم أغنيات المقاومة الإيطالية الشهيرة بيلا تشاو(**bella ciao**)، وبنديرا روسا(Bandera Rosa)، تحدثنا عن جمال المدن براغ وبودابست، وعن الدانوب الساحر، وفالس شتراوس(The Blue Danube Waltz)، وألقى كاظم جواد لنا بقصيدته العاطفية الوحيدة الغير منشورة والتي لا يعرفها سوى أصدقائه المقربين: " سكبت الحب في عمري " وهي قصيدة كان قد كتبها في الهند أبان عمله هناك كملحق ثقافي.

لم تتوقف لقاءاتي بمنير، فتواصلنا في ألمانيا، وفي بغداد، ثم أني استلمت مرة رسالة من البريد في برلين تخبرني بلزوم المراجعة لاستلام طرد بريدي كبير، ولما ذهبت فوجئت بأن الطرد قام من بودابست، ومن منير بالذات يهديني فيها أعمال عديدة لفيفالدي (Antonio Lucio Vivaldi) ومنها كونشرتو فيولين(كمان)، ورسالة رقيقة.

يسرني ويسر المركز العربي ـ الألماني أن يقدم هذا العمل البسيط المتواضع، ومعزوفة بغداد الحبيبة على القلوب، ونهدي كل هذا إلى منير بشير، الموسيقار العراقي الذي سوف لن يغيب عن الأذهان قط
تحية لك يا منير بشير من مركزنا البحثي ومني كصديق.

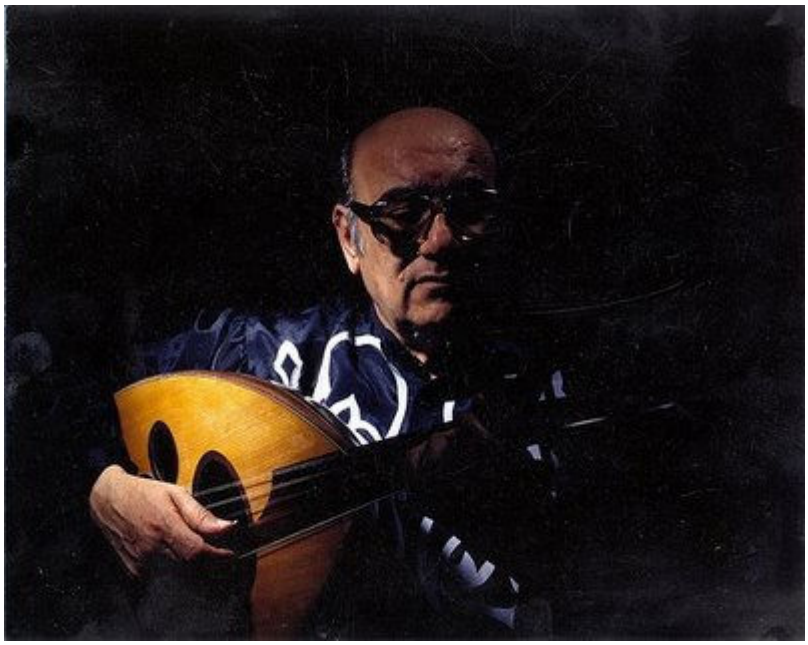

9. خاطرة دبلوماسية

الشاعر عبد الوهاب البياتي

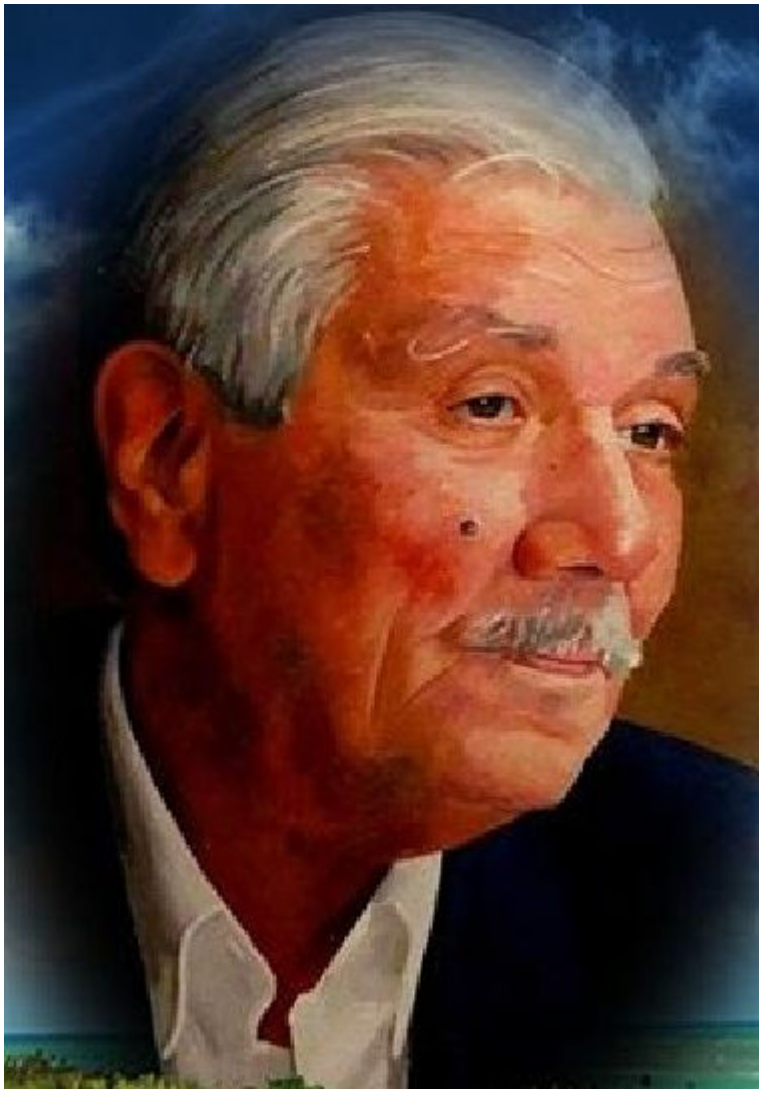

كتبت أكثر من مرة أن صحبة الشعراء والأدباء والفنانين مسألة فيها نظر ...! الفنان أو الأديب سيقول لك أنه إنسان يعيش المجتمع كغيره، ويصيبه ما يصيب الناس من علامات ومؤشرات، تعمل في نفسه وفي ظواهر حياته، والفنان محق بهذا. ولكن الناس يريدون من الكاتب أو الفنان أن يكون مثالياً في كما في فكره في تصرفه ومزاجه، ترى من على حق ؟ الفنان والأديب أم الجمهور ..؟

بتقديري كلاهما مصيبان، فالجمهور يرى وهو محق فيما يراه، أن الفنان أو الأديب إنسان طليعي، وينبغي أن يكون على قدر ومستوى ما يطرح، والفنان أو الأديب إنسان يعيش معاناته ويتفاعل معها، ومع معاناة الجمهور، فينجم عن هذا بتحوله إلى مستودع ضخم للمعاناة والألام ... ولأنه حساس بل وشديد الحساسية (وهذه نعمة ونقمة في آن واحد) فإن تعبيراته الحسية وتنفيسه عن الضغوط والمعاناة تكون ظاهرة وملحوظة من الناس لأنه يقع تحت أنظارهم وتصرفاته مراقبة من الناس، وغلطته ستكون بغلطتين.

سنحت لي الفرصة أن أتعرف على عدد كبير من الأدباء والكتاب والفنانين العراقيين والعرب وبعض هؤلاء تطورت علاقتي بهم إلى صداقة، وأحياناً إلى صداقة عميقة. ومن بين هؤلاء صديقي العزيز أبو علي الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي.

بادئ ذي بدء البياتي لم يكن عابر سبيل في تاريخ الأدب العراقي والعربي، فهو أسم له حضوره وله إنتاجه، وله قراؤه، وبديهي له أسلوبه الذي لا يخطئ من يقرأ له. وبالطبع لا يخلو الأمر من لا يرى هكذا ..! ومن يرى غير ذلك .. فهناك من يرى أن الشاعر العظيم أن تمثالاً من المرمر الأبيض الناصع الجميل بل المبهر، وينسى أنه بشر وله حاجات بشرية ولم لا ، كما له أخطاؤه.

نعم لعبد الوهاب البياتي شطحات أنا أراها لطيفة غيري يراها غير ذلك، فمثلاً كان عبد الوهاب ربما في مرحلة معينة من حياته قد أصبح بدرجة ما نرجسياً ،(Narcissistic)، كنت أسمع ذلك منه، ولكني أتقبلها كأديب على أنها عوامل ذاتية ربما تكون دافعة له ليبدع، وكنت قد لاحظت أيضاً من الجواهري الكبير تصرفات لا تصدق بكونها من شخص كبير مثله، ولكن أين الخطأ فهو في آخر المطاف إنسان يحب ويعشق، ويتطرف في حبه ويتوله ... هذه ارهاصات رجل غير اعتيادي، فلا يحق لنا أن نطالبه أن يقدم أعمالاً غير اعتيادية، فيما نطالبه أن يكون في أرهاصاته مثله مثل الناس أجمعين. الفنان لا يضع كوابح مثل الناس الآخرين على سلوكه، والكوابح ...؟ برأيه في ذلك قمع للنفس ..

البياتي قال لي يوماً أنه ذهب إلى القاهرة، " وأنت تعرف ضرغام، يعني أنا لي هناك علاقات عميقة جداً بالوسط الثقافي المصري، لذلك استقبلني فلان وفلان (أسماء كبيرة) في مطار القاهرة، وجمهرة كبيرة من الكتاب، وسألني أحدهم : كان لديكم في العراق شاعر أسمه الجوهرجي ... أو الجواهري .. أين حلت به الدنيا ..؟ ابتسمت أنا ... والبياتي لم تغيضه ابتسامتي ...!

البياتي كان يغمز من قناة الكثير من الشعراء بهدف إخلاء المسرح لنفسه وحده، فيقول عن هذا الشاعر المشهور: إنه متعافي وسمين كأبن والي تركي ...! وعن ذاك أنه خادم، وعن آخر دجال ... لا يرضى عن أحد.. ربما عن الموتى فقط، ولا يستثني من ذلك حتى بدر شاكر السياب الذي لم يكن يحبه حياً أو ميتاً، والحب هنا ليس بالمعنى الغرامي، فبدر كان عملاق شعري لا يمكن تجاهله والبياتي يقول عنه : ".... أي خطية .... كان تعبان ... بعدين قصائده كانت من وحي الحرمان ... خطية كان يعاني من عقدة قبحه .. " ويبتسم كأنه يقول أنه كان يتمتع بمحبة الطالبات في الكلية وبدر كان يجيد الإنكليزية، ويقرأ بها ويترجم عنها، والبياتي كان لا يترك وسيلة للأنتقاص من هذه الميزة المهمة عند أي أديب.

ولكن البياتي رغم ذلك عملاق ... لا سبيل لإنكار ذلك إن أحببناه أو كرهناه .. ويؤسفني أن لا أجد اليوم بعد عدة تنقلات كارثية حلت بمجموعة الصور عندي، أن أجد واحدة مع البياتي، ولكني عثرت بين أوراق على رسالتين له لي بخطه، وإحدى أجمل قصائده التي أحبها، " أولد وأحترق في حبي " وقصيدة" لارا ".. لذكرى صديقي العزيز الراحل أبو علي ... عبدالوهاب البياتي .

لارا
عبد الوهاب البياتي

(1)
تستيقظ (لارا) في ذاكرتي: قطًّا تتريًّا, يتربص بي, يتمطَّى, يتثاءب
يخدش وجهي المحموم ويحرمني النوم. أراها في قاع جحيم المدن
القطبية تشنقني بضفائرها وتعلقني مثل الأرنب فوق الحائط مشدودًا في خيط دموعي .
أصرخ: (لارا) فتجيب الريح المذعورة: (لارا) أعدو خلف الريح وخلف
قطارات الليل وأسأل عاملة المقهى. لا يدري أحد. أمضى تحت الثلج
وحيدًا, أبكي حبي العاثر في كل مقاهي العالم والحانات.

(2)
في لوحات (اللوفر) والأيقوناتْ
في أحزان عيون الملكات
في سحر المعبودات
كانت (لارا) تثوي تحت قناع الموت الذهبي وتحت شعاع النور الغارق في اللوحات
تدعوني, فأقرب وجهي منها, محمومًا أبكي

لكن يدًا تمتد, فتمسح كل اللوحات وتخفي كل الأيقونات
تاركة فوق قناع الموت الذهبي بصيصًا من نورٍ لنهارٍ مات.

(3)
لارا ! رحلتْ
لارا ! انتحرت
قال البوَّاب وقالت جارتها, وانخرطت ببكاءٍ حارْ
قالت أخرى: لا يدري أحد, حتى الشيطان

(4)
أرمي قنبلة تحت قطار الليل المشحون بأوراق خريف
في ذاكرتي، أزحف بين الموتى, أتلمس دربي في
أوحال حقولٍ لم تحرث, أستنجد بالحرس الليلى
لأوقف في ذاكرتي هذا الحب المفترس الأعمى, هذا
النور الأسود، محمومًا تحت المطر المتساقط
أطلق في الفجر على نفسي النارْ.

(5)
منفيًّا في ذاكرتي
محبوسًا في الكلماتْ
أشرد تحت الأمطارْ أصرخ: لارا ..!
أصرخ: لارا !
فتجيب الريح المذعورة: لارا.!

(6)
في قصر الحمراء
في غرفات حريم الملك الشقراوات
أسمع عودًا شرقيًّا وبكاء غزال
أدنو مبهورًا من هالات الحرف العربي المظفور بآلاف الأزهار
أسمع آهات
كانت (لارا) تحت الأقمار السبعة والنور الوهاج
تدعوني فأقرب وجهي منها, محمومًا أبكي
لكن يدًا تمتد, فتقذفني في بئر الظلماتْ
تاركة فوق السجادة قيثاري وبصيصًا من نور لنهارٍ ماتْ.

(7)
لم تترك عنوانًا، قال مدير المسرح وهو يَمُطُّ الكلمات.

(8)
تسقط في غابات البحر الأسود أوراق الأشجارْ
تنطفئ الأضواء ويرتحل العشاق
وأظل أنا وحدي, أبحث عنها, محمومًا أبكي تحت الأمطار.

(9)

أصرخ: (لارا)
فتجيب الريح المذعورة: (لارا) في كوخ الصياد.

(10)
أرسم صورتها فوق الثلج, فيشتعل اللون الأخضر في عينيها والعسليُّ
الداكن, يدنو فمها الكرزيُّ الدافئُ من وجهي, تلتحم الأيدي بعناق
أبدي, لكن يدًا تمتدُّ, فتمسح صورتها, تاركة فوق اللون المقتول
بصيصًا من نورٍ لنهارٍ ماتْ.

(11)
شمس حياتي غابت. لا يدري أحد. الحب وجود أعمى ووحيد
ما من أحدٍ يعرف في هذا المنفى أحدًا. الكل وحيدٌ. قلب العالم من حجرٍ في هذا المنفى الملكوتْ

10. خاطرة دبلوماسية

حفلات ثقافية

كانت الحكومة العراقية قد عقد اتفاقيات مع العديد من الدول الأوربية وغيرها، بموجبها تتضمن الاتفاقية (فيما تتضمن) إقامة حفلات موسيقية، وغنائية، ومعرض رسم، وأمسيات شعرية، وعروض أزياء وغيرها من الفعاليات .

والحق أننا في السفارة العراقية ببرلين / ألمانيا الديمقراطية، كنا نقلق من ردود الأفعال على مستوى العروض، ذلك أننا كنا نعلم بدقة تامة المستوى الثقافي والفني الرفيع المستوى في ألمانيا، ونخشى أن لا تكون عروضنا بالمستوى الفني الجيد (على الأقل) بما يلفت الانتباه أننا في العراق قادرون على تقديم فقرات فنية وثقافية يمكن أن تنال إعجاب الجمهور.

ولكن التجربة العملية أثبتت لي ولغيري من الزملاء الدبلوماسيين، أن بوسعنا أن نقدم عروض فنية راقية بمستوى أكثر من جيد، إلى جيد جداً بل وممتاز ومبهر أحياناً. واليوم تختلط تلك الذكريات في خاطري فأتذكر البعض منها ومنها :

الاشتراك بمهرجان الأغنية السياسة، وقدمت فرقة عراقية عدة أناشيد وأغاني، ومنها أنشودة " مرحبا يا معارك المصير " التي نالت إعجابا منقطع النظير.

ثم عروض دار الأزياء العراقية، بإدارة السيدة فريال الكليدار، كانت عروضها مذهلة وقدمت على واحدة من أهم مسرح برلين / مسرح مكسيم غوركي ". وقالت لي عارضة أزياء ألمانيا، وهي منبهرة من روعة العرض، أنها لم تكن تتخيل مطلقاً أن تنجح فرقة عراقية بتقديم عرض رائع كالذي شاهدته في برلين.

عروض عزف بيانو للسيدة بياتريس أوهانسيان، لفتت أنظار الألمان بشدة، مع أن البيانو آلة موسيقية شائعة في ألمانيا، وأن تتمكن سيدة عراقية من لفت أنظار وانتباه المستمعين لوحده يعد إنجازاً ثقافيا ممتازاً.

قدم الموسيقار الكبير منير بشير لأكثر من مرة عروضاً على آلة العود، قدمها الألمان مرة على مسرح أبولو وهي المسرح رقم 1 في برلين، حضرها الوجوه الثقافية والفنية المهمة، وأبدع الفنان الكبير منير بشير في تقديم عروض باتجاهات موسيقية مختلفة على آلة العود كانت في غاية الروعة، ومرة أخرى قد عرضاً لا يقل روعة في قاعة موسيقى قصر الجمهورية الفخم.

قدم الشاعر العراقي الكبير عبد الوهاب البياتي أمسية ثقافية دعي لها السلك الدبلوماسي، وأبرز الشخصيات الثقافية والفني في برلين، وترجمت بضعة قصائد إلى اللغة الألمانية وطبعت على نحو جميل، وشخصية الشاعر البياتي الطاغية كان لها حضورها وتأثيرها، في أمسية ثقافية رائعة تواصل الحديث عنها في الوسط الدبلوماسي والثقافي بعدا طويلاً.

قدم الرسام العراقي (المرحوم) داؤود سلمان عناد معرضاً للوحاته في أولى مراحل انطلاقته، في قاعة عرض برج التلفزيون، كانت مثار إعجاب الحضور، وفيما بعد أصبح الفنان داؤود سلمان عناد أحد الوجوه الفنية البارزة في المجتمع البرليني وهذا أمر ليس بالهين أن تتقدم وتبرز في مجتمع متفوق. وهناك عدد من لوحات المرحوم داؤود في متحف الفن الحديث بدرسدن.

أقامت السفارة معرضاً فنيا كبيراً للفنان العراقي الكبير المرحوم خالد الجادر، ومنحتنا وزارة الثقافة القاعة الرئيسية في المتحف التاريخي الفخم " المتحف القديم " (Alt Museum) وهذا لوحده تكريم لا تمنحه وزارة الثقافة بسهولة، وخالد الجاد شخصية فنية وعلمية كبيرة، يكفي أنه كان محكماً في البوزار الفرنسي، وهو ما أثار دهشة الألمان، وألقى خالد الجادر بكلمة ترحيبية باللغة الفرنسية، وبلطفه وثقافته الواسعة كان مثار إعجاب الحاضرين.

هذا غيض من فيض، استطعنا أن نقدمه للجمهور الألماني، (أتحدث عن فترة عملي في السفارة كشخص ثاني"مستشار" أو كقائم بالأعمال للفترة من 1 / حزيران / 1075 وحتى 1 / 9 / 1979) وتمكنا من تقديم عروض وفقرات في مجال الثقافة والفنون، لجمهور مثقف راق، استطعنا أن نعرض لهم ثقافة عراقية عربية في إطار راق، وأن نترك انطباعا جيداً. وكان كادر السفارة بأسره يتعاون ويعمل بصورة جماعية لتقديم صورة متحضرة عن بلادنا، بعدد قليل من الموظفين، وبتخصيصات مالية قليلة جداً.
لذكرى عمل ذلك الكادر المخلص للبلاد .. تحية

11. خاطرة دبلوماسية

دبلوماسية أفغانية رفيعة

حدثني زميل دبلوماسي وكان (career diplomat)، أي دبلوماسي متدرج ممتهن، وله خبرة جيدة في العمل الدبلوماسي، وكنا نتبادل الخبرات والتجارب، وأنا كانت خبرتي العملية أقل من خبرتي النظرية، بينما كانت هو خبرته العملية أكثر من خبراته النظرية. وإذا كنت عزيزي القارئ تظن أن الدبلوماسية هي حكر على القوى العظمى، فأنت مخطئ، فالدبلوماسية مهنة الأذكياء، والمثقفين والمستعدين تعليمياً لهذه المهنة التي أعتبرها من أصعب المهن في العالم. فالدول العظمى ربما في حالة معينة، لا تحترم الدبلوماسية وتخترق قواعدها، وأبرز دليل على ذلك هو قرار العار للولايات المتحدة شن الحرب على العراق بدون موافقة مجلس الأمن (الأمم المتحدة).

حدثني زميلي :
أنه كان في أعوام السبعينات قائماً بأعمال السفارة العراقية في مملكة أفغانستان. وكانت الحرب مستعرة لأقصى درجاتها في فيتنام، والولايات المتحدة متورطة حتى أذنيها في المستنقع الفيتنامي، الذي كان الحدث الأشد اهتماماً في السياسة الدولية. وأفغانستان كانت توالي السياسة الأمريكية عامة بهدوء بدون صخب. ولأفغانستان حدود مع الاتحاد السوفيتي وهناك علاقة تقليدية مهمة بين أفغانستان والاتحاد السوفيتي يجب أن تراعيها وتحترمها، ولكن الأهم هو حدودها مع الصين الشعبية التي كانت تحرص على إعلان موقفها الصريح الداعم لفيتنام سياسيا وعسكرياً. وعلى السياسي الأفغاني أن يكون ماهراً جداً لقيادة هذا الزورق الصغير المتعب وسط هذه الأمواج والأعاصير الجبارة ..!

فوجئ الوسط الدبلوماسي الأجنبي في كابل (عاصمة أفغانستان) بزيارة وزير خارجية يوغسلافيا إلى كابل، وصدور بيان مشترك (communique) (وهو ليس ضرورة حتمية لزيارة وزير خارجية، ويمكن الاكتفاء ببيان صحفي لزيارة بمستوى وزير خارجية) وتضمن البيان المشترك " تأييداً للشعب الفيتنامي وإدانة للحرب العدوانية الأمريكية على الشعب الفيتنامي ". الدهشة عقدت ألسن الدبلوماسيين، فما لذي غير الموقف الأفغاني، ومن المؤكد أن الجانب اليوغسلافي لم يكن ليصر على إدراج هذه الفقرة في البيان المشترك الغير مهم إصداره أصلاً كما نوهنا... فهي والحالة هذه تعبر على الأرجح عن رغبة أفغانية، ولكن أين السر في تغير الموقف ..؟

يقول زميلي الدبلوماسي العراقي، أن سفارتنا (سفارة الجمهورية العراقية / كابل) كانت تتمتع بعلاقات تقليدية ممتازة جداً مع السلطات الأفغانية، وزميلنا شخصياً والسيدة عقيلته يتمتعون بصداقة عائلية متينة مع أسرة الملك وبناته وأولاده، ومع وزير الخارجية الأفغاني المتزوج من إحدى بنات الملك. لذلك توجه كل الدبلوماسيين الأجانب إلى زميلنا العراقي ليحل لهم سر هذه الأحجية ..!

يقول زميلنا العراقي، أنه كان وزوجته يتصلون بشكل طبيعي بالقصر ويلتقون في أمسيات عائلية، لذلك أسرع وطلب موعداً عائلياً مع وزير الخارجية، وفي اللقاء .. كان وزير الخارجية (الذكي دون شك) يبتسم وبادر صديقنا حين استقباله بباب القصر بقوله: هذه المرة أعلم ما وراءك ...! ولما جلسنا توجهت له بالطبع بهذا السؤال المثير للحيرة ... أبتسم وزير الخارجية وأسمع زميلنا ما لم يكن يتوقعه : " أنظر يا صديقي، رئيس وزراء الصين شوان لاي قادم بعد شهرين بزيارة رسمية إلى أفغانستان بدعوة من الحكومة الأفغانية، وستدوم الزيارة 4 أيام (تعتبر زيارة طويلة)، ومن المؤكد أنه سيطلب وبقوة إدارج فقرة إدانة العدوان الأمريكي على الشعب الفيتنامي في البيان المشترك، وسوف يكون من الصعب جداً مقاومة رغبتهم هذه، وإذا وافقنا وصدر البيان المشترك ويتضمن موقفنا الجديد، فسوف يفسره الجميع على أنه رضوخ أفغانستان للسياسة الصينية. ومن أجل أن نتفادى ذلك قمنا بتوجيه الدعوة لوزير الخارجية

اليوغسلافي (لاحظ اختيار يوغسلافيا) ونحن من طلب إدراج فقرة " إدانة العدوان الأمريكي على الفيتنام " في البيان المشترك وسط دهشة الجانب اليوغسلافي، الذي كان سيكتفي ببيان صحفي، ولا يصر على إدانة الولايات المتحدة.

يستطرد وزير الخارجية الأفغاني " أننا بهذه المبادرة تجبنا الظهور بمظهر الرضوخ للطلب الصيني، حين تحل زيارة رئيس وزراء الصين بعد شهرين، وأن تغير الموقف هو بإرادتنا ".

الرجاء من القراء تخيل الحكمة والذكاء، في أخيار المواقف، وفي العمل السياسي ..... أتوقع أن ينطلق خيال القراء وسوف يقومون بأمثلة ومقارنات ...

12. خاطرة دبلوماسية

العلاقات العراقية ـ الألمانية

ذات مرة كان أحدهم يسألني عن صادرات ألمانيا الديمقراطية (الاشتراكية) للعراق، والتبادل التجاري كان ممتازاً بين الدولتين، وكانت هناك لجنة حكومية عراقية / ألمانية يرأس الجانبان فيها مسؤولون رفيعي المستوى (وزراء تجارة) يجتمعون مرتين سنوياً، مرة في بغداد ومرة في برلين. ويمكن القول أن لم تكن هناك مشكلة تذكر. والعراق كان يفرض بعض المواد في تجارته على ميزان التبادل، مثل التمر، وأعتقد السجاد الصوفي، ولم تكن دول كثيرة تقبل هذا الفرض، ولكن ألمانيا الديمقراطية قبلت به، وكانت العلاقات ممتازة حتى كأشخاص أعضاء الوفود كانوا يجدون الود ومشاعر الصداقة.

والألمان كانوا مخلصين في صداقتهم، كانت هناك بعض الغيوم الخفيفة تعكر العلاقات، ولكن الحكمة وإرادة الطرفين كانت تزيل تلك الغيوم، لتنطلق العلاقات ممتازة، وكان يديرها موظفون أكفاء عراقيون المستشار الدكتور مدحت الحيالي، والمستشار الاستاذ فلاح مرزا محمود)، والمستشار الثقافي الاستاذ عبد الجبار الدوري المستشار الثقافي، رغبة صادقة في خدمة مصالح البلدين. والألمان كانوا يدركون تماماً أن العراق لديه برنامج للتطوير الاقتصادي والاجتماعي والعلمي لذلك كان لا مجال للهفوات غير المقصودة، والعلاقة تتواصل بقوة وبما فيه الفائدة.

ذات يوم سألني أحدهم ماذا يستفيد العراق من ألمانيا الديمقراطية. وسائلي لم يكن متخصصاً بشيئ، وكل معارفه تتلخص بكلمة " أعتقد أو أظن " .. دهش لما أخبرته أن حجم التبادل بين العراق وألمانيا الديمقراطية ضخم، يبدأ بالصناعات الثقيلة وينتهي بمعدات خدمية، كنا نشتري القاطرات للسكك الحديدة، وسيارات الشحن إيفا، حتى كانت هناك مفاوضات جدية لشراء السفن من ألمانيا. فأستغرب وقطب جبينه قائلاً " سفن ؟ " لم يعجبه الأمر وقال لا أعتقد .. فحاولت أن أكتم ضحكة، ولكني قلت له بجدية " أسمع يا صديقي، تلقينا تكليف من الحكومة عن أوضاع بناء السفن، وكنا لا نمتلك معلومات دقيقة، وحين طلب مسؤول في السفارة، (المستشار التجاري أو السفير) موعداً مع شركة بناء السفن في مدينة روستوك / فارنمندة، المطلة على بحر البلطيق، وفي اللقاء الذي تم في مقر الشركة ، علمنا أن شراء أي سفينة بالمواصفات المطلوبة، الأمر يستغرق سنوات طويلة أكثر من 5 سنوات، و كنا نحن نعتقد أننا في دكان، نشتري السفينة التي نشاء، ندفع الفلوس ... ويالله يا شباب ..! وعلمنا أن دول غربية كبيرة تنتظر دورها في طلبات بناء السفن، ثم علمنا، وكان للعراق مجموعة من الشباب يدرسون الهندسة وفروع البحرية في ألمانيا، إن الصناعات بحر عميق الغور، ينطوي على علم وفهم كبير جداً ... وكان العراق قد بدأ بدخول هذا المجال بقوة، وبدأ يكتسب الخبرات.

ألمانيا الديمقراطية كانت طرفا مهماً في عملية التنمية. وتلك أيام وتجارب، كنا في السفارة نعمل بكل جهد أن نقدم شيئاً للعراق، ونذكر بعضنا، أن الوطن يدفع لنا رواتب بالعملة الصعبة، فعلينا أن نقدم أفضل ما يمكن. رغم أن الدبلوماسيين كانوا يتقاضون رواتباً ضئيلة قياساً حتى لزملائهم الدبلوماسيين العرب، وأقل بكثير جداً من رواتب الأوربيين، لكن العمل كان يسير قدماً وهناك منجزات تتحقق. اليوم بوسعي القول أن السفارة كانت تعمل بدقة، ولم يكن هناك تقصير يستحق الذكر، نعم كان كبار موظفي السفارة ينتقدون من أجل تقديم الأفضل، وكان لدى شعور مادي أكيد، أن البلد ينتظر منهم الخدمات، لذلك كان الجميع (تقريبا) يبذل أفضل ما عنده.

سنوات عمل ... وذكريات أصدقاء ... لا تنسى

13. الفنان الكبير د. خالد الجادر

في إطار الاتفاقية الثقافية العراقية / الألمانية (ألمانيا الديمقراطية) ، تقرر إقامة معرض لرسوم وأعمال فنانين عراقيين في برلين، ووصلت أعمال الفنان الكبير خالد الجادر الذي أختاره الجانب العراقي لإقامة معرضا لأعماله في العاصمة الألمانية.

استلمنا اللوحات والرسوم، وقدمناها للجانب الألماني، ومعها سيرة الفنان د. الجادر، وهي مبهرة وله سيرة مجيدة في العالم التشكيلي، توجها بحوله على الدكتوراه من باريس/ فرنسا، ونشاطه العلمي والفني فيها .. ومنها إقامته معارض في العديد من الدول ومنها باريس، قم عمله في مدرسة الفنون الجميلة الفرنسية / البوزار وعمل محكماً في اختيار اللوحات الفائزة بمسابقات البوزار. وتقديرا للمكانة الكبيرة للفنان العراقي الكبير، اختارت وزارة الثقافة الألمانية قاعة مهمة في المتحف الكبير (Alt museum) ، وهو من أهم المتاحف وأعرقها في العاصمة برلين، وهذا شرف كبير قلما يمنح لفنان ألماني أو أجنبي.

ويوم أفتتاح معرضه، كنت بالطبع حاضراً، وبحضور ممثلي السلك الدبلوماسي الأجنبي المعتمد وكابر الفنانين والمثقفين الألمان، وكنا قد وزعنا " البروسبكيت الخاص بالمعرض " (كراس تعريف بالفنان، وبأعماله) وهمست في أذنه، فالقى كلمة الترحيب بلغة فرنسية سليمة، فزاد إعجاب الحضور به، وأستطاع أن يكسب المحبة إلى جانب الأحترام لأعماله الرائعة. ونجحنا كسفارة من خلال هذا الجهد الثقافي من إبراز قامة فنية عراقية كبيرة مجسدة بالفنان الكبير خالد الجادر.

خلال فترة استغرقت بضعة أسابيع إعداد المعرض، نسجت علاقات شخصية متينة بيني وبين الدكتور الجادر في جلسات طويلة بمقاهي برلين وأحاديث الفن والثقافة التي لا تنتهي .. صار خلالها انسجام تام بيني وبينه، وتواصلت بالرسائل، ولكن الجادر كثير الحل والترحال (كمعظم الأدباء والفنانين)، حتى توفي مبكراً عام 1988 عن عمر60 عاماً. خالد الجادر فنان عراقي كبير وصديق عزيز ... وهذه الخاطرة تحية لذكراه.

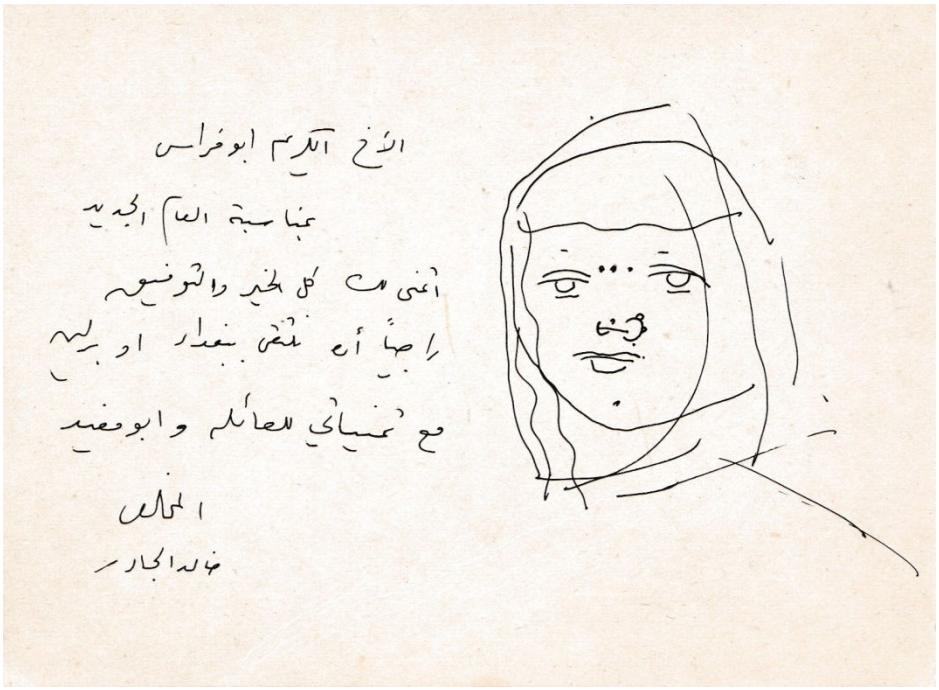

بطاقة أرسلها لي الفنان الجادر من بغداد .. والصورة من رسمه بالطبع

14. خاطرة دبلوماسية

حادث مؤسف

حدث عام 1979، أن علمت صباح إحدى الأيام مع بداية الدوام الرسمي، أن أحد موظفينا (من الملحقيات الفنية) قد قام بعمل حادث سيارة لقي فيه أحد المواطنين الألمان مصرعه، وكان يركب دراجة بخارية. وذهبت إلى محل الحادث، وكانت الشرطة موجودة وقد تم إخلاء موظف سفارتنا بسرعة من مكان الحادث، وغطيت لوحات وأرقام السيارة بطريقة لا يمكن معرفة عائدية السيارة لأي سفارة.، وهو عمل دون شك ينطوي على فطنة وذكاء.

قابلت موظفنا، وكان تحت تأثير الحادث، وأخبرته، أن السلطات الألمانية ستتخذ إجراءات، ولكن بوصفه يحمل جواز سفر دبلوماسي، وهو أحد أعضاء السفارة رسمياً، لذا من المستبعد أن يعتقلوه، أو أن يطلبوا منا نزع الحصانة عنه، فعلاقتنا مع الدولة الألمانية جيدة جداً، ولكن يرجح أن يطلبوا إبعادك، وبتقديري أنك يجب أن تغادر البلاد حتى ولو لم يطلبوا ذلك رسمياً. فوافقني الموظف.

وفي اليوم التالي استدعتني وزارة الخارجية الألمانية، وبينت أن سبب الاستدعاء هو حادثة الدهس التي حصلت بالأمس. وفي مقر وزارة الخارجية استقبلت بذات الطريقة التي أستقبل بها في كل مرة، وفي الاجتماع، بدأ مدير عام الدائرة المختصة، بشرح حادث الأمس، وكان يصل إلى تلفظ كلمات طلب إبعاد موظفنا، ثم يتراجع ويشرح الحادث، كررها مرة أو مرتين، فرأيت أن أبادر بنفسي، ولا أجعله طلباً رسمياً من وزارة الخارجية الألمانية، فقلت للسفير مدير عام الدائرة، أن موظفنا يشعر بحزن وأسى شديد، ومصدوم نفسياً، وهو الذي كان في غاية السرور لوجوده في السفارة ببرلين، ولكني أعتقد بأنه يصعب عليه أن يواصل الخدمة في السفارة، لذلك سأطلب من وزارة الخارجية العراقية نقله إلى بغداد.

تهلل وجه المدير العام الألماني، فقد أعفيته من مهمة ثقيلة، فعبر بالكلمات ممتناً من قراري، وهكذا تجنبنا طلباً رسمياً خطياً بإبعادة. (وهو أمر له قيمته الكبيرة في العرف الدبلوماسي) وفعلاً صدر أمر نقل الموظف من بغداد وغادر برلين، وقامت شركة التأمين بتعويض عائلة المتوفي، وسويت القضية قانونياً.

15. خاطرة دبلوماسية

قبول طلاب للدراسات العليا

كانت الدولة العراقية تبذل جهودا حثيثة، وتعقد اتفاقيات مع الدول الأجنبية من أجل توسيع أعداد موفديها للدراسة في الخارج، وكانت الدراسة تشمل : " التدريب، دورات تعليمية (قصيرة الأجل)، الدراسة بمستوى الدبلوم ، البكلوريوس، الماجستير، الدكتوراه ".

والدراسة بمستوى الماجستير والدكتوراه كان ينطوي أساساً على نوعين : الأول أن تكون الدراسة على حساب ونفقة الجمهورية العراقية، ويجري التفاوض على حجم الأجور. والثاني هو مسعى عراقي للحصول على منح دراسية مجانية تعطى للعراق على في إطار تبادل ثقافي، وكان العراق يقبل بالمقابل أعداد من طلبة ذالك البلد للدراسة في العراق (لغة عربية، تاريخ وآثار ..الخ). وكانت السفارات العراقية مكلفة بمتابعة الاتفاقيات الثقافية وتنفيذها في كلا الشقين، ولكن لم يكن الأمر ليخلو من مشاكل في تنفيذ الاتفاقيات.

ومن تلك المشاكل، أن الطلبة العراقيون كانوا يتأخرون في الوصول إلى البلد الأجنبي أياماً وربما أشهراً لأسباب كثيرة، الروتين وعدم احترام المواعيد، والتداخلات العديدة، فيما يكون الجانب (الأجنبي،الألماني مثلاً) قد أستعد لأستقبال الطلبة الموفدين مثلاً في موعد (1 / أيلول) وقد نظم مبيت الطالب في القسم الداخلي، وحجز له الإطعام، ومبلغ المال (مصروف الجيب)، ومقعد في دورة معهد اللغة، ونظمت له بطاقة المواصلات المجانية، والتأمين الطبي ..الخ من التفاصيل. وبعد هذا يأتي الطالب بعد شهر أو أكثر يريد الالتحاق بالدراسة ... بالطبع كان هذا التصرف يثير حنق الجهات الأجنبية، وبصراحة غضبنا نحن في السفارة. ولكن هذا كان يتكرر سنوياً. بشدة أقل أو أكثر .. المهم كان يتكرر.

ذات يوم أبلغني المستشار الثقافي، وكان ممن تخرج في الجامعات الألمانية ويعرف الأصول (د. شهاب أحمد)، أن وزارة التعليم العالي مستاءة وترفض التعاون، وأقترح أن أتولى بنفسي حل الإشكالية معهم، وفعلاً حققنا موعداً على دعوة غداء، وكانوا فعلاً مستاءين ولهم كل الحق، وأخبرتهم : أننا نتعامل كأصدقاء (العراق وألمانيا الديمقراطية)، وأننا بلد نامي يتطور ويتقدم، ولكننا لم نبلغ المستوى الذي يرضينا نحن، ولكننا نعمل دون هوادة في العراق كدولة وكمؤسسات، ولكن لابد من الوقت لنتمكن من اجتياز مشكلاتنا، لذلك نتوقع منكم أكثر من غيركم كأصدقاء أن تتفهموا مشاكلنا وجهودنا، ولا أعدكم بأننا سنكون مضبوطين ابتداء من الغد، ولكن سنقلص مشاكلنا وسنعمل كل جهدنا أن نفعل الأفضل ....

كان الجانب الألماني يستمع لنا بدقة وهم ثلاثة أشخاص اثنان من وزارة التعليم العالي، والثالث من وزارة الخارجية. فيما كنا من السفارة العراقية أنا والمستشار الثقافي د. شهاب أحمد. تفهم المسؤولون الألمان كلامنا وتعاطفوا معنا ومع صراحتنا، وقالوا أنهم سيوعزون لكافة الجهات أن تتعامل بمرونة مع الطلبة العراقيين ومع السفارة العراقية وملحقيتها الثقافية.

العراق فعلاً كان يقطع خطوات كبيرة في التعليم، والطلبة في الغالب كانوا يبذلون جهوداً طيبة، وكانت نسبة المتفوقين تتحسن، وفعلاً احتل عدد طيب من خريجي ألمانيا الديمقراطية من كافة التخصصات مواقع أكاديمية وعملية مهمة في العراق بعد عودتهم.
كانت دوائر سفارة الجمهورية العراقية في برلين تعمل كعائلة واحدة، تربط بين أفرادها علاقات عمل و شخصية / عائلية ممتازة، وبذلك أمكن تقديم الكثير من العمل المفيد على كافة الأصعدة. وما نسمعه الآن عما يدور في الخارجية العراقية أشبه بالخرافات التي لا تصدق ...!

16. خاطرة دبلوماسية

عازف الكمان فوق السطح

حضرت العديد من المرات ما يسمى " مجلس السفراء العرب " وهو كيان دبلوماسي (لا أعلم إن كان ما يزال موجود) وهو اجتماع للسفراء العرب (والقائمين بالأعمال) في كل دول الخارج، يرأسه كالعادة أقدم السفراء العرب من جهة الخدمة في تلك العاصمة، ويناقش الاجتماع القضايا التي تواجه السفراء العرب في ذلك البلد، من أجل اتخاذ مواقف مشتركة.

من جملة مواد جدول الأعمال التي ناقشها ذلك الاجتماع الذي كنا بصدده، أن مسرح الدولة في برلين وهو المسرح الأكبر والأفخم في عاصمة ألمانيا الديمقراطية تعرض مسرحية معروفة عالمياً بأسم، بالألمانية (**Der Fiedler auf dem Dach**) " عازف الكمان فوق السطح ". وعنوانها باللغة الإنكليزية **(Fiddler on the Roof)**، ومسرح الدولة الفخم الذي شيد عام 1743 وتغير أسمه مرتين، حتى أستقر عام 1955 على "**(Staatsoper Berlin).** وكانت العاصمة الألمانية الاشتراكية تضم ذلك الوقت لا يقل عن 6 أو 7 مسارح. وكانت العاصمة برلين تشهد حياة ثقافية قوية وثرية جداً على كافة الصعد الفنية : فنون تشكيلية، موسيقى، ومسرح.

وهذه المسرحية / الموسيقية التي عرضت لأول مرة عام 1905 في روسيا القيصرية، كانت ذات حبكة قوية، إلا أن الصهاينة تدخلوا بوسائلهم المعروفة، وضمنوا المسرحية مغزى، أن اليهود مضطهدين في كل العالم (المسرحية تدور أحداثها حول اضطهاد اليهود في روسيا في القرن التاسع عشر)، وفي الدقائق الأخيرة للمسرحية الموسيقية، جملة واحدة بمعنى: " أن لا حل سوى الذهاب لأرض الميعاد فلسطين ".

مجلس السفراء العرب قرر التدخل لدى الجهات المعنية بالشؤون الثقافية في الدولة الألمانية (وزارة الثقافة / وزارة الخارجية) التدخل، الاحتجاج، المطالبة بإيقاف العرض، أو تعديل النص .. أو ... الخ. وقد طلبت من عميد السلك الدبلوماسي العربي وكان آنذاك السفير اللبناني (د. خليل مكاوي) وهو شخصية محترمة أن يكلفني بتسوية الموضوع مع الجهات الألمانية، فطرح ذلك في اجتماع المجلس وتمت الموافقة على مقترحه.

ورتبت موعداً في وزارة الثقافة الألمانية، (وكان لليهود حضورا فيها أقوى من أي مؤسسة أخرى) وكان نظام الدولة الاشتراكية لا يتقبل بالطبع أي نوع من الدعاية الدينية والعنصرية، وكانت لي علاقات جيدة مع الشخصيات القيادية في الوزارة، وطرحت عليهم المهمة التي أنا مكلف بها من مجلس السفراء العرب، فأبدوا التفهم لمهمتي، وأوضحوا " أن هذا نعتبره عمل فني، ونحن لا نتدخل بالأعمال الفنية ... ".

فأجبتهم: **أن ليس كل عمل فني يحمل العمق الثقافي في جوهرة، بل العكس قد يكون جوهر العمل رجعي وعنصري ومحرض على التطرف الديني والعنصري، وظيفة الفن هو صياغة فنية لمعاناة صالحة للتعميم، وليس التحريض على اتخاذ مواقف عنصرية. وإلا هل يمكننا اعتبار أعمال الرسام الكبير مارك شاغال عظيمة (رغم متانة تكنيكها) وهي الزاخرة بالمفاهيم والإشارات العنصرية العدوانية، ومثلها أيضاً أعمال كاتب يعتبره الغرب كبيراً، مثل الكسندر سولجنستين " جناح السرطان " و " أرخبيل غولاغ " أعمالاً فنية راقية كما يروج لها في الغرب الرأسمالي ..؟ وبغض النظر على التفصيل الإنساني، إلا أنها في جوهرها معادية للاشتراكية وقيمها الإنسانية السامية ....** وهذه الأعمال منعت من دخول العراق مثلاً ..!

كانت كلماتي هذه مفحمة لمن يتحادث معي، فأضطروا للقبول بأطروحتي، وأصدروا قراراً بإيقاف المسرحية الموسيقية (الجميلة شكلاً والصهيونية مضمونا) ...!

17. خاطرة دبلوماسية

جولة دبلوماسية

في أواسط عام 1978 نظمت وزارة الخارجية الألمانية جولة لعشرون دبلوماسياً معتمداً في برلين / ألمانيا الديمقراطية. كنت الدبلوماسي العربي الوحيد، من بين المجموعة التي كانت تضم على الأكثر دبلوماسيين من البلدان الغربية : الولايات المتحدة، فرنسا، بريطانيا، النمسا، سويسرا، إيطاليا، وتركيا، ودبلوماسي سوفيتي، وتشيكي، البرازيل، الأرجنتين، وآخرون .

وتحركت المجموعة ومعنا موظفين من وزارة الخارجية الألمانية، على من حافلة مريحة، صوب جنوب ألمانيا. والجنوب الألماني في معظمه مناطق جبلية، لذلك فإن معظم الصناعات تقع في الجنوب، فيما تكون الأراضي في الشمال منبسطة صالحة للزراعة، ومع وجود صناعات أيضاً، مثلا الصناعات البحرية في المدن المطلة على بحر البلطيق، روستوك، فارنمنده، غرايزفالد. ثم هناك ولاية لايبزغ التي تقع في الوسط تقريباً، وأراضيها منبسطة / جبلية، لذلك كانت تعتبر من أكثر المدن الصناعية (نحو 23%) من الصناعة في ألمانيا الديمقراطية.

حططنا الرحال أولاً في محافظة غيرا (Gera) في فندق ممتاز، والجولة والتي يدأت ملامحها تتضح، في كونها زيارات لأبرز الصناعات الألمانية الخفيفة والثقيلة والالكترونية. وابتدأ البرنامج بزيارة لمصنع ينتج المعجنات المصنوعة من الحبوب (قمح وشعير) والمصنع المؤلف من 5 أو 6 طوابق كان حقا مدهشا حقاً ويستحق الزيارة، وتأتي الشاحنات بالطحين لتفرغها في مدخل خاص بطريقة آلية، وتتفرع إلى اتجاهات إنتاج عديدة الخبز على أنواعه، وبدرجات مختلفة من احتواءها على النخالة، أو خبز الشعير، ثم إنتاج المعجنات من الكيك والكعك على أنواعه، والمصنع يختص بإنتاج فقرات كثيرة جداً، تدور بشكل آلي لا تلمسها يد العاملين، في الطوابق الخمسة أو الستة، ثم لتخرج أخيراً مغلفة ومعلبة بشكل جميل وصحي لتأخذها الشاحنات إلى أماكن التوزيع.

والموقع الإنتاجي الآخر الذي زرناه كان موقع ينتج اللحوم من الخنزير، ومصمم بطريقة يتم الاستفادة من الحيوان حتى عظامه، ومخلفاته العضوية. والموقع كان نظيفاً صحياً ويدار بطريقة آلية : تقديم العلف/ الجزارة، والتعامل مع اللحوم.

الموقع الثالث كان زيارة لمصنع البورسلان (Porzellan Kahla) المؤسس 1844، ورغم أن صنف إنتاج هذا المصنع يصنف على أنه من الدرجة الثانية أو الثالثة إلا أنه ينتج روائع البوسلان، مما يضع أعماله فس صدر الإنتاج العالمي من البورسلان. وألمانيا تعد دون ريب في مقدمة دول العالم في إنتاج البورسلان من حيث الجودة والجمال. والناس يتباهون بحيازتهم طقماً للطعام أو الشي / القهوة من هذا النوع. والزيارة كان ممتعة جداً إذ تشاهد صناعة وإنتاج هذا الصنف الراقي المشهور عالميا.

الموقع الرابع والأخير كان المصنع العملاق الذي يضم 4500 عامل ومهندس وإداري (Carl zeiss) في مدينة ينا (jena). وهذا المصنع قد تأسس عام 1903، واختصاص المصنع المشهور عالميا، هو إنتاج العدسات، وكل ما يدخل تحت هذا العنوان من منتجات : آلات تصوير (كاميرات)، ميكروسكوبات، عدسات طبية للاحتياجات الخاصة، أجهزة تحليل للمختبرات، وبأختصار ينتج هذا المصنع نحو 45 ـ 50 فقرة بالغة الأهمية، فعدساته تستخدم في الأقمار الفضائية، وعدسات طبية لذوي الاحتياجات الخاصة من الأمراض النادرة، وتصنع أحياناً بطلب خاص، وفقرات تدخل في الصناعات (Microelectronics) ميكروالكتروتكنيك. وأخبرنا مدير المصنع أن هناك منتجات تعد سرية لا يمكنه التصريح بها. وشاهدنا بالفعل العدسات الخارقة التي تلقط صوراً في غاية الوضوح لقاعدة عسكرية مثلاً بوسعك أن تميز رتبة

الضابط الذي يسير على أرض القاعدة هل هو ملازم أم ملازم أول .. من علو مئات الكيلومترات ..! وقد شاهدنا صورا لمرسى زوارق ...! يقيس لك حجم القارب 5 متر 78 سنتمتر ..!

هناك أصناف من الكاميرات ليست للبيع الاعتيادي عدا كاميرات الأقمار الفضائية، وكاميرات تزود بها طائرات الاستطلاع، هناك كاميرات تلتقط صورا لأبنية ومنشئات تظهر أبعادها على الصورة بالملميتر الواحد ..... وهذا الكلام عام 1978 ...!

ولكي لا أدوخ رؤوسكم كما دخنا نحن، وخرج دبلوماسيون من دول صناعية متقدمة كأميركا وبريطانيا وفرنسا .. وهم في حالة من الدهشة والاستغراب .. وأخيراً وليس آخراً ... قال لنا مدير المصنع أن منتجاته التي تصدر للخارج تدر دخلاً بقدر 11 مليار دولار ...! وهذا في أواسط 1978 ..! وكانت دول مهمة لا تتجاوز صادراتها 3 مليار دولار ..! كل هذا في مصنع في بلدة بمستوى قضاء (بينا) تابع لمحافظة (غيرا) .. يضم 4500 شخص ..

كان زملائي الدبلوماسيين في حالة من مشاعر مختلطة بين الذهول ... والإعجاب ..

بعد عودي كتبت تقريراً مفصلاً لوزارة الخارجية، وضمنت التقرير الأرقام والاحصاءات، والمعلومات بدقة تامة ... وكان مثيرا لدهشتهم وإعجابهم ايضاً.

18. سفير دفع حياته ثمناً لمبادئه

ترجمة : **ضرغام الدباغ**

تحرير : أوليغ يغوروف(Oleg Jegorow)
/ 18أيلول / 2019

فيرنر فون دير شولنبورغ (Werner von der Schulenburg) عمل سفيرا لبلاده (ألمانيا / الرايخ الثالث ـ النظام النازي) (1934 ـ 1941) وكان مقتنعاً بحسن نوايا السوفيت، وأن الحرب إذا قامت ستكون كارثية.

في أيلول ـ سبتمبر / 1939 كان الدبلوماسي الألماني فون شولنبورغ البالغ من العمر 63 عاماً، الذي يشغل منصب سفير ألمانيا في موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي كان سعيداً لأن بلاده توصلت إلى عقد اتفاقية مع الاتحاد السوفيتي عرفت بأسم معاهدة " عدم الاعتداء " أو سميت أحياناً بأسم ووزيرا خارجية البلدين :" معاهدة مولوتوف (وزير الخارجية السوفيتي) وروبنتروب (وزير الخارجية الألماني .(وكان السفير شولنبورغ مقتنعاً بصورة تامة، أن السلم بين بلده والاتحاد السوفيتي، هو أمر بالغ الأهمية لضمان الأمن لبلاده.

وقد عبر السفير شولنبورغ عن مشاعره هذه في رسالة لأحد أصدقاءه " أن هذا الأمر هو حقا معجزة دبلوماسية، وأني لآمل أن لا تتعرض لأي سبب من الأسباب، المنجزات التي حققتها المعاهدة للتخريب. الموقف لحد الآن هو جيد، وقد قمنا حتى الآن نحن الدبلوماسيين بواجباتنا بصفة تامة، وآمل أن يؤدي ذلك إلى أفضل النتائج الممكنة. "

ولسوء الحظ، فإن الآمال المخلصة للسفير أصيبت بضربة قوية بعد وقت قصير، ففي 22 / حزيران / 1941، اخترقت ألمانيا الهتلرية المعاهدة المعقودة بين البلدين، وقامت بمهاجمة الاتحاد السوفيتي بكل قواها. وضاعت سدى جهود ونشاطات السفير شولنبورغ من أجل أن يتواصل السلام ومضت هباء، وداسها الألمان بأقدامهم. ترى لماذا كان هذا الرجل يخدم هتلر ..؟

دبلوماسي من المدرسة القديمة
ربما كانت للسفير شولنبورغ وجهة نظر ماثلة للزعيم السوفيتي ستالين الذي عبر عنها خلال الحرب بقوله " الهتلريون يأتون ويمضون، ولكن الأمة الألمانية باقية."

فيرنرفون شولنبورغ
ابتدأ شولنيورغ (المولود في برلين عام 1875) الخدمة الدبلوماسية عام 1901، وذلك قبل وصول النازيين للسلطة بوقت طويل، وهو سلسل عائلة نبيلة لها تاريخها، وكأي من أبناء العائلات النبيلة عمل طيلة حياته في السلك الدبلوماسي، باستثناء فترة انقطاع للمشاركة في القتال في الحرب العالمية الأولى. ومن خلالها حصل على وسام الصليب الحديدي لإبدائه الشجاعة خلال الحرب. وخلال فترة عمله كدبلوماسي، تغيرت الحكومات لعدة مرات، وأحياناً بشكل جذري، ولكن شولنبورع كان كدبلوماسي محترف، يعمل لصالح البلاد بشكل مهني مع جميع الحكومات.

شغل شولنبورغ منصب سفير بلاده ألمانيا في طهران / إيران،، ثم نقل إلى بخارست / رومانيا حيث مكث حتى عام 1934، وخدمته تحولت إلى عمل دبلوماسي كبير حين نقل عام 1934 إلى موسكو. وعلى الرغم

من أنه لم يكن ليكن الود العميق للاتحاد السوفيتي، إلا أنه كان يشاطر **السياسي الألماني المحنك أوتو فون بسمارك قوله " من أجل الحفاظ على ازدهار ألمانيا ومن أجل أن تنعم بالسلام ينبغي عليها (ألمانيا) أن تحافظ على السلام مع روسيا."**

أزمات وتسويات

ويكتب روديغر فون فريتش، يكتب السفير الألماني في موسكو في مقاله بصحيفة "نوفايا غازيتا " عام 2014 : " كان السفير شولنبورغ يولي اهتماماً كبيراً للعلاقات الألمانية ـ الروسية والألمانية ـ السوفيتية، فبالنسبة له لم يكن هناك بديل لسياسة التعايش السلمي بين هاتين الدولتين العظيمتين ". ولكن بما أن النازيين تولوا الحكم في ألمانيا منذ عام 1933، أصبح أمر الحفاظ على علاقات جيدة بين برلين وموسكو صعباً للغاية

وقال غوستاف هيلغر الدبلوماسي الألماني الذي عمل في أعوام الثلاثينات في السفارة الألمانية في موسكو كتب " لا يستطيع أحد أن يمثل ألمانيا في الاحاد السوفيتي في ظل مثل هذه الظروف الصعبة الحساسة من الأزمات، وشروط الانتباه والحذر الدائم كما خدم السفير شولنبورغ ". وقد عمل هذا السفير كل ما في وسعه لتخفيف حدة التوتر عامي 1938 /1939 .

أتفق السفير شولنبورغ مع وزير الخارجية السوفيتية مكسيم ليتفينوف (وزير الخارجية من 1930 ـ 1939)، على أن تتوقف الصحافة في كلا البلدين من الهجوم والحط من قيمة البلد الآخر. وكان هذا العقد يتضمن أمكانية تمديده. ولكن دوره كدبلوماسي له حدوده، وتلك الحدود تقررها حكومة بلاده، وتلك الحدود تنص على تنفيذه الدقيق لأوامر وتعليمات رؤساؤه في وزارة الخارجية الألمانية. لذلك كان يؤيد بقوة اتفاقية عدم الاعتداء بين الدولتين.

أكاذيب هتلر

ولكن موسم وطقس ذوبان الجليد بين ألمانيا الهتلرية والاتحاد السوفيتي، لم يتواصل إلا لفترة قصيرة. فقد أعربت موسكو عام 1941 دعمها ليوغسلافيا بوجه الاجتياح الألماني لها. وحلت العديد من التوترات والشائعات في العلاقات بين الدولتين. وهنا قام السفير شولنبورغ بنتيه هتلر إلى مخاطر تدهور العلاقات، وخطورة انزلاقها إلى حالة الحرب بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي.

ويكتب هيلغر في مذكراته أيضاً، " في 28 / نيسان ـ ابريل / 1941 وخلال رحلة عمل إلى برلين، التقى شولنبيورغ شخصياً بهتلر، وشاهد مذاكراته ملقاة فوق مكتب هتلر، ولكنه لم يستطع التقدم بسؤال لهتلر فيما إذا كان قد قرأها، ولكنه حين كان يودعه، قال هتلر وكأنه يتحدث عفوياً " ثمة مسألة أخرى شولنبورغ ... أنا سوف لن أمضي للحرب مع روسيا."...

على الرغم من أن شولنبورغ كان عضواً في الحزب النازي، إلا أنه لم يكن نازياً حقيقياً، لذلك فإنه لم يكن موضع ثقة هتلر، وفي وقت لاحق سجل جوزف غوبلز (وزير الدعاية والقيادي في الحزب ومن المقربين لهتلر) سجل :" لم تكن لدى سفيرنا في موسكو (يقصد شولنبورغ) أي فكرة من أن ألمانيا ستهاجم .. فقد كان (السفير) يصر على وجهة نظره أن افضل سياسة هي أن نجعل من ستالين صديقاً وحليفاً لنا ... والسياسي الأفضل هي عدم إخبار الدبلوماسيين بنوايانا الحقيقية."

ضاع كل شيئ

في 22 / حزيران ـ يونية / 1941، حضر السفير شولنبورغ إلى الكرملين (القيادة السوفيتية) لأبلاغ وزير الخارجية السوفيتية فياتشسيلاف مولوتوف الذي حل بهذا المنصب بدلاً من ليتفينوف، بأن الحرب قد نشبت، وفي هذا الوقت كانت القوات الألمانية قد دخلت الأراضي السوفيتية بدون إعلان حرب.وكان السفير نفسه لم يتلق هذا الخبر إلا قبل وقت قصير. ويذكر الدبلوماسي الألماني في السفارة الألمانية

بموسكو أن السفير شولنبورغ بينما كان يتحدث مع مولوتوف وزير الخارجية السوفيتية رفع يديه إلى السماء مع إشارة بيديه تشير إلى العجز.

تعين على شولنبرغ أن يغادر موسكو عندما اندلعت الحرب، وعمل من عام 1941 إلى عام 1944 كان يعمل في وزارة الخارجية الألمانية، وترأس لجنة الاتحاد السوفيتي، وهو منصب رسمي لكن دون تأثير سياسي، وبالتالي لم يكن من المستغرب ألا لا يكون راضياً عن سياسات هتلر .

الموت والميراث
هذه القناعات دفع بالسفير شولنبورغ بالتقرب من المعارضة والمقاومة الألمانية ضد للنظام النازي. وفي عام 1944، وكان الموقف يشير بكل وضوح إلى أن ألمانيا ستخسر الحرب، شكل العديد من الضباط والمسؤولين مؤامرة لأغتيال هتلر وقلب نظام الحكم. وكانت درجة مساهمة السفير شولنبورغ فيها ليست بمرتبة عالية، ولكن كان سيكون له دور فيما لو نجحت المحاولة. بل وتردد أنه كان سيكون وزير خارجية ألمانيا المقبل. وحكمت عليه المحكمة بالإعدام شنقا.

وعلى الرغم من أن السيرة المهنية للسفير شولنبورغ قد انتهت، لكن مواقفه الحكيمة ومبادئه قد قدرت عالياً في ألمانيا في مراحل ما بعد النازية. ويكتب السفير فريتش " عندما تزور السفارة الألمانية في موسكو، ستجد السفير شولنبورغ شاخصاً في تمثال له ، وفي دار المستشارية ببرلين (مجلس الوزراء) تجد له صورة (بورتريه زيتي)محاطة بطوق من أوراق الغار، إلى جانب السياسي الكبير أوتو فون بسمارك. شخصية السفير شولنبورغ ومبادئه تستحق هذا التكريم ."

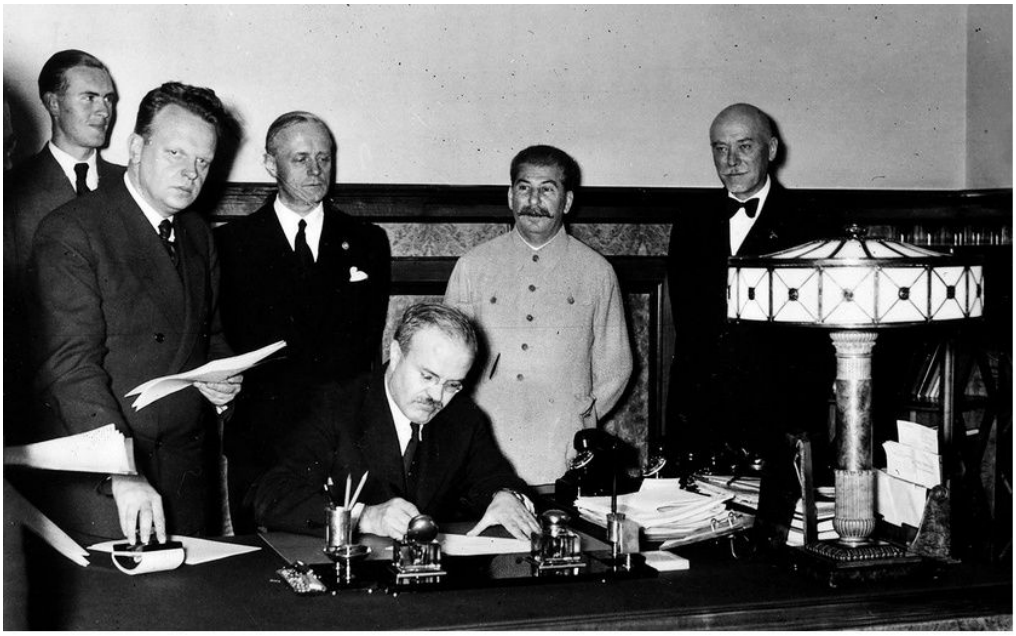

Schulenburg (r.) war Zeuge der Unterzeichnung des Nichtangriffsvertrags von 1939.

(الصورة: السفيرشولنبورغ كان حاضراً توقيع اتفاقية عدم الاعتداء السوفيتية / الألمانية عام 1939 الأول من اليمين)

19. **الدبلوماسية ... شؤون وشجون**

البعض من أصدقائي يعتقد أني متشدد بشروط العلم والتعلم، وفي العمل، ومن ذلك أني أضع شروط صعبة للكفاءة في أي ميدان. ولكن من يعرفني جيداً يعلم أنني أتساهل كثيراً، بل لربما لدرجات غير مقبولة نعم أنا أفعل ذلك، ولكن فقط عندما لا يكون هذا أفضل ما هو متاح .. فنحن نقبل للأسف بالأقل كفاءة، ونأمل أن قليل الكفاءة يغتنم هذه الفرصة، فيطور كفاءته خلال العمل، ولكن أكثر الناس لا يفعلون.

الحقيقة أن الأقل كفاءة في مجال العمل، لا سيما إذا كان بموقع حساس ينطوي على خطورة شديدة، قد تلحق الضرر بالبلاد بدرجة خطيرة، يغدو إصلاح الخطأ صعباً ما لم نقل مستحيلاً. وهذا بالضبط ما قصدته في كتابي قوة العمل الدبلوماسي في السياسة / بغداد / 1985، وفي كتابي : قضايا الأمن القومي والقرار السياسي / بغداد / 1986. فالكثير من الكوارث المدمرة نجمت عن خطأ أعتبر في وقته خطأ عابر بسيط، ولكن هذا الخطأ البسيط أشبه بثغرة بحجم رأس دبوس في سد عملاق، ولكنه خرق قابل للأتساع ويمكن أن ينهار السد ويغرق البلاد والعباد ....! ومن هنا نؤكد دائماً، لا تتهاون بالخطأ الصغير ولا تستهين به.

يعتقد الكثيرون، أن عالم العلاقات الدولية المعاصرة قد بلغ اليوم درجة من التعقيد والتشابك في المصالح، تجعله أشبه بالطلاسم، منها للوضوح وإلى وضع يمكن تحليل عناصره وإيجاد سمته وتحديد أبعادة. ولا يخفي أن العديد من المؤرخين في هذا المجال بما يعتقدونه، ويشاركهم في ذلك عدد من الدبلوماسيين، أن الدبلوماسية قد صغر شأنها، كما أن تعقد واستعصاء حل العديد من المشكلات الدولية، قد يقلل من فرص عمل الدبلوماسيين وحظ جهودهم في النجاح.

ومن المؤسف أن نضطر مخالفة أراء هذه النخبة من المؤرخين والدبلوماسيين ولنا في ذلك حجج وبراهين، بل لكي نؤكد أن مسرح العلاقات الدولية اليوم، هو بأمس الحاجة إلى الدبلوماسية أكثر من أي وقت مضى. ولكن أية دبلوماسية وأي دبلوماسيين ...؟ فتلك هي المسألة الجوهرية.

لا ريب أن عالم اليوم قد تعقد إلى درجة كبيرة فتشابكت العلاقات السياسية والاقتصادية أنعكس على الموقف على مسرح العلاقات الدولية، ومن المؤكد أن أوضاعاً كهذه تستلزم دبلوماسية و دبلوماسيين من طراز رفيع تمتزج فيهم إلى جانب الإتقان المهني، ثقافة غزيرة، وقدرات علمية. فحقاً إن دبلوماسية اليوم لم تعد مهنة فحسب، بل مهنة وعلم. **كما أن دبلوماسيو عصرنا الراهن ليسوا منفذين رئيسيين للسياسة الخارجية فقط، بل ويفترض أن يكونوا عاملاً هاماً في رفد صناع القرار السياسي في بلدانهم، فما أحوج متخذي القرارات السياسية من معرفة الأصداء الدولية لقراراتهم، وتأثيراتها المختلفة محلياً وقارياً ودولياً، وما هي سبل تحقيقه والقدرة على إنجاحه.**

وبالطبع لست بمنجم، بل ولا استسيغ حتى مهنة التنجيم، ولكني في مطلع الثمانينات جئت من ألمانيا بعقلية علمية نشطة أتوق للخدمة الصادقة، وكنت مطلعاً على بدايات انتشار مرض خطير أسمه (Herpes) هربيس، وهذا المرض خطير وقاتل ويصعب علاجه، تطور فيما بعد إلى الأسوء (Aids) الآيدز، كما عاصرت انتشار مرض الإيبولا في أفريقيا (Ebola) وهو من الأوبئة القاتلة المنتشرة بذلت جهود دولية جبارة لحصره.

ومن المعلوم أيضاً أن الثمانينات كانت تحمل مؤشرات انفراج في العلاقات الدولية، بدأت مؤشراتها، بأتساع حجم الأساطيل الجوية للدول(عدد الطائرات)، وقيام أكثر من شركة طيران لنقل الأفراد والبضائع في البلد الواحد، قادت لأتساع حركة السياحة في العالم، أضعافاً مضاعفة قياسا للسنوات السابقة، وهذا الاتساع في السياحة والتجارة سيقود إلى أنشطة إنسانية وثقافية كثيرة، ستحمل مؤشرات إيجابية كثيرة،

ولكن إلى أيضاً إلى جانب انتشار أمراض وأوبئة سيكون إحدى العلامات المصاحبة، لأتساع العلاقات بين شعوب العالم.

إذن في مطلع الثمانينات، كان يمكن لعالم أو لمثقف، أو دبلوماسي حصيف (قلنا دبلوماسي حصيف) أن يتنبأ ما ستكون عليه مهام الدبلوماسي الكفء، وأن العمل على وضع التعاون الدولي في المجال الصحي للقضاء على الأوبئة سيكون من مهمات الدبلوماسيين، وعليه تنبيه السلطات الوطنية في بلاده، الانتباه لما قد تحمله السياحة والجارة والتبادل الإنساني إلى البلاد، والاستعداد لاستنفار طبي يقلص من حجم الكوارث الصحية.

لذلك كتبت في كتابي متنبئاً هذه الظاهرة وجاء في الصفحة 101 / قوة العمل الدبلوماسي في السياسة / بغداد 1985، ما يلي نصاً :

" ومن المعتاد أن تقوم البعثات، بطلب من المركز بمفاتحة وزارة الخارجية في الدولة المضيفة بطلب رسمي لدعم موقف بلادها في مؤتمر ما مزمع عقده في عاصمة أخرى والتصويت لصالحها إما لموقف معين، أو لرئاسة المؤتمر، أو لعضوية لجنة دائمة. وقد يكون هذا المؤتمر بعيد ظاهرياً عن السياسة كأن يكون مؤتمراً للشؤون الطبية، إلا أن هذا المؤتمر الطبي يدخل في عداد أهمية العمل السياسي الدولي عندما تتجه الجهود إلى المناشدة في تقديم مساعدة طبية دولية هامة للبلاد، قد يكون في القضاء على مرض سار معدي قد يلحق كارثة بيئية خطيرة ويودي بأرواح الكثيرين من أبناء البلاد، أو يقضي على الثروة الحيوانية، أو في طلب الخبرة في تأسيس معهد طبي متقدم، أو في إطار تحرك دولي كثيف على كافة الأصعدة تمهيداً لخطوة سياسية كبرى... الخ. "

أما في الطبعة الثانية، لنفس الكتاب ويحمل ذات العنوان، فقد عملت على تنقيح الكتاب الأول مع إضافات وزيادة، فالصورة كانت أكثر وضوحاً، لذلك وضعت مقطعاً جديداً في الكتاب، أدناه نصه :

الطبعة الثانية : قوة العمل الدبلوماسي في السياسة، الفصل الرابع / 2007
وتشير مصادر منظمة الصحة العالمية (لشهر أغسطس 2007) أن انتشار الأمراض الوبيلة تشكل قلقاً كبيراً للصحة العالمية، إذ تشير الإحصائيات أن هناك 39 جديداً مرضاً قد أنتشر خلال العقود الثلاثة الأخيرة ، وأكثر من 100 وباء في القرن المنصرم، وأن دوائر الصحة العالمية تتوقع انتشار ثلاثة أمراض سوف تتسبب بوفاة الملايين من سكان العالم، لا سيما في ظل أتساع حركة السياحة والسفر التي بلغت في العام المنصرم أكثر من 3 مليارات من البشر تنقلوا عبر القارات.

أردت أن أصب جام سخطي على من يعملون في دوائر مهمة، وهم لا يصلحون سوى لبيع اللبلبي .. ولكني تعوذت الشيطان، وأكتفي بهذا القدر ، وأستغفر الله لي ولكم .

20. خاطرة دبلوماسية

شخصية الدبلوماسي

يحسن الدبلوماسي الذكي، السريع البديهية، يحسن اختيار ألفاضه وكلماته، لكن دون تكلف، كما عليه أن يكون في غاية الحذر من أطلاق التصريحات أو التلميحات حتى في حياته الخاصة (إلا إذا كان ذلك التصريح والتلميح مقصوداً)، وليس للدبلوماسي سوى مساحة ضيقة جداً من أفكاره السياسية الشخصية. فقد تكون للدبلوماسي آراء شخصية حول أحداث سياسية معينة، قد تختلف جزئياً أو كلياً مع موقف بلاده الرسمي، إلا أنه هنا معني بالدرجة الأولى بموقف بلاده الرسمي وليس بموقفه أو رأيه الشخصي، والمواقف الرسمية ليست معدة لإطلاق التصريحات بدون مناسبة ومبرر هنا وهناك، وحيث لا فائدة ترجى من ذلك. وليس أكثر من الدبلوماسي من هو مدعو إلى التقليل من الأحاديث في غير أوانها ومكانها، بل أن الكثير من الأزمات الدولية نجمت أو بدأت من تصريح لا طائل له، صيغ بعبارات غير واضحة وأسيء فهمها.

في العمل الدبلوماسي لا بد من حذف بعض المصطلحات: " لم أكن أتصور، نسيت، قيل "، فهذه جميعها وغيرها تدل على عدم التأكد واليقين، وهو ما لا يمكن احتماله في بعض المواقف، وحينئذ لا بد أن يكون الدبلوماسي متأكداً مما يقول، وكلمة تقريباً يجب أن تعني 16 أو 17 وليس الفرق بالأضعاف ..! وقد قيل أن الكثير من الكوارث بدأت بقول أحدهم : أفترض ..!

وتحتم على الدبلوماسي مهنته، أن لا يكون سريع الانفعال والغضب. فالإنسان يفعل عادة أو يطلق من العبارات ما يفعله عادة في حالة الهدوء والاتزان، وبذلك فقد يكشف موقفه التفاوضي من مسألة معينة، أو يكشف سقف موقف كان من الأجدر الاحتفاظ به لنفسه، ولكنه بغضبه أتاح للطرف المقابل أن يحقق تقدماً دون مقابل، إذ لا يمكن كسب أي موقف تأسيساً على حالة الغضب والانفعال، وردود الأفعال السريعة **وتذكر الحكمة السياسية وأتخذها قاعدة: لا تقم بالخطوة الأولى من حالة الغضب**.

وينطبق ذات الحال على تناول المشروبات الكحولية، فهو منظر يدعو للرثاء رؤية الدبلوماسي الرزين مخموراً ثملاً، قد أفلت لسانه وتثاقلت قدماه، في منظر يدعو للعطف والشفقة أكثر مما يدعو للاحترام والتقدير.

وليس للدبلوماسي أن ييأس من تحقيق النجاح، أو تقدم حاسم بصدد قضية يتباحث من أجلها. فالصبر وطول الأناة صفة هامة في مباحثات الدبلوماسي، وعليه أن يدرك أن الأشخاص الذين يتباحث معهم هم دبلوماسيين مدربين، أو رجال دولة ليس من السهولة انتزاع المكتسبات منهم دون مجهود كبير. لذلك فإن بعض المؤرخين والعلماء يعرفون الدبلوماسية بأنه " فن المفاوضة"، وبهذا المعنى فإن الدبلوماسي يضع بعض الوسائل والحجج لاستخدامها في التوصل إلى هدفه النهائي، والذي قد لا يكون من الضرورة طرحه دفعة واحدة.

وتتغير تفاصيل الموقف ومفرداته بعد كل جلسة مفاوضات، أو في خلال الجلسة الواحدة، وعلى الدبلوماسي في هذه الحالة أن يكون صافي الذهن خال من التوترات والتشنجات، وبعيداً عن التعرض لانتكاسات نفسية إذا قوبل بموقف حازم من الطرف المقابل، بل متابعة عرض موقفه بوضوح أكبر ويزيد في إيضاحه، ويستنبط معطيات جديدة تفرزها المحادثات. وبطبيعة الحال فإن كامل شخصية الدبلوماسي بما لها من سحر وجاذبية ومتانة البناء الخلقي تشع من كلماته ونبرات صوته، ويلعب استيعابه السريع لمغزى الحوارات وأبعادها دوراً حاسماً في المفاوضات.

ولا ينهي الدبلوماسي في حالة الفشل محادثاته بقطع الطريق على احتمالات عودة المحادثات، بل يترك دوماً مجالاً وفرصاً لظروف داخلية أو خارجية على مادة المفاوضات قد تؤثر بهذا القدر أو ذاك، فتعدل من الموقف التفاوضي بما يتيح مجالاً للعودة إلى طاولة المفاوضات مرة أخرى.

وأجد من المناسب أن أنقل هنا مقطعاً من مذكرات الجنرال ديغول يصف فيها مفاوضاته مع مولوتوف وزير الدبلوماسية السوفيتية خلال الحرب العالمية الثانية، ففيها خير وصف للدبلوماسي الممتاز، ومن منطلق حيادي :" وقد وجدت في المسيو مولوتوف في تلك المقابلة وفي كل مقابلة بعدها، الرجل الذي يصلح بدنياً وعقلياً، بل وفي كل شيء تمام الصلاح للمنصب الذي أوكل إليه. وراح في لهجة تحمل طابع الجد كل الجد، وتخلو من الإيماءات والإشارات، وبكياسة مدروسة، وإن تميزت بشيء من الجمود. وفي نظرة عميقة، عمق النفس التي تنطلق منها، يؤكد لي أنه يود أن يتحدث بصراحة، وأن يستمع إلى كل ما أقوله، ولم يسمح بأن يفوته شيء، حتى ولو أراد تلقائياً أن يفوته، ولم يكن بوسع شيء أن يحركه أو أن يحمله على الضحك أو الهياج. ويحس المرء وهو يتحدث إليه أنه واسع الإطلاع على جميع الحقائق المتعلقة بأي قضية تثار، وأنه يسجل في قرارة نفسه وبمنتهى الدقة الخالية من كل خطأ، العناصر الجديدة التي تضيفها المناقشات إلى الحقائق التي تلك التي يعرفها، وأن يصوغ الموقف الذي يود وقوفه بمنتهى الدقة وأنه لا يود الخروج عما سبق أن أعد أو تقرر في مكان آخر ". (*)

وجدير بالملاحظة، مع تقديرنا أن مفاوضاً وسياسياً ورجل دولة مثل الرئيس ديغول، المعروف بكونه مفاوضاً صعب المراس، ومن العسير حمله على التراجع، ملاحظة إعجابه الشديد بكفاءة الدبلوماسي الممتاز، وفي ذلك دليل على أن سحر شخصية الدبلوماسي تلعب دورها المؤثر حتى في المفاوضات الحاسمة.

وللدبلوماسي أن يكون مرحاً، وفي أن يعبر عن مرحه، فذلك يعبر بشكل من الأشكال عن رضاه بسير العمل أو العلاقات. فالدبلوماسي لن يحقق وجوداً ممتعاً إذا كان معبساً، لكن مرحه ينبغي أن لا يعني الاستخفاف في مناسبات تستدعي أبداء الاهتمام الجدي، أو أن يؤدي مرحه أو بالعكس غطرسته واستعلائه، إيذاء مشاعر الآخرين، فعلى الدبلوماسي أن يدرك أن مرحه أو رزانته وجديته لها معناها السياسي، لا سيما في ساعات العمل واللقاءات الرسمية.

وتتطلب بعض المواقف درجات عالية من الاهتمام والجدية، بل وشجاعة فائقة من الدبلوماسي في استخدامه لصلاحياته الممنوحة له من قبل حكومة بلاده، ولكن عليه أن يدرك أبعاد مسؤولياته بدقة، وهو إنما يفعل ذلك لمصلحة شعبه ووطنه، وأن يضع ذلك نصب عينيه دونما لحظة واحدة من الإغفال، وقد يكلف أحياناً بمهمات خطيرة تضعه في موقف صعب ومحرج أمام دبلوماسية الدولة المضيفة، وقد يتضمن هذا الإحراج ردود فعل قاسية، وفي مثل هذه الحالات، يتحول الدبلوماسي إلى شخصية معنوية بالكامل، وليس له موقف شخصي أو أخلاقيات أو كرامة شخصية، فقد يطلب إلى دبلوماسي أن يشجب وبعبارات قوية موقف الدولة المضيفة من قضية معينة، أو يرفض إجراءاً معيناً، وصولاً إلى تقديم إنذار أو تهديد بقطع العلاقات أو تعليقها، وهذه مهمات محرجة لا تنطوي على مشاعر الود والصداقة التي يحرص الدبلوماسيون (وهو أمر وتقليدي وشائع) على تعميقها بين بلاده والدولة المضيفة، بيد الإخلاص والأمانة في أداء الواجب يستدعي أن ينفذ الدبلوماسي هذه المهمة وتعليمات حكومته بحذافيرها وبطاعة الجندي في القوات المسلحة.

(*) ديغول، شارل : مذكرات الجنرال شارل ديغول عن الحرب العالمية الثانية، ص315-316، بيروت 1964

21. خاطرة دبلوماسية

إنقاذ مبتعث عراقي

في الأيام الأولى لعملي الدبلوماسي في سفارة الجمهورية العراقية / برلين، كان كادرنا الدبلوماسي والإداري قليل العدد، وحين أنتقل القائم بأعمال القنصلية إلى سفارة أخرى، أضطر السفير أن يفاتحني (كنت بدرجة مستشار / الشخص الثاني) وأن يكلفني بأعمال القنصلية بالإضافة إلى عملي كمستشار.

وكانت السفارة العراقية في برلين(جمهورية ألمانيا الديمقراطية) تقوم بالطبع بمهام وقضايا المواطنين العراقيين في ألمانيا الديمقراطية، ولكن أيضا القضايا القنصلية لمواطنينا العراقيين في برلين الغربية التابعين إداريا لسفارتنا في بون (تلك الأيام) لبعد برلين عن العاصمة الألمانية الغربية بون. ولكن لم يكن بوسعنا بالطبع التدخل لدى سلطات برلين الغربية لذلك كان إشرافنا يقتصر على مواطني برلين الغربية على تمديد وتجديد جوازات السفر، والوكالات والكفالات. أما إشرافنا على مواطنينا العراقيين في المانيا الديمقراطية فكان شاملا بما في ذلك التدخل (بقدر ما يسمح به القانون الألماني والعرف الدبلوماسي) في التعامل مع السلطات باعتبارنا موظفين رسميين معتمدين لديها.

في خلال تلك الأيام الأولى لعملي في السفارة (حزيران / 1975) حصل حادث مؤسف لأحد الطلاب العراقيين (ع . ص) وكان الطالب العراقي قد تخرج حديثاً (قبل أيام) ونال شهادة الدكتوراه والتخصص، وحجز على الطائرة العراقية المغادرة إلى بغداد يوم السبت، وحقائبه في شقته مرزومة وجاهز للسفر يوم غد. فحدث أن دعاه أحد زملاءه (ليلة الجمعة على السبت) إلى حفل موسيقى ورقص في تلك الأيام ما قبل انقضاء العام وحلول عام جديد، وذهب الدكتور العراقي للحفلة، وفي خلالها حدث ما قلب البرنامج رأسا على عقب، إذ تشاجر أحد الطلاب العرب مع أحد الأشخاص وكان عاملاً (والعمال يتمتعون بأهمية في ألمانيا الديمقراطية)، فقام الطالب العربي بعد دقائق بأستخدام آلة حادة وطعن بها العامل الألماني، وتصادف أن الطعنة كانت قوية وأسقطت العامل أرضاً ينزف دماً ونقل إلى المستشفى في حالة غير بسيطة.

وهناك من الحاضرين شخصوا العراقي بأنه من قام بالضرب .. فأعتقل من قبل الشرطة وأحيل إلى النيابة للتحقيق ومن ثم ليحال إلى المحكمة. واعتقدت شخصياً أن التحقيق سيطلق سراحه لعدم توفر أي دليل سوى اعتقاد بعض حضور الحفل أن هذا الطالب الأجنبي هو من قام بالعمل. ولكن تواصل الأعتقال والتحقيق على وشك أن يلقي التهمة على مواطننا، في حين أننا كنا نعلم أنه برئ براءة تامة مطلقة، ولكن التحقيق يجب أن ينتهي بإكمال الرواية وإيجاد من قام بالطعن.

قمنا بالاتصال بوزارة الخارجية / القسم القنصلي، وفي المقابلة التي حضرها شخص مسؤول من مكتب النيابة العامة (المدعي العام) ومقدماً أخبروني أن القانون الألماني هو السائد، وأجبتهم بالطبع ونحن نحترم القانون، ولكننا نريد أختصار القضية وقبل توكيل محام أن نستعرض مع النيابة بعض الأفكار التي نعتقد أنها ستؤدي إلى إطلاق سراح مواطننا. وابتداء هناك ما يطلق عليه في التحقيق الركن المادي في الجريمة وهي أداة الجريمة أين هي أداة الجريمة ...؟ ثم أن الطالب العربي الآخر (أعترف) أنه أستخدم السكين الصغيرة الموجودة مع قلامة الأظافر المعدنية، ثم تخلص منها ... حسناً لنفترض أن هذه الرواية صحيحة، وأن العامل مصاب بطعنة ليست بسيطة من سكين حادة. فأين هي السكين، وآثار الدماء، وطبعات الأصابع .. ولنفترض جدلاً مرة أخرى أن طعنة السكين هي من فعل طالبنا، والعامل هو مواطنكم لا يزال يرقد في المستشفى، ففي هذه الحالة ينبغي أن تكون هناك طعنتان في جسد العمال، واحدة من الطالب العربي، والأخرى من مواطننا الدكتور (ع. ص) الذي أنهى قبل مدة وجيزة الدكتوراه فهل يعقل أن يقوم ليلة سفرة

بعمل كهذا .. وبين يدى تقرير طبي من المستشفى يقول أن العامل الألماني مصاب بطعنة واحدة من سكين، فأين طعنة قلامة الأظافر، وأين هي السكين ... !

وعندما بهت وجه موظف النيابة العامة، قلت له .. أنا أعرف أين هي السكين التي أرتكب بها الحادث .. فطلب مني موظف الادعاء العام برجاء : .. أين هي .. قلت له : أنا لا أتدخل في التحقيق وفي عملكم .. ولكنك الآن أنت على ثقة 100% أن الدكتور (ع . ص) ليس هو الفاعل .. دعوا الرجل يسافر لبلاده .. وأبحثوا عن الفاعل الحقيقي. .. القسم القنصلي في وزارة الخارجية وموظف النيابة العامة أقسم أني قد درست ومارست التحقيق. أنا لم يكن يهمني شيئ سوى أنقاذ مواطننا العراق وإعادته للوطن.

أطلق سراح الدكتور العراقي في نفس اليوم .. وحضر لمكتبي .. وهو لا يعرف كيف يشكرني، فقلت له لا شكر على واجب نحن قمنا به للبلد ولمواطنينا .. أذهب إلى العراق وأخدم شعبك ..

22. خاطرة دبلوماسية

اللواء الركن إسماعيل العارف

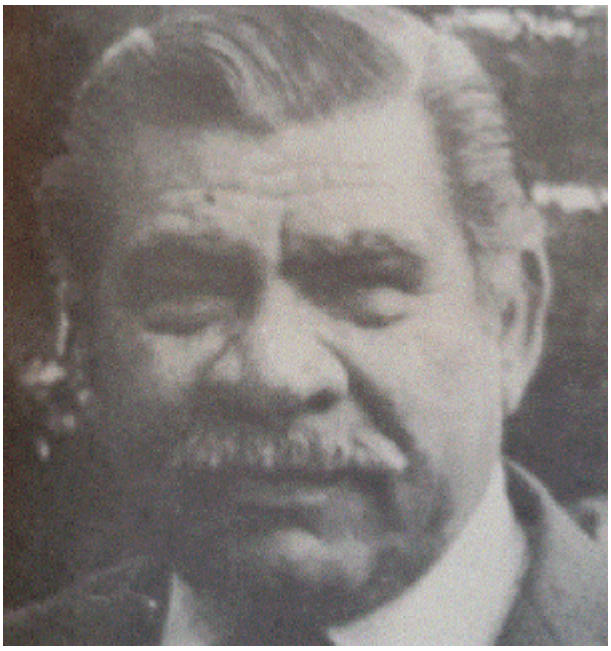

تعرفت على اللواء الركن إسماعيل العارف (الوزير والسفير، والدكتور فيما بعد) تعرفت عليه في ألمانيا وكنت دبلوماسياً مجازاً لدراسة الدكتوراه في العلوم السياسية عام 1982 والرجل قائد عسكري كان منذ مطلع حياته مهتماً بالعمل الوطني ويفكر بمستقبل بلاده، ثم أنه شغل مناصب مهمة في الجيش منها منصب الملحق العسكري في واشنطن، ووزير التربية في مطلع الستينات، ثم سفير للجمهورية العراقية في براغ، وفيها أكمل دراسة الدكتوراه، وأحيل على التقاعد وسكن في الولايات المتحدة قرب أولاده الذين درسوا هناك واستقروا فيها.

والرجل على ثراء تجربته الشخصية والسياسية في الحياة، يحاذر من إقامة العلاقات، ولكن بمرور الوقت وبعد لقاءات كثيرة، تحولت علاقتنا إلى صداقة كنا نتجاذب أطراف الحديث في موضوعات شتى، وبالطبع منها ذكرياته عن منظمة الضباط الأحرار. وإذا كان العارف قد ذكر الكثير مما يعرفه في كتاب له بهذا الخصوص، إلا أن هناك ما يستحق أن يسجل من مذكراته، لا سيما أنه كان يعتبر من بين أصدقاء الزعيم عبد الكريم قاسم المقربين.

أخبرني أنه كان قد تعرف على الزعيم عبد الكريم قاسم منذ فترة طويلة سابقة ل 14 / تموز / 1958 وما شد علاقتهما بربط قوي هو تقاربهما في الأفكار الوطنية، كما في العلاقات الشخصية، وسألته فيما إذا كان قاسماً ذا أريحية في العلاقة الشخصية، فأبدى عظيم شوقه لصديقه القديم، مترحماً على روحه وكان يسميه كرومي قائلاً : من ...؟ كرومي ...؟ وهل تحلى جلسة ليس فيها كرومي الورد ...؟ وتأخذه صفنة طويلة وكأنه ينظر إلى الأفق تكسو ملامحه حزن عميق ... أستطاع وإن ليس بسهولة، الإعراب عنها وتصويرها وأنا أحترم فيها عمق التجربة والمشاعر، وأساعده لنضع ملامح الصورة ... نعم حزين على الماضي وما حصل، وكأنه ينظر للمستقبل ويقول ما نهاية هذه الصراعات بين العراقيين وهم أخوة في الدين والوطن والقومية ...؟ ولمصلحة من تدور هذه الصراعات ..؟

كان يستطيع أن يكون موضوعياً وعلمياً، ولعل دراسته للدكتوراه أعانته في ذلك، أن يعيد تقيم كل شيئ، منذ العمل في منظمة الضباط الاحرار والانقلاب على الملكية، ومرحلة الزعيم عبد الكريم قاسم، وهي مراحل كان هو فيها نافذ الرأي والموقف، والتجربة والزمن كفيلة بإجراء تعديلات على ما كنا نظنه ثابتاً ومستقراً كالأرض والجبال الرواسي، ليس هناك من الثوابت في السياسة سوى العراق والأمة والمصالح الدائمة وسوى ذلك زائل يتكرر كل بضعة عقود.

روى لي أن ما حدث في الموصل كانت نقطة مفصلية، وإعدام الضباط القادة كانت الغلطة الأكبر التي ارتكبها قاسم، أرتكب تلك الغلطة تحت ضغط من عناصر كانت تحوم حوله، فالجميع يدرك أنها كانت أحكام مسيسة، لم يقبل بها حتى إثنان من أعضاء المحكمة ممن تخلصوا من الضغوط العقيد فتاح سعيد الشالي، والرائد إبراهيم عباس اللامي، وكان الوزير العارف في سفرة عمل خارج العراق، ويقول كنت

الاحظ من بعض حاشية الزعيم التحريض على إعدامهم، لذلك وقبيل سفري بيوم واحد جلبت المصحف وجعلت قاسماً يقسم عليه أنه سوف لن يعدم الضباط القادة، وأكد لي بأنه سوف لن يفعل، وسافر العارف وعند عودته إلى العراق عن طريق بيروت التي أضطر للمبيت فيها ليلة واحدة ليأخذ الطائرة العراقية، وقبل مغادرتهم بيروت بوقت قصير أخبره مرافقه أن الإعدام قد نفذ بالقادة، وتوجه العارف من المطار إلى مقر الزعيم فور وصوله بغداد، والمظاهرات تعم العراق، ويقول، سألته بربك لماذا فعلت ذلك ... ألا تعرف ما هي قيمة رفعت الحاج سري وناظم الطبقجلي ..؟ ألا يكفي أن العشرات من الضباط الوطنيين إعدموا وقتلوا وسحلوا ..

يستطرد العارف، أن الزعيم كان يقابله بالصمت مطأطأ الرأس وكأنه يدرك فداحة الخطأ الذي أرتكبه، ولكن لات ساعة مندم ... وبرأي العارف فإن الزعيم قد أرتكب غلطة العمر ...

بقول العارف أدركت ومعي الكثيرون أن قاسماً قطع الجسر بينه وبين الضباط الأحرار وسلك طريقاً آخر بأختياره أو مرغماً وأنه رسم نهايته بيده، ومنذ ذاك طبعت الكثير من التصرفات وفقد النظام هويته، وصار حكماً فردياً محضاً لا غير. عبد الكريم قاسم يصلح أن يكون قائداً عسكرياً من طراز رفيع، وهو صديق شخصي رائع، يخدم ضيوفه بيده، ولكن الحكم سلب عقله، وهو الزعيم الأوحد يحكم كل هذا العراق من شماله إلى جنوبه كما يمليه عليه ضميره وسعة مداركه العقلية فقط، وهو غير مؤهل قطعاً لأن يحكم دولة ويحدث التحولات المطلوبة. وحتى رفاق الثورة بدأوا يستشعرون فداحة أن يكون العراق بخير ومستقبله واضح وزاهر بهذا الأسلوب ...

توفي إسماعيل العارف في الولايات المتحدة تغمده الله بوافر رحمته، ورحم الله كل قائد عراقي مخلص عمل وكان قصده خير العراق وازدهاره، بلا تعصب بلا تشدد، ولنأخذ العبرة من تلك الأحداث كلها، فوطننا اليوم محتل، والسيادة فيه مهلهلة، والبلاد يعبث بها من يشاء مسلوبة منهوبة وقد فقدت استقلالها الذي شيد بالغالي والنفيس، ولا حول ولا قوة إلا بالله

23. دبلوماسية : ممر اجباري

هذه من المصطلحات العسكرية، وهي تعني، أن الجبهة تضم فيما تضم، ما يطلق عليه بالممر الإجباري، وهو يشير إلى ممر تحتم سلوكه طبوغرافية المنطقة (طبيعة تضاريس الأرض)، كأن يكون ممراً بين جبلين، أو هضبتين لا تتيح مجالاً لحركة الآليات (مركبات ومدرعات) إلا عبر هذا الممر.وغالباً ما يكون ممراً ضيقاً. أو ممراً برياً بين مسطحات مائية، ومستنقعات، أو ممراً يعبر غابة كثيفة وأحراش وأدغال، أو أية موانع مماثلة.

وهنا ينبغي على القطعات المدافعة استغلال هذا الموقف، فتقيم خططها (وهناك الكثير من الخيارات من بينها خيارات هندسية) على استغلال حتمية عبور العدو هذا الممر الإجباري بوسائل كثيرة هندسية منها مثلاً عمل ملغمة (زرع كميات كبيرة من المواد المتفجرة تقطع الطريق على قطعات العدو خلال مروره وتعيق السير وتوقع به خسائر كبيرة)، وغيرها (غلق الممر بنيران المدفعية بأصنافها)، وقطعات متحصنة بصورة جيدة (منعات)، وقد تنجح (إن كانت إجراءاتها جيدة) أن توقع بالعدو خسائر كبيرة، ربما ترغمه على العدول وإفشال هجومه.

ما أريد شرحه هنا، أن مثل هذا الموقف (بمغزاه) يمكن استخدامه سياسياً. فعندما تكون في موقف محصن مدعوم، وخصمك يهاجم بقلة تبصر، تحاول أنت بالجسم السياسي للدولة (الوسائل السياسية والدبلوماسية) أن تتحصن وتعزز موقفك، مما سيضطر العدو لأتخاذ موقف ينطوي على خطورة، وهنا عليك أن تشجعه على التهور ليرتكب عملاً يضعف موقفه السياسي مما سيضطره لتقديم تنازلات.

سياسياً من شروط الممر الإجباري، هو وجود كادر سياسي ذكي، يميل إلى التفكير العلمي وحسابات الموقف بكافة احتمالاته، له قدرة التنظير والرؤية البعيدة الغور، وجهاز سياسي منضبط، وكفوء قادر على ترجمة الأفكار والخطط إلى واقع عملي، بسلاسة ومرونة. والسياسي الذكي هو من يربح مواقفا كبيرة بذكاءه دون استخدام القوة، بل وحتى عدم اللجوء إلى لغة التهديد.

وليذكر الجميع أن الصين الشعبية صارت قوة عالمية، بل وأبتداء من 2020 تتقاسم قيادة العالم مع الولايات المتحدة دون أن تطلق رصاصة واحدة ...!

24. دبلوماسية : هل يمارس الدبلوماسي الكذب ..؟

يتردد أحياناً، أن الدبلوماسي يمارس الكذب، ويذهب بعضهم إلى أنه يمتهن الكذب، ويستشهدون بمقولات للمفكر الإيطالي نيقولاي ميكافيلي ينصح فيها السياسيين عامة بأستخدام الكذب وله مقولة شهيرة " منذ فترة طويلة وأنا لا أتكلم الحقيقة، وإذا صادف مرة وأن قلتها، فإني أغلفها بحزمة من الاكاذيب بحيث يصعب بلوغ كنهها ".

ولا يتورع دبلوماسيون من العصور الكلاسيكية للدبلوماسية، في عصر الاستعمار يوم كان ممثلون بضعة دول أربعة أو خمسة، يجتمعون ليقرروا مصير العالم، يجلسون ويحتالون على بعضهم، يغش بعضهم بعضاً، يتوصلون لأتفاقات تعبر عن الوضع الحالي لقدراتهم المالية والعسكرية، ولكنهم ينقلبون على بعضهم حالما يتغير ميزان القوى لصالح أحدهم، يعقدون التحالفات والائتلافات، ولكنهم يفضونها لدى أو فرصة لتغير جدول المكاسب ...

لم يتغير الوضع الدولي للأسف كثيراً، ورغم وجود هيئة الأمم المتحدة، فما زالت حفنة من الدول تقرر ما هو حلال وما هو حرام، والقانون الدولي أداة يستفيدون منها، ولما يعارض القانون أفعالهم أو ما يزمعون القيام به، يفسرون القانون على هواهم، أما زعيمة الدول الإمبريالية، فتقرر علناً أن مواطنوها (من العسكريين أو غيره) هم فوق القوانين، ولا يخضعون لمحكمة الجنايات الدولية.

الدبلوماسي موظف موثوق مئة بالمئة، وأي خلل في الثقة تحبط مهمته، والدبلوماسي شخص يخوض غمار مصاعب في مفاوضات ومواقف ربما صعبة لذلك فهو بحاجة لتأهيل خاص، ومن ذلك أن يكون مدرب بصورة ممتازة، متعلم ومثقف، ذكي يجيد استنباط الحلول، وعالي التهذيب ليكون قادراً على التأثير في محيطه، ولا يمكن تصور الدبلوماسي كاذباً، فذلك يحبط مهمته، ويحيط شخصه بهالة من الشكوك و الثقة المزعزعة.

قد يواجه الدبلوماسي مواقف محرجة، يشعر فيها بضرورة ممارسة الكذب لإنقاذ موقف مهم، ولكن مع ذلك نجد أن الدبلوماسي يستطيع التخلص من حراجة الموقف دون الحاجة لممارسة الكذب، إذ يمكنه أن يطلب تأجيل بحث الموضوع، أو إنهاء التفاوض بسبب عارض صحي ألم به، أو أنه بحاجة لأستطلاع رأي حكومته، هناك ذرائع كثيرة جداً، إلا أن الكذب فساد يلحق بالتفاوض وبمهمة الدبلوماسي.

ونجد من المناسب أن نوضح أن الكذب هو غير " الخدعة " **(bluff)**، والخدعة يمكن ممارستها بأشكال عديدة على أنها موقف ..! مثلاً صرف اهتمام المقابل بعرض احتمالات أخرى ..أو طرح موضوع جانبي لإشغال اهتمام الطرف المقابل، أو بالعكس إبداء الأهتمام بفقرة غير رئيسية لتمرير فقرة ترغب بها، وهذه خدع مهذبة، أنت لا تمارس فيها الكذب، بل تناور، وتدور حول رؤوس النقاط، وتبدي أهتماماً هنا وتجاهل هناك، وتحاول أن لا تعرض سقف موقفك، فتعرض نفسك للضغط.

25. . الكورونا والدبلوماسية ... شؤون وشجون

في هذه الأيام تتصاعد في العام الدعوة إلى تعاون دولي، للتصدي لوباء كورونا، والدول المتقدمة (اقتصادياً وفي نظامها السياسي)، قد استعدت للكوارث منذ زمن بعيد، وعلى الأغلب هناك وزارات " الطوارئ" للأستعداد لمثل هذه أو غيرها من الأحداث الجسيمة، أوبئة أو كوارث طبيعية، أو حرائق ..الخ

وكنت قد أصدرت كتاباً عام 1985، قد تنبأت به أن تكون الأوبئة في العقود المقبلة تحدياً للعالم وللتعاون الدولي، واليوم نحن بأمس الحاجة للتعاون الدولي للتصدي لهذه الكارثة المحدقة، وأدناه هذه المقالة:
الكورونا والدبلوماسية ... شؤون وشجون

ضرغام الدباغ

البعض من أصدقائي يعتقد أني متشدد بشروط العلم والتعلم، وفي العمل، ومن ذلك أني أضع شروط صعبة للكفاءة في أي ميدان. ولكن من يعرفني جيداً يعلم أنني أتساهل كثيراً، بل لربما لدرجات غير مقبولة نعم أنا أفعل ذلك، ولكن فقط عندما لا يكون هذا أفضل ما هو متاح .. فنحن نقبل للأسف بالأقل كفاءة، ونأمل أن قليل الكفاءة يغتنم هذه الفرصة، فيطور كفاءته خلال العمل، ولكن أكثر الناس لا يفعلون.

الحقيقة أن الأقل كفاءة في مجال العمل، لا سيما إذا كان بموقع حساس ينطوي على خطورة شديدة، قد تلحق الضرر بالبلاد بدرجة خطيرة، يغدو إصلاح الخطأ صعباً ما لم نقل مستحيلاً. وهذا بالضبط ما قصدته في كتابي قوة العمل الدبلوماسي في السياسة / بغداد / 1985، وفي كتابي : قضايا الأمن القومي والقرار السياسي / بغداد .1986 / فالكثير من الكوارث المدمرة نجمت عن خطأ أعتبر في وقته خطأ عابر بسيط، ولكن هذا الخطأ البسيط أشبه بثغرة بحجم رأس دبوس في سد عملاق، ولكنه خرق قابل للأتساع ويمكن أن ينهار السد ويغرق البلاد والعباد ....! ومن هنا نؤكد دائماً، لا تتهاون بالخطأ الصغير ولا تستهين به.

يعتقد الكثيرون، أن عالم العلاقات الدولية المعاصرة قد بلغ اليوم درجة من التعقيد والتشابك في المصالح، تجعله أشبه بالطلاسم، منها للوضوح وإلى وضع يمكن تحليل عناصره وإيجاد سمته وتحديد أبعادة. ولا يخفي أن العديد من المؤرخين في هذا المجال بما يعتقدونه، ويشاركهم في ذلك عدد من الدبلوماسيين، أن الدبلوماسية قد صغر شأنها، كما أن تعقد واستعصاء حل العديد من المشكلات الدولية، قد يقلل من فرص عمل الدبلوماسيين وحظ جهودهم في النجاح.

ومن المؤسف أن نضطر مخالفة أراء هذه النخبة من المؤرخين والدبلوماسيين ولنا في ذلك حجج وبراهين، بل لكي نؤكد أن مسرح العلاقات الدولية اليوم، هو بأمس الحاجة إلى الدبلوماسية أكثر من أي وقت مضى. ولكن أية دبلوماسية وأي دبلوماسيين ...؟ فتلك هي المسألة الجوهرية.

لا ريب أن عالم اليوم قد تعقد إلى درجة كبيرة فتشابكت العلاقات السياسية والاقتصادية أنعكس على الموقف على مسرح العلاقات الدولية، ومن المؤكد أن أوضاعاً كهذه تستلزم دبلوماسية و دبلوماسيين من طراز رفيع تمتزج فيهم إلى جانب الإتقان المهني، ثقافة غزيرة، وقدرات علمية. فحقاً إن دبلوماسية اليوم لم تعد مهنة فحسب، بل مهنة وعلم. كما أن دبلوماسيو عصرنا الراهن ليسوا منفذين رئيسيين للسياسة الخارجية فقط، بل ويفترض أن يكونوا عاملاً هاماً في رفد صناع القرار السياسي في بلدانهم، فما أحوج متخذي القرارات السياسية من معرفة الأصداء الدولية لقراراتهم، وتأثيراتها المختلفة محلياً وقارياً ودولياً، وما هي سبل تحقيقه والقدرة على إنجاحه.

وبالطبع لست بمنجم، بل ولا استسيغ حتى مهنة التنجيم، ولكني في مطلع الثمانينات جئت من ألمانيا بعقلية علمية نشطة أتوق للخدمة الصادقة، وكنت مطلعاً على بدايات انتشار مرض خطير أسمه (Herpes) هربيس، وهذا المرض خطير وقاتل ويصعب علاجه، تطور فيما بعد إلى الأسوء (Aids) الآيدز، كما عاصرت انتشار مرض الإيبولا في أفريقيا (Ebola) وهو من الأوبئة القاتلة المنتشرة بذلت جهود دولية جبارة لحصره.

ومن المعلوم أيضاً أن الثمانينات كانت تحمل مؤشرات انفراج في العلاقات الدولية، بدأت مؤشراتها، بأتساع حجم الأساطيل الجوية للدول(عدد الطائرات)، وقيام أكثر من شركة طيران لنقل الأفراد والبضائع في البلد الواحد، قادت لأتساع حركة السياحة في العالم، أضعافاً مضاعفة قياسا للسنوات السابقة، وهذا الاتساع في السياحة والتجارة سيقود إلى أنشطة إنسانية وثقافية كثيرة، ستحمل مؤشرات إيجابية كثيرة، ولكن إلى أيضاً إلى جانب انتشار أمراض وأوبئة سيكون إحدى العلامات المصاحبة، لأتساع العلاقات بين شعوب العالم.

إذن في مطلع الثمانينات، كان يمكن لعالم أو لمثقف، أو دبلوماسي حصيف (قلنا دبلوماسي حصيف) أن يتنبأ ما ستكون عليه مهام الدبلوماسي الكفء، وأن العمل على وضع التعاون الدولي في المجال الصحي للقضاء على الأوبئة سيكون من مهمات الدبلوماسيين، وعليه تنبيه السلطات الوطنية في بلاده، الانتباه لما قد تحمله السياحة والجارة والتبادل الإنساني إلى البلاد، والاستعداد لاستنفار طبي يقلص من حجم الكوارث الصحية.

لذلك كتبت في كتابي متنبئاً هذه الظاهرة وجاء في الصفحة 101 / قوة العمل الدبلوماسي في السياسة / بغداد 1985، ما يلي نصاً:

"ومن المعتاد أن تقوم البعثات، بطلب من المركز بمفاتحة وزارة الخارجية في الدولة المضيفة بطلب رسمي لدعم موقف بلادها في مؤتمر ما مزمع عقده في عاصمة أخرى والتصويت لصالحها إما لموقف معين، أو لرئاسة المؤتمر، أو لعضوية لجنة دائمة. وقد يكون هذا المؤتمر بعيد ظاهرياً عن السياسة كأن يكون مؤتمراً للشؤون الطبية، إلا أن هذا المؤتمر الطبي يدخل في عداد أهمية العمل السياسي الدولي عندما تتجه الجهود إلى المناشدة في تقديم مساعدة طبية دولية هامة للبلاد، قد يكون في القضاء على مرض سار معدي قد يلحق كارثة بيئية خطيرة ويودي بأرواح الكثيرين من أبناء البلاد، أو يقضي على الثروة الحيوانية، أو في طلب الخبرة في تأسيس معهد طبي متقدم، أو في إطار تحرك دولي كثيف على كافة الأصعدة تمهيداً لخطوة سياسية كبرى... الخ" .

أما في الطبعة الثانية، لنفس الكتاب ويحمل ذات العنوان، فقد عملت على تنقيح الكتاب الأول مع إضافات وزيادة، فالصورة كانت أكثر وضوحاً، لذلك وضعت مقطعاً جديداً في الكتاب، أدناه نصه:

الطبعة الثانية : قوة العمل الدبلوماسي في السياسة، الفصل الرابع / 2007
وتشير مصادر منظمة الصحة العالمية (لشهر أغسطس 2007) أن انتشار الأمراض الوبيلة تشكل قلقاً كبيراً للصحة العالمية، إذ تشير الإحصائيات أن هناك 39 جديداً مرضاً قد أنتشر خلال العقود الثلاثة الأخيرة ، وأكثر من 100 وباء في القرن المنصرم، وأن دوائر الصحة العالمية تتوقع انتشار ثلاثة أمراض سوف تتسبب بوفاة الملايين من سكان العالم، لا سيما في ظل أتساع حركة السياحة والسفر التي بلغت في العام المنصرم أكثر من 3 مليارات من البشر تنقلوا عبر القارات.

أردت أن أصب جام سخطي على من يعملون في دوائر مهمة، وهم لا يصلحون سوى لبيع اللبلبي .. ولكني تعوذت الشيطان، وأكتفي بهذا القدر ، وأستغفر الله لي ولكم.

26. **دبلوماسية : الكمين .... سياسياً**

لا يختلف الكمين في مغزاه السياسي عن مغزاه العسكري. ففي القوات المسلحة يمكن نصب الكمائن برا وبحراً وجواً، وكما في القتال، كذلك في السياسة يمكن نصب كمائن بذات الشروط تقريباً وفي مقدمتها :

1. اختيار مكان وزمان وعناصر الكمين بدقة شديدة بوصفها أحدى شروط نجاح المهمة.
2. تعيين واجب الكمين والالتزام به بشكل صارم وعدم الاشتباك مع أي هدف طارئ مهما كان مغرياً.
3. السرية التامة الكتمان المطلق، في التخطيط للواجب، وإصداره. إن تسرب أنباء الكمين، يهدد مصير أفراده يفشل المشروع بشكل تام.

وفي العمل السياسي، كتبنا في مبحث عن في إطار العمل الدبلوماسي، أن بعض الدول تعهد إلى وزارة الخارجية، فحص مصداقية الدولة (س)، وهناك أساليب متعددة لفحص المصداقية، تتوصل الدول لمعرفة أن الدول (س) تميل إلى الكذب في بياناتها، والآن نبحث هل يمكن للدول أن تنصب كمائن في العمل السياسي.

بالطبع كثيرا ما مورس الكمين السياسي وإن بمسميات أخرى، ولكنه في النتيجة يؤدي نفس الغرض. ويمكن أن يطلق على الكمين في العمل السياسي / الدبلوماسي، استدراج دولة ما إلى موقف صعب يفقدها خيارات التصرف واتخاذ القرارات، مما يسهل الضغط من أجل قرارات مناسبة للدولة التي مارست الكمين (الاستدراج).

ومن أجل وضع خطة الاستدراج (الكمين)، من الضروري معرفة طبيعة وآليات اتخاذ القرارات في الدولة (س)، والشخصيات القيادية في سياق اتخاذ القرارات، ودرجة تأثير القوى الداخلة في عملية صنع القرار واحتمالات توجهها. أن جهازا سياسياً يزمع ممارسة " الاستدراج " ينبغي حتماً أن يكون لديه كوادر كفوءة، خبيرة، مؤهلة علمياً، لا تشتغل وفق أحكام الهوى... وتصارح قياداتها بكل ما تتوصل إليه من معطيات سلبية كانت أم إيجابية.

27. خاطرة دبلوماسية : خطوط طرق المرور والعبور

ضرغام الدباغ

قال لي من له خبرة ومعايشة في اليمن، وهذا في حتى ستينات القرن الماضي، أن القبائل كانت تقيم نقاط سيطرة على الطرق في مناطق نفوذها، وترغم كل من يجتازها أن يدفع لها (للقبائل) أتاوة ، أو ابتزاز أو تسليب، التسميات لا تهم ولا تغير الجوهر.

في العلاقات بين الدول، يعتبر المرور من أراضي دولة أخرى لأغراض سياسية معادية، عملاً معادياً، وإذا كان العبور عسكرياً فيعد من أعمال الحرب. ومن المعروف كقاعدة أن لا تتخذ أي دولة من أراضيها مقراً أو ممراً للعدوان على دول أخرى. أما العبور لأغراض تجارية، فهذا مسموح، بل ومرحب به، ولكن بعد دفع رسوم يطلق عليها برسوم " الترانزيت "، وقد تكون السلعة / البضاعة / المادة العابرة لأراضي الدولة لها طابع استراتيجي،(كالنفط والغاز، والطاقة)، فهنا يتطور الأمر إلى شروط أخرى، من خلال وضع تعرفة خاصة، وربما وضع أتفاقية خاصة، تحصل منها دولة العبور على مزايا كالحصول على حجم معين من مواد العبور بأسعار خاصة / تفضيلية، أو تعرفة عالية إذا كانت المواد العبرة كترانزيت توصف بأنها مواد خطرة..

إلى هنا والأمر مفهوم، رغم أن بعض دول العبور تستغل موقعها الجغرافي، وتستغل اضطرار الدولة المرسلة لقبول أي مقترحات أو بالاحرى، فتغالي في طلباتها، وأحيانا بما يفوق المعقول، وهنا تنشأ أزمة، ولكن تحل على الأرجح عبر مفاوضات معقدة، وهنا تلعب دولة العبور دور من يمارس الابتزاز.

ولكن وهنا رباط الحديث: قد يخترق طريق المرور مناطق خارجة كلياً أو جزئياً عن سيطرة الحكومة، وتقع تحت هيمنة : كيان سياسي منشق، حركات سياسية، عصابات محترفة، وهذه قادرة على عرقلة الاتفاق والتعرض لخطوط العبور وعرقلة التجهيز .. وهنا تضطر الدولة المصدرة إلى التفاهم مع الكيانات السياسية أو العصابات، ولكن يصادف أحياناً أن يكون عددها أكثر من جهة واحدة، وتبدأ التعقيدات ..!

العصابات تلعب دور اللصوص الشرفاء (مثل روبن هود)، لص له هدف نبيل ..! (حسب زعمه)، وأحيانا تلعب الدول دورا سياسيا منحطاً بقصد تحقيق مكاسب إضافية، فتتعثر المفاوضات الدبلوماسية، وتسوء العلاقات، وأحياناً تعمد الدولة المصدرة، إلى فعل المستحيل لتجنب المرور بأراضي الدول المغالية المتعبة، وتتحول القضية إلى إشكالية .. تستحق التفكير والتأمل. الدول تضطر أحياناً إلى التفاوض مع من بفرض الابتزاز ويمارس اللصوصية بدواعي الواقعية ..!

28. ظواهر وخفايا الخلاف الأوربي الأمريكي

أنعقد مؤتمر قمة الدول الصناعية السبع (كانت روسيا الاتحادية من ضمن هذه الكتلة لتصبح ثمانية، إلا أنها استبعدت بعد أحداث القرم وأوكرانيا) في كيوبيك / كندا (8 - 10/ حزيران / 2018)، وكما كان متوقعاً، فإن الخلافات الملتهبة في عهد الرئيس أوباما، ولكنها كانت تحت السيطرة، ربما بسبب طبيعة الحزب الديمقراطي الأمريكي، أو بسبب شخصية الرئيس أوباما التي تختلف عن طبيعة وشخصية الرئيس ترامب، ولكن في جميع الأحوال نؤكد أن منصب الرئيس في الولايات المتحدة الأمريكية هو موقع مدروس بعناية تامة ودقة لا تحتمل الأخطاء العابرة، وبذلك يمكن القول تماماً أن الرئيس ترامب وما تتسم به مرحلته، هي مطلوبة ومخطط لها، في تفجير خلاف أوربي / أمريكي، كانت الولايات المتحدة تحتمله على مضض، ولكن الآن فقد فاض الكيل وبلغ السيل الزبى. وهذا الانفجار كان الرئيس أوباما قد حذر منه في آخر جولة أوربية له (قبل نهاية عهده بشهور)، من أن صبر الولايات المتحدة قد ينفذ ويحدث ما لا تحمد عقباه.

بعد نهاية الحرب الباردة (التي كانت بعض فصولها ساخنة) كان الأوربيون التواقون إلى الأمن لسلام، قد اعتقدوا مرحلة سلام ورخاء ستحل، ولتختفي لغة الحرب والوعيد، وآن الأوان اقتحام أوربا الشرقية سياسياً واقتصادياً، ولكن السياسة الأوربية للولايات المتحدة أقحمت أوربا الغربية والناتو من جديد في أزمات متلاحقة، أزمات البوسنة والصرب، جورجيا، وجمهوريات البلطيق، والقرم، أوكرانيا، وناهيك عن تحركات حكومتا بريطانيا وبولونيا داخل الاتحاد الأوربي، كانت تهدف إلى إضعاف الاتحاد الأوربي، وآخرها انسحاب بريطانيا من الاتحاد الأوربي، وإبقاء ضرورة وأهمية لحلف الناتو، لتتواصل الهيمنة تحت المظلة الأمريكية.

كانت المساعي الأمريكية في التصعيد تبدو بنظر الأوربيين تطرفاً، وتسخيناً لا ينطوي على مبررات واقعية، وإلى جانبها مرتكزات لها في أوربا الغربية متمثلة بالحليف البريطاني المخلص، وشرقاً في بولونيا، ناهيك عن تعاطي عميق مع جورجيا، وليتوانيا ولاتفيا وأستونيا، وحين انفجرت الأزمة الأوكرانية والتي في جوهرها تدخلات أمريكية في جورجيا وأرمينيا، وسائر دول آسيا الوسطى. والأوربيين كانوا يتحسسون من التدخل الأمريكي المتزايد في الشؤون الأوربية، إحباطاً للمساعي الألمانية والفرنسية في تعزيز كيان الاتحاد الأوربي. والولايات المتحدة تعتقد أن " الغرب " ينبغي أن يكون له رأس واحد وقيادة واحدة تتمثل بقيادتها وهيمنتها.

الأوربيين أدركوا الأهداف القريبة والبعيدة لهذه التدخلات، ولكن مشاكل الاتحاد الأوربي، بدورها متفاقمة الطابع، من الأزمات الاقتصادية التي كادت تطيح باليونان وايرلندة والبرتغال، وإلى حد ما أسبانيا، وضربت حتى الدول ذات الاقتصاديات المستقرة والمتينة كهولندة والنمسا، وأزمات سياسية منها **مشكلات داخل الاتحاد الأوربي، ومشكلة التوازن في القارة الأوربية بين روسيا، والاتحاد الأوربي، الذي يعاني أصلاً من مشكلات جمة في مقدمتها تقدم اليمين الشعبوي المتطرف الذي بدأ يكتسح الساحات في دول الاتحاد مثل الدانمرك، وبريطانيا والنمسا وإيطاليا، وعدم وجود انضباط بين دول الاتحاد، وحتى الحكومات الليبرالية بدأت تتردد في سياستها الداخلية خشية الانتكاسة في صندوق الانتخابات. ناهيك عن مشكلات اجتماعية مقلقة تتفاقم بلا حلول. منها انتشار ظواهر المخدرات بين الشباب، والانفتاح الجنسي بلا حدود، والعزوف عن الزواج والإنجاب، واضمحلال دور الأسرة كخلية اجتماعية هامة،**

والهجرة (صوب استراليا ونيوزيلندة وكندا) وظواهر العنف والتطرف، وغيرها مما يشكل قلقاً حالياً وللمستقبل.

الإدارة الأمريكية تعتقد، وهذا ليس بجديد، أن الأوربيون يستغلونها، ففي أيام الحرب الباردة حين اتكلوا على قوة أميركا العسكرية للوقوف لوجه الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي وحلف وارسو، وأميركا قبلت ذلك جزئياً لأنها كانت تدرك أن أوربا الخارجة من الحرب العالمية الثانية محطمة، لا يمكن الاعتماد عليها عسكرياً، كما لا ينبغي التعامل معها على قدم المساواة في الميزان التجاري والإنفاق العسكري، ثم أن الموقع القيادي للولايات المتحدة القوية والثرية ضمن التحالف الغربي، له استحقاقاته، ولكن الآن وبعد أتحد الأوربيون وبعض دولهم أصبحت دول تتمتع بأقتصاديات متينة (كألمانيا، والنمسا، فرنسا، وإيطاليا، وهولندة والدانمرك) ثم أخذوا يتسابقون لخطب ود روسيا واعتمادهم عليها (بدرجة كبيرة) في موضوعات الطاقة (النفط والغاز)، ومساعي الاتحاد الأوربي في أن يكون قطباً عالمياً بقيادة فرنسا وألمانيا، بحيث يستغني عن الولايات المتحدة، فلسان حال الادارة الأمريكية يقول " فليتحمل إذن كل أعباؤه، ولتسد العدالة والتوازن في العلاقات ".

أين يتفق وأين يختلف الأوربيون مع الولايات المتحدة

يتفق الأوربيون مع الولايات المتحدة في قضايا ويختلفون في أخرى، لكن ليس بالمطلق وليس بدون حدود أو سقف. يتفق الأوربيون مع الأمريكان في التصدي " للإرهاب " ومصطلح الإرهاب لم يتم الاتفاق على تحديده حسب القانون الدولي والمواثيق الدولية، لذلك فهو يفهم ويكيف سياسياً حسب الحاجة، (مثلاً امتنعت فرنسا وألمانيا من المشاركة في الحرب على العراق) فالمصطلح يتسع ويضيق بلا حدود أو سقف. ولكن حتى التصدي للإرهاب الذي يشمل " الإسلام " قد يتسع ليشمل النزعات التحررية لدى الدول التي تريد أن تتجه بسياسة خاصة ابتداء أفغانستان، وحتى العراق، بل وتركيا العضو في الناتو ..!

والديمقراطية ودعم الدول الديمقراطية هي سياسة نسبية ومزدوجة المعايير، فالولايات المتحدة والغرب لا يقبلون بالحكومات التي تصل ديمقراطيا إلى السلطة، إذا لم تتفق معها في الخط العام والتفاصيل، فهي في غاية النسبية، وفي النهاية فإن الدول التي لا تقبل بقيادتنا للعالم ونحدد لكل دوره ولونه السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وحتى الخلاف مع كوريا الديمقراطية لهو مساراته، أو إيران، التي يختلفون معها بشيئ، ولكن يتفقون في أشياء أخرى. والإدارة الأمريكية عبرت حتى عن ضيق صدرها في التعامل مع الأوربيين وتناقضت معها في أوقات ومناسبات مختلفة، تناقضات بلغت أحياناً درجة عميقة.

ـ الخلاف حول التخصيصات العسكرية.

وهذه من أقدم ملفات الخلاف بين الولايات المتحدة وبلدان الناتو المتحالفة معها. ومنذ نهاية الحرب العالمية كانت الولايات المتحدة تتحمل الثقل الرئيسي من مسؤوليات الدفاع عن أوربا الغربية، وتخصص له جزء هام من الدخل القومي، وأنخفض نسبياً بعد نهاية الحرب الباردة، إلا أنه ما يزال الإنفاق الأمريكي في مسؤولياته ضمن الناتو لا يقل عن 4% من الدخل القومي الأمريكي (لا يقل عن 700 مليار دولار) ولا يزال أكبر انتشار عسكري لقوات الولايات المتحدة خارج البلاد هو في ألمانيا، ولكن الحكومة الألمانية لا تدفع أكثر من 1% من دخلها القومي للدفاع، وحتى هذا الجزء البسيط تدفعه بتلكؤ.

ومثل ألمانيا تفعل سائر بلدان الناتو، واليابان كذلك، والولايات المتحدة تعتقد أن هذا غبن فادح، أن تبعث بقواتها المسلحة إلى بلدان حليفة لتدافع عنها وفقاً لألتزامات، نعم هي تقبل بها ومقتنعة بجدواها السياسية،

وبدورها كقائد للتحالف، ولكن بالمقابل لا تفعل تلك الدول المعنية إلا جزء بسيط جدتً مما يتعين القيام به في التحالف والدفاع المشترك.

وفي 11 حزيران/ 2018 قال ترامب إن ألمانيا "تدفع بالكاد (37 مليار دولار) 1% من اجمالي ناتجها القومي الى الحلف الاطلسي، بينما ندفع نحن 4% من اجمالي الناتج القومي وهو أكبر بكثير جدا مما تدفعه ألمانيا للدفاع عن نفسها (700 مليار إلى 37 مليار)..!. هل هذا منطقي؟ نحن نحمي أوروبا (وهذا أمر جيد) رغم الخسارة المالية الكبيرة، ثم نتلقى ضربات على صعيد التجارة. التغيير قادم..! ". وأمام إصرار ترامب على وقفة المراجعة، أعلنت المستشارة الألمانية ميركل في وقت سابق بأن " القمة التي سيعقدها حلف شمال الاطلسي (في تموز) لن تكون سهلة ".

من بين جميع دول الناتو تعرضت ألمانيا إلى انتقادات شديدة من الرئيس ترامب بسبب إنفاقها العسكري المنخفض. ويرى ترامب أن ألمانيا تتمتع بحماية الناتو، ولكن دون تقديم مساهمة مالية مناسبة. وإذا كان الأمر متروكاً له، فعلى برلين الاستثمار بنسبة 2% على الأقل من الناتج المحلي الإجمالي في الجيش الألماني، على النحو المتفق عليه في اجتماع الناتو عام 2014.

في العام (2017)، أنفقت ألمانيا حوالي 1.2 % من ناتجها المحلي الإجمالي على الدفاع (بعد الضغوط والإلحاح)، أي حوالي 37 مليار يورو. ووفقاً لاتفاق الائتلاف الحكومي، فإن هذا الإنفاق سوف يزداد ببطء خلال السنوات الأربع القادمة، لكنه لن يصل إلى الهدف المطلوب والذي هو 2%.

ـ الخلاف حول الاتفاق النووي مع إيران.

تعتبر ألمانيا من أكبر المؤيدين لـ"خطة العمل المشتركة الشاملة(JCPOA) "، والمعروفة بالاتفاق النووي مع إيران. وتلزم اتفاقية عام 2015 طهران بالحد من أهدافها النووية. وفي المقابل، تم تخفيف العقوبات المفروضة عليها من قبل الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية. وتعتقد برلين أن في هذه الاتفاقية ضماناً على أن إيران لن تقوم بتطوير أسلحة نووية. غير أن الرئيس الأمريكي ترامب يفسر هذه الاتفاقية بشكل مختلف تماماً. فبالنسبة له فإن الصفقة مع إيران هي "أسوأ صفقة على الإطلاق". ويتهم الرئيس الأمريكي إيران بعدم الالتزام بالاتفاقيات ويرفض تجديد التصديق على الاتفاقية الذي يحدث مرة كل 120 يومًا. ويهدد ترامب بإلغاء الخطة بأكملها، الأمر الذي سيسبب مشكلة كبيرة في برلين ودول في أوروبا.

وكانت الحكومات الأوربية الرئيسية (ألمانيا بريطانيا وفرنسا) قد انتهزت فرصة رفع العقوبات، فأسرع مسؤولوها وشكاتها إلى إيران للأستثمار وإبرام عقود في شتى المجالات، وعندما وجاء انسحاب الولايات المتحدة من الاتفاق النووي المبرم في عام 2015 وخططها لإعادة فرض العقوبات على إيران مع تهديد بفرض عقوبات على أي شركات أجنبية تنخرط في أنشطة هناك. عبرت حكومات ألمانيا وفرنسا وبريطانيا إنهم ما زالوا ملتزمين بالاتفاق النووي. وقال وزير الاقتصاد الألماني إن حكومة بلاده لا ترى سببا ملحا لتغيير برنامج ضمانات التصدير الخاص بإيران. وصرح الوزير قائلا "نحن مستعدون للحديث إلى جميع الشركات المهتمة بشأن ما يمكننا أن نفعله للحد من التداعيات السلبية. "هذا يعني أن الأمر هو بشكل ملموس يتعلق بوضع الأضرار في أضيق حدود" ويشمل هذا تقديم الاستشارات القانونية. لكن الوزير أشار أيضا في حديثه إلى أن الحكومة الألمانية لا تملك إمكانية لحماية شركات ألمانية من قرارات الحكومة الأمريكية أو الاستثناء منها.

ولدى ألمانيا نحو 120 شركة باشرت عملياتها بموظفين من تلك الشركات بأنفسهم في إيران، ومن بينها سيمنس، فضلا عن نحو عشرة آلاف شركة ألمانية تتعامل مع إيران.

يذكر أن صادرات البضائع الألمانية إلى إيران ارتفعت العام الماضي بنحو 400 مليون يورو إلى أكثر من ثلاثة مليارات يورو (3.57 مليار دولار) بما يزيد قليلا عن 0.2 % من مجمل الصادرات الألمانية، لكن هذا الحجم أكبر من صادرات بريطانيا وفرنسا. فيما تبلغ قيمة صادرات الشركات الألمانية إلى الأسواق الأمريكية حوالي 111 مليار دولار. وقال وزير الاقتصاد الألماني إن ألمانيا ينبغي أن تتجنب "موجة تصعيد" في العلاقات التجارية مع الولايات المتحدة.

وكان ممثلون قياديون عن الأوساط الاقتصادية في ألمانيا انتقدوا بشدة دعوة الولايات المتحدة للشركات الألمانية بإنهاء صفقاتها مع إيران فورا، مطالبين الحكومة الألمانية بالدعم. جدير بالذكر أن الولايات المتحدة وضعت مهلة 180 يوما لتصفية تعاملات الشركات الأجنبية في إيران، وإلا تعرضت لعقوبات أمريكية، وهو أمر يرفضه الأوروبيون بشدة ووصفوه بأن الولايات المتحدة تلعب دور الشرطي الاقتصادي في العالم.

ويدرس الاتحاد الأوروبي الإجراءات التي يمكن اتخاذها لحماية الاستثمارات الأوروبية في إيران، بعد أن حددت طهران إنذارا نهائيا أمده 60 يوما لبروكسل(عاصمة الاتحاد الأوربي) لضمان استمرار تنفيذ الاتفاق. وللحفاظ على الاتفاق، ينبغي على الاتحاد الأوروبي تأكيد أن الالتزام به لا يزال في صالح طهران، عبر ضمان إمكانية استمرار التجارة مع إيران، رغم التهديد المتجدد بالعقوبات الأمريكية.

وفرضت الولايات المتحدة عقوبات على محافظ البنك المركزي الإيراني وعلى مصرف البلاد الإسلامي الذي مقره العراق "لتحويلهما ملايين الدولارات "للحرس الثوري الإيراني مع سعي واشنطن لوقف تمويل ما تصفه بأنشطة إيران الخبيثة في الشرق الأوسط.

الرئيس ترامب قرر الانسحاب من الاتفاق النووي وتعهد بفرض عقوبات على إيران، وقال وزير الخزانة الأمريكي إن محافظ البنك المركزي الإيراني قد حول سرا ملايين الدولارات نيابة عن فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني من خلال مصرف البلاد" لتعزيز أجندة حزب الله التي تتسم بالعنف والتطرف."

وقال الوزير الامريكي في بيان "من الأمور المروعة ولكن غير المفاجئة تآمر أرفع مسوؤل مصرفي إيراني مع فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني لتسهيل تمويل جماعات إرهابية مثل حزب الله، وذلك يقوض أي مصداقية قد يدعيها في حماية نزاهة هذه المؤسسة كمحافظ لبنك مركزي."

ووصف وزير الخارجية الإيراني في تصريح له في بروكسل العقوبات على محافظ البنك المركزي بأنها غير قانونية .وأدرجت أيضا الخزانة الأمريكية أسم علي ترزالي مساعد مدير الإدارة الدولية بالبنك المركزي الإيراني وآراس حبيب رئيس مصرف البلاد الإسلامي ضمن القائمة السوداء.

وقالت الوزارة إن العقوبات ضد سيف وترزالي لن تؤثر بشكل فوري على تعاملات البنك المركزي. لكنها أضافت أن العقوبات التي يجري إعادة فرضها بعد انسحاب الولايات المتحدة من اتفاق إيران النووي سوف تؤثر على تعاملات معينة للبنك المركزي بالدولار الأمريكي ابتداء من 7/ آب.

ـ انعكاسات الاتفاق النووي مع إيران على الاقتصاد الألماني.

بوفد رفيع المستوى من رجال الاقتصاد والصناعة روج زيغمار غابرييل، وزير الخارجية الألماني السابق بأيام قليلة بعد التفاهم على الاتفاقية النووية لبداية جديدة في العلاقات الاقتصادية الألمانية الإيرانية. ونوه وزراء النفط والطاقة والصناعة في صيف 2015 بآفاق المشاريع الاقتصادية المشتركة .وتمكنوا من الاعتماد في ذلك على تحليلات الخبراء: فالخبراء أكدوا أن الحاجة إلى الاستثمارات في الصناعة الإيرانية ستصل إلى بليون دولار خلال السنوات العشر المقبلة. وكان الأمل أن يحصل قطاع صناعة الآلات وصناعة السيارات وكذلك قطاع الصيدلة والطب على قطعة كبيرة من الكعكة الإيرانية.

لكن بعد مرور ثلاث سنوات حلت خيبة الأمل. وصحيح أن التجارة الألمانية الإيرانية انتعشت بقوة، لكن على مستوى متواضع. ففي 2015 كان رئيس غرفة الصناعة والتجارة الألمانية قد تنبأ، بحجم تجارة سنوي يصل إلى عشرة مليارات يورو. لكن في الواقع 2017 لم يتحقق عام 2017 سوى فقط 3.5 مليار يورو وكانت التجارة قد بلغت 2.7 مليار وهي سنة العقوبات 2014. وهذا رغم أن التجارة مع الشعب الذي يصل عدد سكانه إلى 80 مليون نسمة تراجع بشكل ملحوظ بعد الاتفاقية النووية.

وبإمكان إيران مجددا تصدير النفط والغاز إلى الاتحاد الأوروبي، وفي المقابل شراء طائرات أوروبية ومنتجات أخرى. ويمكن للبنوك الألمانية تمويل صفقات تجارية ثنائية بقروض. وألغى الاتحاد الأوروبي عقوبات ضد 300 شخص. وعلى الرغم من ذلك يبقى التعامل مع إيران أرضية ملغومة. ولاسيما تمويل المشاريع الكبرى يتسبب في قلق كبير للصناعة. ويشكو مدير أعمال غرفة التجارة الألمانية الإيرانية من أن "البنوك الكبرى ما تزال غير مستعدة للخوض في التعامل مع إيران". وهذا له علاقة بالعقوبات التجارية للولايات المتحدة الأمريكية التي لم تُلغى أيضا في عهد باراك أوباما. وتبقى التعاملات مع الحرس الثوري الإيراني مستهدفة. "فحراس الثورة الإسلامية" يسيطرون على ثلث الاقتصاد الإيراني ولهم بالتالي تأثير على كثير من الشركات.

وبالنسبة إلى البنوك الألمانية التي تعمل أيضا في السوق الأمريكية يبقى تمويل الصفقات مع إيران شائكا بحيث يجب عليها توقع عقوبات مؤلمة. وعلى هذا النحو كان مصرف Commerzbank مجبرا في 2014 على دفع 1.45 مليار دولار للدولة الأمريكية بسبب خروقات ضد العقوبات المفروضة على إيران - ومصرف Paribas الفرنسي دفع تسعة مليارات دولار. ولا عجب أن تفزع البنوك الألمانية الكبرى من الدخول في مثل هذه الصفقات. وعلى هذا الأساس فإن غرفة الصناعة والتجارة الألمانية تجزم أن " الحيوية الكبيرة لم تحصل."

لكن ليس فقط الخوف من حصول متاعب مع الإدارة الأمريكية هو الذي يشل التجارة الثنائية مع إيران التي كانت في السبعينات ثاني أكبر شريك لألمانيا خارج أوروبا. وقبل الحصار كانت ألمانيا أهم شريك تجاري لإيران. وفي الأثناء تغيرت أيضا النظرة الإيرانية. وأن تشتري الصين خلال العقوبات النفط من طهران بكميات كبيرة، فهذا كان له تأثيره. فالإيرانيون كثفوا خلال فترة العقوبات تعاونهم مع الصين بحيث تم تجاوز ألمانيا كأكبر مورد. بل حتى على المستوى الأوروبي تراجع الاقتصاد الألماني: صحيح أن منتجي السيارات الألمان تمكنوا من تقوية وجودهم في إيران بعد نهاية العقوبات، لكن الصفقات الكبرى يديرها آخرون. فنحو نصف أكثر من 1.5 مليون سيارة منتجة في إيران كانت السنة الماضية من إنتاج بيجو ورينو. فالشركتان الفرنسيتان تنتجان لدى شركات سيارات إيرانية، لأن الحكومة في باريس كانت قد أبرمت اتفاقية مع إيران.

أعلن الرئيس الأمريكي ترامب في الـ 12 من أيار عن قراره بخصوص إيران، فإنه سيتغير في الحال لقرار سلبي بالنسبة إلى الاقتصاد الألماني، لأنه أولا الرئيس الأمريكي لا يقرر بشأن البرنامج النووي، بل فقط بشأن العقوبات في إطار صفقات النفط. والبنوك الأجنبية والشركات التي تشتري النفط عبر البنك المركزي في طهران، ستُعاقب في المستقبل مجددا من الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا القانون ينطبق منذ الآن على البنوك الأمريكية .وستكون صادرات النفط الإيرانية إلى الاتحاد الأوروبي بوجه خاص مهددة. ولكن حتى بعد توثيق العلاقات التجارية هي لا تمثل سوى الربع، والجزء الأكبر يذهب إلى الصين والهند. وقانون أمريكي مشدد ينطوي على عدد من الاستثناءات لن يلغي فورا الاتفاقية النووية، ولن يؤثر دفعة واحدة على التعاون الاقتصادي الألماني الإيراني المتنامي ببطء. لكن عدم الأمان في التجارة مع إيران سيزداد. وعدم الأمان هو بمثابة سم بالنسبة إلى الانفراج الاقتصادي .فالطفرة الاقتصادية الكبيرة مع إيران ستبقى بالنسبة إلى الصناعة الألمانية فقط حلما.

ـ بعد قرار ترامب ... أوروبا والخوف على التجارة مع إيران

وقد أثار الإعلان الأمريكي القاضي بالانسحاب من الاتفاق النووي مع إيران مخاوف الشركات الأوروبية التي رأت أن هذا الإعلان قد يؤدي إلى خسائر اقتصادية باهظة لها وهو ما دفع مسؤول من الرئاسة الفرنسية (9 / أيار) إلى الإعلان أن المسؤولين الاوروبيين سيبذلون" كل جهد" ممكن لحماية مصالح شركاتهم العاملة في إيران "من خلال التدخل لدى الادارة الأمريكية."

وكانت واشنطن عند اعلانها انسحابها من الاتفاق النووي الإيراني هددت بفرض عقوبات على كل الشركات الاجنبية المتعاونة مع إيران وأمهلتها 180 يوما للالتزام، وهو ما عبر عنه سفير الأمريكي الجديد في برلين ريتشارد جرينيل (8/ أيار) حيث طالب في تغريدة له على مواقع التواصل الاجتماعي بانسحاب الشركات الألمانية من إيران فورا. وكتب جرينيل على تويتر إن على الشركات الألمانية التي لها أنشطة في إيران أن "توقف فورا" هذه الأنشطة. كما أعلن مستشار الامن القومي الاميركي جون بولتون أن إعادة العمل بالعقوبات الاميركية المرتبطة بالبرنامج النووي الإيراني ستسري فورا على العقود الجديدة، موضحا أن إمام الشركات الأجنبية بضعة اشهر "للخروج" من إيران.

ويشكل قرار الرئيس الأمريكي ترامب الانسحاب من الاتفاق النووي الإيراني نكسة قوية للأوروبيين بعدما بذلت فرنسا والمانيا وبريطانيا جهودا دبلوماسية مكثفة لأقناعه بالبقاء فيه. وعلق الرئيس الفرنسي ايمانويل ماكرون على تويتر بالقول إن "فرنسا والمانيا وبريطانيا تأسف للقرار الأمريكي وستعمل بشكل جماعي على اتفاق أوسع". والرئيس الفرنسي الذي عمل منذ انتخابه على اقامة علاقات جيدة مع نظيره الأمريكي، فشل في تغيير موقف ترامب خلال زيارته الاخيرة إلى واشنطن.

كما فشلت برلين ولندن الموقعتان ايضا على الاتفاق المبرم في 2015 مع طهران، في ثني ترامب عن المضي في قراره في ختام مشاورات دبلوماسية ماراثونية. وبعد أيام على زيارة ماكرون، حاولت المستشارة الألمانية ميركل تغيير موقف ترامب وتبعها وزير الخارجية البريطاني بوريس جونسون. ولإنقاذ النص، حاول الاوروبيون مراعاة ترامب عبر اقتراح التفاوض مع إيران على "اتفاق جديد" يأخذ بالاعتبار القلق الأمريكي حول قيام طهران بتطوير صواريخ بالستية وكذلك انشطتها التي تعتبرها "مزعزعة للاستقرار" في الشرق الأوسط وسوريا واليمن بشكل خاص.

مصالح ألمانية مهددة: ونشرت مجلة فوكوس الألمانية على موقعها الإلكتروني مطالبة الحكومة الألمانية بالعمل على إنقاذ المصالح الاقتصادية الألمانية. ووفقا للمجلة فإن حجم الصادرات الألمانية لإيران بلغ ما

مقداره ثلاثة مليارات يورو العام الماضي وهو ما يعتبر شيئا بسيطا من مجموع الصادرات الألمانية بشكل عام لسنة 2017. وقالت المجلة إن نسبة الصادرات الألمانية ارتفعت ما مقداره 16 % عن العام السابق إلا أن قرار ترامب قد يؤدي إلى تجميد للعلاقات الاقتصادية بين البلدين ويكبد ألمانيا خسائر فادحة.

كما عبرت العديد من الشركات الألمانية عن تخوفها من خسائر مالية مفترضة حيث قالت شركة فولكسفاغن إنها بدأت العام الماضي فقط بإرسال سيارات إلى إيران، فالقرار الأمريكي قد يعني وقف هذا التصدير، كذلك أبدت شركة هينكل الرائدة في مجال صناعة المنظفات مخاوفها من تأثير قرار ترامب على خططها التجارية المستقبلية مع إيران، بحسب مجلة فوكوس. وتعهدت المستشارة الألمانية انغيلا ميركل الأربعاء(9/ أيار) بقيام برلين وباريس ولندن "بكل ما يلزم" لضمان بقاء إيران في الاتفاق النووي المبرم عام 2015 غداة انسحاب الولايات المتحدة منه.

وصرحت المستشارة الألمانية ميركل "سنبقى ملتزمين بهذا الاتفاق وسنقوم بكل ما يلزم لضمان امتثال إيران له" مضيفة أن ألمانيا اتخذت هذا القرار بالتعاون مع بريطانيا وفرنسا. وفي تصريح لمجلة شبيغل الألمانية قال رئيس السياسة الدولية في حزب ميركل إنه سيكون من الصعب الالتزام بالاتفاق دون الولايات المتحدة نظرا إلى أن الشركات الأوروبية التي تواصل تعاملاتها التجارية مع الجانب الإيراني قد تتعرض لعقوبات أميركية قاسية.وقال إن أي جهة "تستثمر في إيران ستواجه عقوبات قاسية من قبل الولايات المتحدة، ولا يمكن تعويض ثمن ذلك". وحذر قائلا "لذلك فإن الشركات المتأثرة ستتراجع على الأرجح سريعا عن استثماراتها أو تنسحب من البلد تماما."

ـ فرنسا تريد الدفاع عن المكاسب الاقتصادية

من جهتها قالت فرنسا إنها سوف تسعى إلى الحفاظ على بعض المزايا والمنافع الاقتصادية العائدة على إيران من الاتفاق النووي. وقال وزير الخارجية الفرنسي إن إيران كانت قد وافقت على فرض قيود على أنشطتها النووية "مقابل منافع اقتصادية سيحاول الأوروبيون الحفاظ عليها." وذكر الوزير الفرنسي لمحطة "RTL " الإذاعية الفرنسية إن السلطات ستجتمع مع الشركات الفرنسية العاملة في إيران خلال أيام لبحث " كيف يمكننا مساعدة عملياتهم في إيران في محاولة حمايتها قدر الإمكان من الإجراءات الأمريكية " .

وفي الوقت نفسه قال وزير الاقتصاد الفرنسي إنه" ليس من المقبول" أن تتصرف الولايات المتحدة كأنها "شرطي اقتصادي" عبر تطبيق عقوبات على شركات أوروبية بسبب تجارتها مع إيران بموجب الاتفاق، الذي أبرم عام 2015 كطريقة لمنع إيران من امتلاك أسلحة نووية.

حاليا تجد إيران نفسها في موقف دقيق وحساس فيما تدرس الرد على إعلان الرئيس الأمريكي ترامب الانسحاب من الاتفاق النووي الموقع في العام 2015 .وقال دبلوماسي غربي في طهران إن الإيرانيين "بحاجة إلى إيجاد رد يبقي الاوروبيين في صفهم لكن أيضا يظهر أنه لا يمكن إساءة معاملتهم " بهذا الشكل. وتبدو أوروبا مصرة على الحفاظ على الاتفاق، لكن واشنطن هددت بالفعل الشركات الأوروبية في إيران بضرورة تصفية أعمالها خلال ستة اشهر.

وقال رئيس مجلس الشورى الإيراني علي لاريجاني إن أوروبا انصاعت من قبل للضغوط الأمريكية، ما أدى لانسحاب العديد من شركاتها من إيران بموجب عقوبات دولية سابقة بين عامي 2012 و2015. وأكد "لا يمكننا وضع الكثير من الثقة في تصريحاتهم حول الحفاظ على الاتفاق، لكن الامر يستحق الاختبار

لعدة اسابيع، حتى يكون جليا للعالم أن إيران حاولت بكل الطرق التوصل لحل سياسي سلمي ."وقد تؤدي هذه الخطوة إلى اعتماد إيران بشكل أكبر على أسواق الصين وروسيا.

وأعلن المرشد الاعلى الإيراني خامنئي في 19 شباط الماضي أنه "في السياسة الخارجية، أولوياتنا اليوم تتضمن تفضيل الشرق على الغرب ."ويعكس تصريح خامنئي تعزيز طهران لعلاقاتها مع روسيا، حليفتها في الصراع في سوريا، ومع الصين التي ليس لديها أية هواجس بخصوص روابطها التجارية مع الجمهورية الإسلامية.

ـ البيئة.

حتى لو لم تلتزم ألمانيا ببنود اتفاقية باريس، فإن الحكومة الألمانية تعتبر الاتفاق خطوة مهمة في مكافحة انبعاثات ثاني أكسيد الكربون والاحتباس الحراري العالمي. غير أن ترامب يرى عكس ذلك. فقد قام الرئيس الأمريكي بإنهاء التزام بلاده بالاتفاقية بشكل تعسفي وفي أقرب تاريخ ممكن وهو تشرين الثاني/ عام 2020. ولكن بين الحين والآخر يعطي ترامب الوعود بأن الأميركيين قد ينضمون إلى اتفاقية باريس للمناخ مجددا. إلا أن برلين على ما يبدو قد استسلمت لحقيقة أنه لن يكون هناك أي تقدم في شأن موضوع المناخ مع الرئيس الحالي للولايات المتحدة الأمريكية، دونالد ترامب.

ـ المهاجرون واللاجئون.

سياسة الهجرة واللجوء هي من أكبر نقاط الخلاف الساخنة بين ترامب وميركل. ففي حين كان "جدار الحماية" بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك هو المطلب الأساسي في حملة ترامب الانتخابية، سمحت ميركل لأكثر من مليون أجنبي بالحصول على الحماية خلال أزمة اللاجئين في الفترة ما بين عامي 2015 و2016. وبعد وقت قصير من انتخابه رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، قال ترامب لصحيفة "بيلد" الألمانية إن ميركل ارتكبت "خطأً كارثياً للغاية، حين سمحت لكل هؤلاء المجرمين بالدخول إلى البلاد". من جهتها تشكك المستشارة الألمانية ميركل في ما إن كان جدار ترامب قادراً على حل مشكلة الهجرة غير القانونية إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

ـ مشروع خط أنابيب "نوردستريم".

من جهة أخرى يراقب ترامب مشروع خط أنابيب الغاز "تيار الشمال 2" من روسيا إلى ألمانيا عبر بحر البلطيق بتحفظ كبير. فبحسب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، فإن ألمانيا تعتمد في هذا المشروع على الكرملين وسوف تدفع من أجله ثمناً باهظاً "بمليارات الدولارات". ويرى ترامب أن هذا الأمر غير مقبول. وتشارك قلق ترامب هذا أيضاً بعض الدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي في أوروبا. من ناحية أخرى، تعتقد برلين أن واشنطن ترغب في تصدير المزيد من غاز البترول المسال الأمريكي نحو أوروبا.

ـ قلق أوروبا على حرية التجارة؟

بالنسبة للرئيس الأمريكي دونالد ترامب، فإن العجز التجاري الكبير للولايات المتحدة الأمريكية مع ألمانيا والبالغ 52.5 مليار يورو، هو دليل على وجود علاقات تجارية غير متكافئة بين البلدين. وندد ترامب بهذا الوضع وقال بأنه ابتداءً من الأول من أيار، يمكنه فرض رسوم جمركية عقابية على واردات الصلب

الأوروبي، وربما على صادرات السيارات الألمانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ساهمت سياسة ترامب الحمائية في تعطيل المفاوضات حول اتفاقية التجارة الحرة عبر الأطلسي.(TTIP)

ولأن ألمانيا تلتزم بتحرير التجارة العالمية، تود إحياء اتفاقية التجارة الحرة عبر الأطلسي(TTIP) . وتترقب المفوضية الأوروبية تحفيزاً إضافياً قدره 120 مليار يورو. وتشير ألمانيا إلى أن الرسوم الجمركية الأوروبية على الواردات الأمريكية في المتوسط أقل من الرسوم الجمركية الأمريكية على المنتجات الأوروبية. وبالرغم من ذلك جمهورية ألمانيا الاتحادية مستعدة للعودة إلى طاولة المفاوضات على الاتفاقيات الجمركية لعام 1994 مع الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن في حال شن ترامب حرباً تجارية، فإن ألمانيا ستقترح في المقابل فرض رسوم جمركية أوروبية على المنتجات الأمريكية مثل الدراجات النارية هارلي ديفيدسون والجينز الأزرق والويسكي الأمريكي بوربون.

وحين أقدم الرئيس الأمريكي على خطوة كبيرة بفرضه الرسوم الجمركية حتى على صادرات حلفائه الأوروبيين من الألمنيوم والصلب، هل تستغل أوروبا الأزمة لاتخاذ موقف موحد يضع حداً لجنوح ترامب نحو حرب تجارية تؤدي إلى كساد عالمي ونتائج لا تُحمد عقباها على أحد؟

ولا تشكل الرسوم الجمركية ضد صادرات الصلب والألمنيوم الأوروبية إلى السوق الأمريكية صدمة قاسية للاتحاد الأوروبي بسبب أن أوروبا بمكنها استيعابها دون خسائر كبيرة، لكن المشكلة تكمن في أن الرسوم التي تشمل صادرات بقيمة 27 مليار يورو سنوياً طالت حلفاء استراتيجيين للولايات المتحدة على مدى عقود.

غير أن الرئيس الأمريكي غير آبه بردود الأفعال حتى داخل الولايات المتحدة الأمريكية التي ترتفع الأصوات فيها ضد هذه الرسوم التي تضر بقطاعات أقوى وأوسع من قطاع الصلب والألمنيوم الذي لا يعد من القطاعات الوازنة في الولايات المتحدة مقارنة بقطاع السيارات والطائرات والآلات والتجهيزات، التي تعتمد على الصلب والألمنيوم المستورد على نطاق واسع. فمع فرض الرسوم سترتفع تكاليف الإنتاج التي سيتحمل عبئها المستهلك الأمريكي وسيتراجع قطاع الصادرات الأمريكية مع هذا الارتفاع، الأمر الذي سيؤدي على المدى الطويل إلى عكس ما ما يهدف إليه الإجراء الأمريكي، ألا وهو إعادة التوازن إلى الميزان التجاري الأمريكي الخاسر مع الدول التي فرض الرسوم ضدها.

ردود الأفعال الأوروبية الرافضة للرسوم والمهددة برسوم مماثلة قيل أنها تشمل الويسكي والجينز والموتورسيكلات المستوردة من ولايات أمريكية يحكمها الجمهوريون المؤيدون للرئيس ترامب. وتهدف هذه العقوبات إلى دفع حكام هذه الولايات إلى الضغط على ترامب لثنيه عن موقفه. غير أن تجربة الأشهر الماضية تشير إلى أن الأخير لا يأبه للضغوط عندما يقرر فعل شيء. ومن هنا تخشى دول الاتحاد الأوروبي وفي مقدمتها ألمانيا من أن تأخذ المشكلة أبعاداً انتقامية بحيث يلي كل رد فعل على قرارات ترامب خطوات مماثلة من قبله بشكل يفتح الباب أمام حرب تجارية تقود إلى حرب اقتصادية تهدد بحدوث كساد عالمي سيلحق الضرر بالجميع. وقد كان ترامب واضحاً بهذا الخصوص عندما هدد بتوسيع نطاق فرض الرسوم الجمركية لتشمل السيارات الألمانية وفي مقدمتها مرسيدس ما لم يقدم الأوروبيون عرضاً لتخفيض رسومهم الجمركية على المنتجات الأمريكية كالسيارات والأغذية وغيرها.

وإذا ما شملت الرسوم السيارات الألمانية، فإن ذلك يعني ضربة موجعة لألمانيا التي تصدر سنوياً حوالي نصف مليون سيارة يرتبط بها عشرات الآلاف من أماكن العمل التي تساهم في رفد الميزانية الألمانية بعشرات المليارات من الضرائب والفوائض التجارية. وتحقق ألمانيا أعلى فائضاً تجارياً على الصعيد

الأوروبي مع الولايات المتحدة، بقيمة وصلت إلى 50 مليار يورو في عام 2017 من أصل 121 مليار يورو لمجمل الفائض الأوروبي.

وبسبب قوة العلاقات الاقتصادية بين ألمانيا والولايات المتحدة فإن ردود الأفعال الألمانية هي الأقل حدة من نظيرتها الأوروبية على الرسوم الأمريكية. حتى أن بعض ممثلي الاتحادات الصناعية طالبوا الحكومة الألمانية بالعمل على تكثيف المفاوضات الهادفة إلى حل وسط. ومما يعنيه ذلك قيام الاتحاد الأوروبي بتخفيض الرسوم الجمركية الأوروبية على الواردات الأمريكية وفي مقدمتها المنتجات الزراعية والسيارات.

الجدير ذكره أن الرسوم الأوروبية على السيارات الأمريكية تصل إلى 10 ب% مقابل 2.5 % تفرضها الولايات المتحدة على السيارات الأوروبية. بموازاة ذلك جاء رد الفعل الفرنسي أكثر قوة مقارنة بنظيره الألماني، فالرئيس ماكرون وصف إجراء الولايات المتحدة بأنه "قومية اقتصادية وتجارية" قد يغلق الباب أمام مناقشة قضايا أخرى مع واشنطن ويقود إلى الحروب في إشارة إلى الحروب المدمرة التي قادت إليها القوميات السياسية والشوفينية في أوروبا وخارجها أيام الحقب الاستعمارية.

ومع بقاء التصور الفرنسي أحد السيناريوهات الممكنة، فإن الإجراء الأمريكي في كل الأحوال يقوي النزعة الحمائية على حساب ليبرالية التجارة العالمية التي لا تخلو بدورها من إجراءات حمائية انتقائية تفرضها حتى أوروبا نفسها على السيارات الصينية وغيرها. أما على المدى الطويل، فإن إجراءات ترامب قد تشكل فرصة للجلوس على طاولة مفاوضات في إطار منظمة التجارة العالمية بهدف إعادة هيكلة التجارة العالمية بشكل أكثر توازن وعدالة بعيداً عن الاحتكار والهمينة.

وفي حال تمكن الاتحاد الأوروبي من اتخاذ موقف موحد بهذا الخصوص، فإن هذه الفرصة تصبح أكثر واقعية نظراً لعلاقاته الكثيفة والمتشابكة مع غالبية دول العالم والقوى التي تدافع عن ليبرالية التجارة العالمية حتى داخل الولايات المتحدة نفسها. غير أن السؤال الذي يصعب الإجابة عليه الآن هو: هل تتمكن أوروبا من اتخاذ هذا الموقف والنجاح في الامتحان الذي فرضته إجراءات ترامب عليها؟

سؤال يطرح نفسه هنا، ماذا بشأن تأثير رسوم ترامب على الدول العربية؟ بالطبع ليست هذه الدول عموماً في طليعة الأسواق المنتجة والمصدرة للحديد والألمنيوم. أما الدولتان اللتان تصدران ألمنيوم بما يزيد على 2 مليار دولار سنوياً وهما الإمارات والبحرين، فإن غالبية هذه الصادرات لا تذهب إلى السوق الأمريكية.

وعليه فإن تأثر الدول العربية بقرارات ترامب محدود على صعيد التصدير. أما فيما يتعلق باستهلاك الدول العربية من الصلب والألمنيوم فمن المتوقع تأثره بشكل إيجابي في المدى المنظور. ويعود سبب ذلك إلى أن كبار الدول المنتجة كالصين والاتحاد الأوروبي وروسيا وغيرها سوف تتنافس بشكل أكبر في الأسواق العربية بشكل يؤدي إلى انخفاض الأسعار وتقليص فاتورة الاستيراد.

ومما يعنيه ذلك أيضاً تراجع تكلفة المنتجات العربية التي تستخدم الصلب والألمنيوم بشكل يجعلها في متناول المستهلكين كأفراد وكشركات بشكل أسهل وأنسب. وتشكل الدول العربية جزءا هاماً في منظومة التجارة العالمية على صعيد الطاقة. ففي حال اتجه العالم إلى الحمائية وعانت التجارة العالمية من الكساد فإن ذلك سينعكس سلباً على صادرات النفط والغاز التي تشكل العمود الفقري للصادرات العربية.

ـ رابطة صناع السيارات تحذر من حرب تجارية مع واشنطن

شدد رئيس الرابطة الألمانية لصناعة السيارات، ردا على تهديدات الرئيس دونالد ترامب، على ضرورة العمل على تجنب حدوث "حرب تجارية بين الولايات المتحدة وأوروبا في كل الأحوال"، وقال: "إن مثل هذه الحرب التجارية ستسفر عن خاسرين لدى كل الأطراف". مؤكداً في تصريح لوكالة الأنباء الألمانية أن قطاع الصناعة يراقب هذا النزاع بقلق.

وكان الرئيس الأمريكي ترامب، قد هدد الاتحاد الأوروبي، بفرض ضرائب على السيارات إذا قام التكتل الأوروبي بزيادة الرسوم الجمركية على الشركات الأمريكية. وقال ترامب، عبر موقع تويتر: "إذا كان الاتحاد الأوروبي يرغب في زيادة رسومه وعوائقه الضخمة بالفعل أمام الشركات الأمريكية التي تقوم بأعمال هناك، فإننا سنقوم ببساطة بفرض ضرائب على سياراتهم التي تتدفق بحرية إلى الولايات المتحدة." وأضاف "إنهم يجعلون الأمر مستحيلا لبيع سياراتنا هناك. يا له من خلل تجاري كبير". كما اشتكى ترامب أيضا من العجز التجاري الذي عزاه إلى" اتفاقياتنا وسياساتنا التجارية الغبية للغاية". وقال ترامب إن تلك الاتفاقات تقدم الوظائف والثروات الأمريكية إلى "دول أخرى استفادت منا لسنوات.. " ويعتقد، أحد كبار مستشاري التجارة في إدارة ترامب، ان حصة شركات صناعة السيارات الأمريكية السوقية سرقت في الولايات المتحدة جراء استيراد أعداد كبيرة من السيارات الأوروبية، فيما يجري تقليص عدد السيارات الأمريكية التي تباع في ألمانيا، وفقا للصحيفة الأمريكية.

وفي عام 2017 تم بيع حوالي 1.35 مليون سيارة ألمانية جديدة في الولايات المتحدة، بزيادة قدرها 1%، وفقا للرابطة الألمانية لصناعة السيارات. وتوقع الرئيس السابق للرابطة الألمانية لصناعة السيارات، أن "مبيعات السيارات الألمانية في الولايات المتحدة واصلت الارتفاع عام 2018."

وجاءت تصريحات ترامب على "تويتر" بعد أن أعلن عن خططه لفرض تعريفات جمركية بنسبة 25 % على الصلب المستورد و 10 % على فئات واسعة من واردات الألمنيوم مما دفع الشركاء التجاريين إلى النظر في اتخاذ تدابير انتقامية.

وتفاخر ترامب في وقت لاحق بأن الحروب التجارية "جيدة، ومن السهل الفوز فيها". فيما قال المتحدث باسم المفوضية الاوروبية، إن الاتحاد الاوروبي يستعد لهذا الوضع منذ "فترة طويلة". وقال المتحدث إن قرارا بهذا الشأن يمكن اتخاذه عندما يجتمع كبار مسؤولي المفوضية. وقال إن الاتحاد الاوروبي سيقف على استعداد لحماية سوق الصلب المحاصر في أوروبا، في حالة ارتفاع الواردات نتيجة للتعريفات الامريكية. وأضاف أن الاتحاد الاوروبي سيسعى إلى تسوية النزاع أمام منظمة التجارة العالمية.

وأشار رئيس الرابطة الألمانية إلى أن شركات السيارات الألمانية توسع إنتاجها في الولايات المتحدة منذ سنوات، وتوظف أعدادا متزايدة من العاملين هناك أيضا، وتخفض صادراتها للولايات المتحدة، مضيفا أن عدد السيارات الألمانية التي تم تصديرها لأمريكا العام الماضي بلغ 494 ألف سيارة أي أقل نحو الربع عن عام 2013.

من جانب آخر، دعا اتحاد الاقتصاد الألماني لصناعات الحديد والصلب لاتخاذ ردود فعل حاسمة بالنظر إلى الرسوم الجمركية العقابية، التي أعلنها الرئيس ترامب على واردات الصلب والألومنيوم. وكتب رئيس الاتحاد في مقال تم نشره الصحافة الألمانية: "يجب ألا تقف ألمانيا والاتحاد الأوروبي جانبا، عندما تتم محاولة إعادة صياغة قواعد اللعب العالمية"، وشدد على ضرورة أن تتخذ المفوضية الأوروبية إجراء سريعا.

وأشار إلى ضرورة أن تحمل ألمانيا راية المبادرة بصفتها "معقلا صناعيا" مهما في العالم، لافتا إلى أنه ينقص المؤسسات الأوروبية حتى الآن استخلاص استنتاجات واضحة من التطورات العالمية. وحذر من عواقب ملموسة على مستوى العالم نتيجة فرض الرسوم الجمركية الأمريكية على الواردات، لاسيما في ألمانيا وأوروبا. وأشار إلى أن الشركات التي تصدر الصلب إلى الولايات المتحدة حتى الآن، سوف تبحث عن بدائل، وقال: "بشكل إجمالي تحاسب أوروبا على فاتورة الحمائية الأمريكية."

على صعيد متصل، أعربت رئيسة الوزراء البريطانية تيريزا ماي عن "قلقها البالغ" حيال الإجراءات الحمائية التي أعلن الرئيس الأميركي ترامب انه سيتخذها لجهة فرض رسوم جمركية على واردات الفولاذ والألومينيوم، وفق ما اعلنت رئاسة الوزراء الاحد في بيان. وأجرت ماي الأحد مكالمة هاتفية مع ترامب و"أعربت خلالها عن قلقها البالغ حيال عزم الرئيس على فرض رسوم جمركية على الفولاذ والألومينيوم، معتبرة أن تحركا متعدد الأطراف هو السبيل الوحيد لحل مشكلة الفائض العالمي لما فيه مصلحة جميع الأطراف."

كيف ترى أوربا السياسة الأمريكية.

سياسة ترامب لن تجعل العالم أكثر أمانا، رفض معاهدة المناخ ثم الانسحاب من الاتفاق النووي مع إيران إضافة فرض الرسوم الجمركية، خطوات اتخذها الرئيس الأمريكي دونالد ترامب رغم علمه بالتداعيات السلبية لذلك على أوروبا، كما يرى ذلك وزير الخارجية الألماني هايكو ماس.

لم يعد الهدف، وفقا للرئيس الفرنسي، إقناع ترامب بإعادة النظر في الرسوم المؤلمة على واردات الفولاذ والألمنيوم، أضطرت المستشارة الألمانية ميركل للإقرار أمام البرلمان (بوندستاغ) بوجود خلافات مع الولايات المتحدة الأمريكية، ومضى وزير خارجيتها هايكو ماس في نفس الاتجاه. ففي تصريح صحفي (8/ حزيران) أكد ماس قبيل قمة مجموعة السبع في كندا "لم يعد من الممكن إخفاء الخلافات مع الولايات المتحدة."

وذكر ماس برفض ترامب لاتفاقية المناخ وبانسحابه من الاتفاق النووي مع إيران إضافة إلى القرار الأخير بفرض رسوم جمركية على منتوجات أوروبية، مؤكدا أن ترامب يعي تماما التأثير السلبي المباشر لتلك القرارات على أوروبا. وحذر ماس من أن ترامب يبتعد عن العمل المتعدد الأطراف مع شركاء الولايات المتحدة وأضاف "لا شيء من ذلك سيجعل العالم أفضل أو أكثر أمانا وسلاما."

ويذكر أن ترامب هاجم في تغريدة الاتحاد الأوروبي وكندا بقوله "خفضوا الرسوم والحواجز الأخرى وسنفعل أفضل منكم "! ويتوقع أن يلقى ترامب استقبالاً فاتراً في قمة مجموعة السبع في كندا، فالأوروبيون الأربعة : إيمانويل ماكرون وأنغيلا ميركل وتيريزا ماي وجوزيبي كونتي، قرروا الاجتماع قبل بدء القمة للإعراب عن نفاد صبرهم من تهديداته بحرب تجارية. وقال ماكرون إن" ترامب ينفذ وعود حملته الانتخابية، نحن هنا أمام شخصية يمكن أن نتنبأ بسلوكها". لكنه قال انه يعتزم إقناعه بأن "الحرب التجارية ليست في مصلحة أحد."

ورفع الاتحاد الأوروبي شكوى ضد الولايات المتحدة إلى منظمة التجارة العالمية وأعد لائحة بالرسوم الجمركية ضد بعض المنتجات الأميركية مثل الويسكي وزبدة الفول السوداني أو الدراجات النارية.

لكن هذه التدابير الانتقامية لم تدخل بعد حيز التنفيذ اذ على الدول الأعضاء أن توافق على القائمة، غير أن ألمانيا قد تفضل الحذر خوفاً من أن يقدم دونالد ترامب على الخطوة المؤذية التالية بفرض رسوم على السيارات الأجنبية قريباً.

فشل قمة مجموعة السبع ، فشل الحلول التوافقية

انقلب الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في نهاية الأسبوع على حلفائه الأوروبيين وكندا الذين هددهم بفرض رسوم جمركية كبيرة عليهم، بعد قمة لمجموعة السبع انتهت بالفشل. وكان الوفد الأمريكي والرئيس نفسه وافقوا على وثيقة البيان الختامي التي تتضمن 28 نقطة طرحت لإقرارها عقب مفاوضات شاقة. وبرر دونالد ترامب ضربته هذه التي وجهها إلى حلفاء الولايات المتحدة، بتصريحات أدلى بها رئيس الوزراء الكندي جاستن ترودو الذي يستضيف القمة في المؤتمر الصحافي الختامي. إذ اكد رئيس الوزراء الكندي الذي فرضت واشنطن رسوما جمركية على وارداتها من بلده ومن أوروبا من الألمنيوم والفولاذ، في المؤتمر الصحافي أن هذه الرسوم" مهينة". وكما فعل الاتحاد الأوروبي، أكد ترودو أن إجراءات انتقامية ستتخذ في تموز المقبل.

بعد ساعات، أعلن ترامب الذي أغضبته تصريحات ترودو في تغريدة من الطائرة الرئاسية، انه أمَر ممثليه بسحب الموافقة الأميركية على البيان الختامي للقمة. ووصف ترودو بانه رجل "غير نزيه وضعيف"، مع أنه صرح قبل يوم واحد أن العلاقة الثنائية لم تكن يوما أفضل مما هي عليه اليوم في تاريخ البلدين. ولوح ترامب بفرض رسوم جمركية على السيارات الأوروبية والأجنبية المستوردة الى الولايات المتحدة، وهو قطاع أهم من الألمنيوم والفولاذ الذي طالته الإجراءات الأمريكية. الأمر الذي يعد جرس إنذار مقلق لألمانيا على وجه الخصوص، إذ تتجاوز حصة السيارات الألمانية الفاخرة في السوق الأمريكية 40%.

وكان قادة مجموعة السبع قد غادروا كيبيك / كندا عندما قرر ترامب التراجع عن البيان الختامي للقمة. ولم يدل مكتب ترودو بأي تعليق أولا، مكتفيا بالتذكير بأن رئيس الوزراء الكندي لم يقم في مؤتمره الصحافي سوى بتكرار تصريحات كان قد أدلى بها من قبل.

وبين القضايا الخلافية الأخرى، رفضت مجموعة السبع اقتراح ترامب إعادة روسيا إلى صفوفها التي استبعدت منها في 2014 بسبب ضمها شبه جزيرة القرم، داعية موسكو إلى الكف عن "تقويض الأنظمة الديموقراطية."

(صورة تعلن عن طبيعة التفاوض بين ضفتي الأطلسي)

ـ التجارة العادلة تسمى الآن التجارة الحمقاء

وفي تفاقم الأزمة بين الولايات المتحدة من جهة وكندا والقوى الأوروبية من جهة أخرى بعد سلسلة من التغريدات الجديدة للرئيس ترامب حمل فيه مسؤولية العجز التجاري الأمريكي لشركاء بلاده وعدم "نزاهة" نظام التبادل الحالي. نشر الرئيس الأمريكي ترامب وابلا من التغريدات على تويتر (11 / حزيران) صب فيه غضبه على بعض من أوثق حلفاء واشنطن بحلف شمال الأطلسي بسبب العجز التجاري الأمريكي عقب اجتماع قمة مثير للانقسام لمجموعة السبع في كندا.

وقال ترامب الموجود في سنغافورة لحضور اجتماع مع الزعيم الكوري الشمالي كيم يونغ أون إن "التجارة النزيهة يُطلق عليها الآن التجارة الحمقاء إن لم تكن متبادلة " وأضاف "ليس عدلا بالنسبة للشعب الأمريكي أن يبلغ العجز التجاري 800 مليار دولار". لماذا يتعين علي كرئيس للولايات المتحدة السماح لدول بمواصلة تحقيق فائض تجاري ضخم مثلما هو الحال بالنسبة لهم منذ عقود في الوقت الذي يتعين فيه على مزارعينا وعمالنا ودافعي الضرائب دفع مثل هذا الثمن الباهظ وغير العادل؟."

وانتقد ترامب الدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي لدفعها مبالغ لا تتناسب مع ما تدفعه الولايات المتحدة للحفاظ على هذا التحالف الغربي. وقال في تغريدة "الولايات المتحدة تدفع ما يقرب من كل تكاليف حلف شمال الأطلسي وتحمي كثيرا من نفس تلك الدول التي تسرقنا تجاريا (إنهم لا يدفعون سوى جزء بسيط من هذه التكاليف.."الاتحاد الأوربي لديه فائض يبلغ 151 مليار دولار.. ألا يجب أن يدفع أكثر بكثير للقوات المسلحة. "ألمانيا تدفع 1% من إجمالي الناتج المحلي لحلف شمال الأطلسي في حين ندفع نحو 4% من إجمالي ناتج محلي أكبر بكثير. هل يعتقد أحد أن هذا أمر منطقي؟." وقال "إننا نحمي أوروبا بخسارة مالية ضخمة ثم بعد ذلك نُعامل بشكل غير عادل تجاريا. التغيير قادم."

ـ ميركل عن قمة مجموعة السبع "محبطة"

اعتبرت المستشارة الألمانية ميركل (10 /حزيران) أن إعلان الرئيس الأمريكي ترامب التراجع عن تأييده للبيان الختامي لقمة مجموعة السبع كان أمرا "محبطا إلى حد ما". وتحدثت ميركل في مقابلة في التلفزة الألمانية "هذا قاس، هذا مخيب للآمال هذه المرة، لكنها ليست نهاية" مجموعة السبع. وأضافت تقول: "هذا محبط. وقولُ ذلك كثير بالنسبة لي"، ساخرة من تحفظها المعتاد في التصريحات. وطمأنت ميركل بالقول: "لا أعتقد أنها نهاية العلاقة عبر الأطلسي"، مضيفة أن "إلغاء البيان خطوة حاسمة لكن الولايات المتحدة بلد ديموقراطي". وكان وزير الخارجية الألماني هايكو ماس رد على الرئيس الأميركي قائلا إن تغريداته دمرت "مقدارا هائلا من الثقة."

ـ كندا تنضم إلى الاتحاد الأوروبي في رفع دعوى ضد التعريفات الأمريكية

قدمت كندا دعوى تجارية في منظمة التجارة العالمية ضد التعريفات الأمريكية على الصلب والألومنيوم "غير القانونية"، وأعلنت أنها ستعمل بشكل وثيق مع الاتحاد الأوروبي الذي بدأ قضيته الخاصة ضد قرار الرئيس ترامب .

وقالت مسؤولة كندية في بيان إن "هذه الرسوم الأحادية المفروضة تحت ذريعة خاطئة لحماية الأمن القومي الأمريكي تتعارض مع الالتزامات التجارية الدولية للولايات المتحدة وقواعد منظمة التجارة

العالمية ." وستنسق كندا في الشكوى التي تقدمت بها لمنظمة التجارة العالمية مع الاتحاد الأوروبي الذي تقدم بدوره بشكوى لدى المنظمة. وطالبت كندا بمراجعة الإجراءات الأمريكية بموجب الفصل عشرين من آلية حل النزاعات في معاهدة التبادل التجاري الحر في أمريكا الشمالية "نافتا."

وقالت المسؤولة إن كندا "بصفتها حليفة رئيسة للولايات المتحدة في قيادة الدفاع الجوي لأميركا الشمالية (نوراد) وفي حلف شمال الأطلسي وأكبر مستورد للصلب الأمريكي، تعتبر القيود الأمريكية المفروضة على الصادرات الكندية من الألمنيوم والصلب غير مقبولة على الإطلاق."

وكانت الولايات المتحدة قد فرضت رسوما بنسبة 25 % على واردات الصلب و10% على واردات الألمنيوم من كندا. وردت أوتاوا على الرسوم الأمريكية بفرض رسوم على منتجات أمريكية بقيمة 16,6 مليار دولار كندي (12,8 مليار دولار أمريكي).

لكن ترامب أثار احتمال إبرام اتفاقيات ثنائية مع المكسيك وكندا لتحل محل اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية" نافتا". وقال إنه "لا يمانع" في رؤية نافتا "تحمل اسما مختلفا، حيث نبرم اتفاقية منفصلة مع كندا واتفاقية منفصلة مع المكسيك". وقال ترامب ردا على سؤال حول المحادثات المتوقفة لإعادة التفاوض بشأن اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية: "إنهما بلدان مختلفان للغاية. لقد كانت اتفاقية سيئة بالنسبة للولايات المتحدة منذ اليوم الأول".

29. نيكولو ميكافيلي : مفكر لا يأفل نجمه

د. ضرغام الدباغ

مقدمة

حضي المفكر الإيطالي نيقولو ميكافيلي((Niccolo Machiavelli اهتماماً كبيراً يستحقه (بتقديرنا) قلما حضي به مفكر آخر (من مفكري العصور الوسطى) في كافة أرجاء العالم وفي ثقافات معظم الأمم.

وكنا قد درسنا أعمال هذا المفكر في مراحل دراسية في إطار مباحث الفكر السياسي الحديث، ولكن فهمنا لهذا المفكر يتطور، مع إدراكنا المغزى الحقيقي للأفكار التي أراد ميكافيلي أن يعبر عنها، الدولة أولاً والدولة ثانيا وثالثاً، وفي سبيل الحفاظ على الدولة وهي برأيه قيمة مادية كبيرة جداً، أباح ميكافيلي للسياسي، للأمير(الحاكم) أو حاشيته من رجال السياسة والإدارة، إدارة مصالح الدولة بالوسائل العقلية، وترك المؤثرات العاطفية جانباً، التي نادراً ما لها وزنها المؤثر في تقرير سمت الأحداث والتطورات، لا سيما تلك الخطيرة منها المؤثرة على مصير الدولة، ويسجل له أنه كان من أوائل المفكرين الذين طالبوا بوضوح، إبعاد المؤسسة الدينية عن الحكم، وكانت مثل هذه الأفكار في تلك القرون، لها عواقبها الوخيمة، وليست نادراً ما أفضت إلى أن يدفع المفكر حياته ثمناً لها.

في البدء كان نظام الحكم هو عبارة عن اتحاد تام بين السلطتين: الروحية، الكنيسة (المعبد) والزمنية، القيصر (الملك) الذي يحكم إما وفق نظرية الحق الإلهي (Devine Right) أو شبه إلهي(Quasi Divune)، بل ربما هناك من الحكام من يزعم أنه مخول من الله، أو قد حل به روح الله (Inkarnation). ويستند بذلك على ما شاء له من معطيات عقلية، بعضها حيكت بدرجة عالية من المهارة، تمكنت من عقل فئات كثيرة من المجتمعات. بيد أن مرحلة سطوة المعبد(الكنيسة) أنقضت في مسيرة استغرقت قروناً، مقابل تصاعد وبروز السلطة الزمنية المتمثلة بالملوك والقياصرة والأمراء.

وطيلة قرون هيمن على الدولة تحالف بين المعبد والحكم، في سياسة أطلق عليها اتحاد أو تحالف سلطة السيفين(Glasnias): سيف الكنيسة وسيف الملك. ولم تكن الدولة سوى مطية تؤمن مصالح هاتين المؤسستين، فلا أهمية لمؤسسات الدولة ذات الصلة الوثيقة بمصالح الشعب على المدى القريب والبعيد. وكانت المؤسسة الدينية إن تعرضت للضعف، لأي سبب من الأسباب، فذلك يعني طغيان الملك، أو بالعكس إذا كان بدت سلطة الملك واهنة، تبرز وتطغي سلطة المؤسسة الدينية. وكان هناك عبر التاريخ ولأسباب عديدة، ملوك ضعفاء، مقابل مؤسسة دينية تتفاوت قوتها بين مرجعية وأخرى. ودون ريب فإن الأمر لم يكن يجري باتساق متكامل نهائي، بل كانت التيارات التي تهب في هاتين المؤسستين، هي التي تقرر سياسة الدولة في نهاية المطاف، وهي على الأرجح لا علاقة لها بمصالح الدولة.

وفي سبيل لأبعاد هيمنة المؤسسة الدينية، ناضل العلماء على خطين متوازيين:

الأول: هو رفع مستوى وعي الناس وإشاعة أفكار التحرر والأدب والفن، وقبل كل شيئ، نشر المنجزات العلمية والفلكية والجغرافية، فلا شيئ يدحر الظلام سوى الضياء.

الثاني: هو النضال من أجل تقليص الهيمنة السياسية في الحكم، من خلال إضعاف أواصر الثلاثي المهيمن: المؤسسة الدينية ـ الملوك ـ الإقطاع. وعندما تحقق لهم ذلك، تمكنوا من وضع دساتير وجعل الملكيات مقيدة بالدستور.

وقد جازف فلاسفة ومفكرون، بأرواحهم أحياناً، أن يأخذوا على عاتقهم مهمة طرح الأفكار وإنضاجها، فكانوا رموزاً لعصر النهضة (Renaissance) لتفضي أولاً إلى تقليص، دور المؤسسة الدينية، ومن ثم أضعافها وإبعادها في عصور التنوير لاحقاً، والنضال من أجل حكومات دستورية، توجت بالثورة الفرنسية التي أنهت عصر الملكيات، أو الملكيات المطلقة وجعلتها دستورية مقيدة.

وأفكار ميكافيلي، وهنا لا بد أن نؤشر لميكافيلي رهافة وشدة إحساسه وإدراكه لعمق مغزى الدولة، تلك الأفكار كانت بمثابة حزمة ضوء في تلك القرون، ضوء أنطلق ولا سبيل إلى حبسه بل سيتواصل على يد غيره، وصولاً إلى كروشيوس، توماس مور، قادت إلى عصر التنوير (Enlightenmet)، وعلى يد مفكرين أمثال: سبينوزا، جون لوك، مونتسيكيو، فولتير، كانت، ديدرو، روسو.

وهكذا يمكننا أدراك الدور الكبير الذي قام به ميكافيلي، في تطور الفكر السياسي، بل في تطور مفهوم الدولة، وإذا كان قد قرر التصدي لسلطة المؤسسة الدينية، وكان قد أيقن أن لا تقدم جوهري مع هيمنة الكنيسة، فكان لابد له من أن يتعكز في مهمته على السلطة الزمنية، وسيكون من قلة التبصر لو أنه تصدى للمؤسستين في آن واحد. ولإن خشي ميكافيلي على نفسه من السجن والتصفية، (وهو لم يسلم من ذلك في النهاية)، فالنفس البشرية محتوم لها أن يدب الخوف في قلب بعض الأشخاص، ربما في بعض اشد المعارك ضراوة، أو عند إحساسه بأن السيف قد وصل عنقه، فيكون رد فعله الطبيعي، أن يداري خوفه بمدح هذا الحاكم أو ذاك، وهو ما فعله ميكافيلي وأعاب عليه المؤرخون ذلك.

ليس دفاعاً عن ميكافيلي، فعندما هادن هذا المفكر الكبير الأسر القوية الحاكمة في فلورنسا، كان لابد له أن يلجأ إلى قوة الدولة في التصدي لقوة الكنيسة، ثم أنه كان يأمل أن تتم وحدة بلاده إيطاليا على أيديهم، من جهة، وأعتقد أنه بعمله في دبلوماسية الحكومة، عله سيكون في عمله (وهي رؤية لا تخلو من الصواب) فائدة أكثر من ابتعاده في قرية نائية، لن يكون فيها مؤثراً ولو بقدر بوصة على الأحداث، لا عمل له سوى الكتابة، على أمل أن ينصفه التاريخ يوماً، وهي جملة شهيرة أطلقها تروتسكي قبل أن يلفظ أنفاسه (1940) اغتيالاً في المكسيك: **سوف ينصفنا التاريخ**.

بالطبع هو لم يقل ذلك، ولكني تعمقت في دراسة أعمال ميكافيلي وما كتب عنه، ومطالعاتي الكثيرة عنه، حملتني أن أعدل بعض أرائي عنه، أو قل لعلنا ذقنا لسعة نيران التجربة، فقد أدركت أن ميكافيلي شعر بأهمية الدولة وهو ليس بالفقيه القانوني، ولكنه أدرك أن الدولة جهاز قانوني، ولهذا الجهاز وظيفة هي حماية مصالح الشعب على المدى القريب والبعيد، وهناك وسيلة محترمة للتعبير عن سياسة الدولة وهي: الدبلوماسية، والدبلوماسية ينبغي أن يكون لها جهازها وموظفيها الأكفاء القادرين حقاً على تحقيق مصالح الدولة بالأساليب السياسية، ولا مناص من الاعتراف أن هذا فهم متطور ليس في مقاييس ذلك العصر، بل تصلح حتى لعصرنا الراهن، فغالباً ما يدور الأمر هكذا، أن يربط بعض الحكام ملوك وأمراء، رؤساء، ديكتاتوريين وطغاة، أنظمة لا تقيم وزناً كبيراً لقيمة المواطن وحقوق المواطنة، فمثل هذه الأفكار لن تنال رضا الحكام، أو ليست مفضلة لديهم.

هل نجح ميكافيلي في مساعيه ..؟

نكاد نجزم فنقول أن مساعيه الفكرية كانت باهرة، وليس أدل على ذلك من أن كتبه وآثاره، وبصفة خاصة كتابة (الأمير) يدرس في جامعات العالم كافة، وليس من سياسي محترف(دبلوماسي أو رجل دولة) لم يقرأ هذا الكتاب، بل أن بعضهم يحفظه عن ظهر قلب، وإن انكروا ذلك ..! نعم ناجحة بحيث أن الملوك، والرؤساء لم يعدوا سوى موظفين في الدولة لا يستطيعون مغادرة الفقرة الدستورية التي تمنحهم السلطة قيد أنملة واحدة، والسلطة كل السلطة لممثلي الشعب، ومؤسسات الدولة وفي مقدمتها القضاء.

ولكن من المؤسف حقاً، أن بعض من يقرأ ميكافيلي، لا يذهب أكثر من الحروف المطبوعة أمامه، أي لا يذهب إلى لب الأمر وجوهره، أو يتمسك بالمثاليات، فيتهم حرص ميكافيلي على الدولة بالانتهازية، وخشيته على مصيرها بالنفاق. متجاهلين أن المبدأ الرئيسي عند ميكافيلي **(معمقاً لفكر أرسطو في: الدولة أولاً) هو الحفاظ على الدولة**، والأمير هو رأس الدولة، أعلنها جهاراً نهاراً دون خشية من الكنيسة، وعلى الرغم من أنه كان متديناً، لكن ليس للكنيسة مكان في فكر ميكافيلي، لذلك حاز على سخطها وغضبها.

وأخيراً، عندما أدرك الأمراء أن ولاء ميكافيلي هو للدولة، وللدولة فقط، والمصالح الوطنية، فأستحق النفي والسجن والإبعاد.

نعم هو كان على استعداد أن يعمل تحت من هم أقل منه ذكاء وكفاءة، ولكنه لم يكن ليقبل أن يصبح مهرجاً في البلاط، لذلك تعرض للنفي أولاً، ثم العزل، فمضى إلى المصير الذي كان يحاول أن يتجنبه: النفي إلى قرية نائية ليفرغ للكتابة وليموت بهدوء وهو في سن 51 سنة.

ضرغام الدباغ

مدخل:

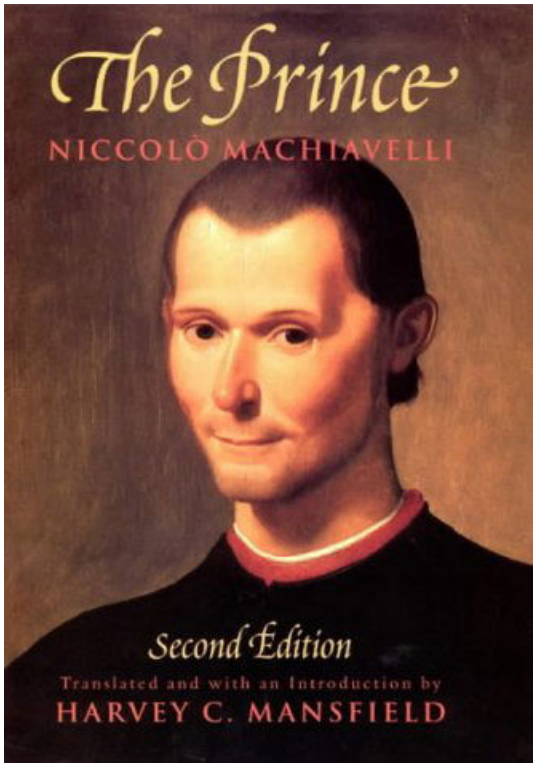

يكولو ميكافيلي (Niccolo 1469 - 1527 Machiavelli) إيطالي، رجل دولة ومؤرخ، إيطالي، ولد في فلورنسا وعاش ما بين عامي – 1469- 1527 لأب كان محامياً متوسط الحال، أشتهر بكتابه الأمير الذي وضعه عام 1532، حصل على وظيفة صغيرة في حكومة فلورنسا، ثم تقدم وتقلب في الوظائف الدبلوماسية ثم أصبح المستشار الثاني للجمهورية.

له خصوم ومعجبين كثيرين، ولكن كتابه (الأمير The Prince) خالد على مر العصور والأزمان، ولم يكن ليدر بخلد نيقولا ميكافيلي، أن كتابه الأمير الذي انتهى من كتابته قبيل وفاته بأربعة عشر سنة في 1532 ميلادية سيصبح أثراً خالداً ومرجعا فكرياً وسياسيا مهما لكل حكومات الدنيا عقب الثورة الصناعية العالمية، وكذلك للحكام وللدبلوماسيين والطلبة والباحثين.

وضع كتاب آخر ولكنه أقل شهرة وأهمية (المطارحات). ميكافيلي وبحسب علماء سياسة كثيرون، أنه أول من وضع الحدود بين علم السياسة وعلم الأخلاق، ولكن جمهرة من المؤرخين يعتبرون أن ميكافيلي انتهازي وأساء للدبلوماسية والسياسة إذ أعتبرها أداة أباح لها استخدام كل شيئ حتى الكذب والدجل من أجل تحقيق مصالح الدولة، واعتبروا، أن شارل مونتسيكيو الفرنسي(1689 - 1755 Chales Montesquieu) يتفوق عليه وإليه يعود الفضل في وضع أسس علم السياسة الحديث والدولة في أثره الهام (روح القوانين).

(الصورة: نيكولو ميكافيلي على غلاف كتابة الشهير: الأمير)

وقد عاش هذا المفكر الكبير حياة لا تعرف الاستقرار، فعندما استولت أسرة مديتشي على الحكم سجن لأنه كان معارضاً لهم، وكان ينظر إليه بريبة، كما أنه عاش فقيراً في أواخر حياته نتيجة غضبة الحكام عليه، ثم نفي، وأخيراً سمح له بأن يحيا حياة التقاعد في الريف قرب فلورنسا وتفرغ للكتابة والتأليف. وهكذا فقد عانى ميكافيلي الكثير من المتاعب رغم أنه كان ينحدر من أسرة دبلوماسية وله قدرات فكرية متميزة، وكان بالإضافة لذلك، وديعا رقيق المشاعر دافق الأحاسيس متوقد الذهن. أما خصومه فيذكرون أن فكر ميكافيلي يبرر لكل فعل من أجل تحقيق النجاح النهائي ..! فقالوا، أن هدفه كان استرضاء العائلة الحاكمة(الميديتشيين) لكنه لم ينجح.

المعجبون به ينكرون إعجابهم في الغالب، بل ينكرون حتى أنهم قرؤوا كتابه ذائع الصيت (الأمير)، ولكنهم يطبقوه حرفياً، وبعضهم لا يتردد القول برصانة أراء ميكافيلي فيثمنها عالياً، ويعتبره رجل دولة حكيم وصارم وضع مصالح الدولة قبل أي اعتبار آخر، وفضلها على مصالح الأمراء والحكام، وأعتبر أن الدفاع عن الدولة هو ما ينبغي أن يشغل بال الأمير ومساعدوه من الحاشية. وهو في الواقع، كان يدعو إلى قيام حكومة إيطالية قوية دون اعتبار لقيم عابرة زائلة، وخصومه يدعون أنه انتهازي، يبحث عن مصالحه الخاصة، يفتقر إلى الأخلاق، إذ يدعو جهاراً إلى تجاهلها.

والحقيقة انه كان يريد أن يرى بلاده التي يحب، موحدة غير مقسمة إلى خمس دول، (ملكيتان، وجمهوريتان، ودولة البابا) يتنازعون من أجل إماراتهم، ويبذلون دماء شعبهم من أجل غاياتهم تلك التي أعتبرها دنيئة، وسواها هو جهد وفكر يصب لصالح البلاد.

كان نموذجا قوميا يحتذي به والدولة القومية التي يطمح إليها ميكافيلي هي نفسها التي اعتبرها هيغل غاية ونهاية للتطور التاريخي وقال عنها (ليس لشعب من الشعوب أن يتحرك إلا داخل نطاقها وليس له أن يحاول تحقيق مصالحه إلا عن طريقها).

كان يعز على ميكافيلي أن يشاهد أن يري بلاده وريثة الأمجاد الرومانية العريقة علي هذا النحو من التفكك والانهيار لا لشيء سوي لإرضاء نزوات الأمراء المتصارعين والدماء هي دائماً إيطالية، تلك المشاعر كانت الملهمة له أن يكتب نصائحه وأفكاره مستشفا فهمه لحركة التاريخ (وفق قاموس عصره) وضمنها في أعماله ولا سيما أثره الهام (الأمير) وهو في الحقيقة كان يخاطب أحلامه التي في أن يجد الأمير (النظام) القادر على توحيد إيطاليا.

وعلى عكس الأفكار الشائعة عن ميكافيلي، فقد كان لا يحترم الأمراء الذين يسعون لمجد إماراتهم التي هي دون الوطن عروش زائلة، وتلك هي الأخلاق الحميدة، تلك التي تصب لخير ومصلحة الوطن.

وبتقديرنا أن ميكافيلي قد شهد من الأحداث الدامية وتشتت إيطاليا إلى إمارات ودوقيات، وهذا ما دفعه القول: أن لا بد من الحفاظ على الدولة، بصرف النظر عن الأساليب، وعبر عن ذلك بجملة بليغة: **ليست المحافظة على الدول بالكلام ...!**

اشهر مؤلفاته:

1. كتاب الأمير (1532):
2. كتاب المطارحات: وهو اكبر من كتاب الأمير.
3. كتاب فن الحرب.
4. كتاب في تاريخ فلورنسا.

عصر النهضة مقدمة التنوير

في عمل بحثي مهم، قام بتأليفه الباحث تيودور. راب (Theodor, Rab) المختص بعصر النهضة الأوروبية. نجح الباحث بتقديم عمل ممتاز عن تلك المرحلة الهامة ليس في تاريخ أوربا فحسب، بل والحضارة العالمية على حد السواء.(1)

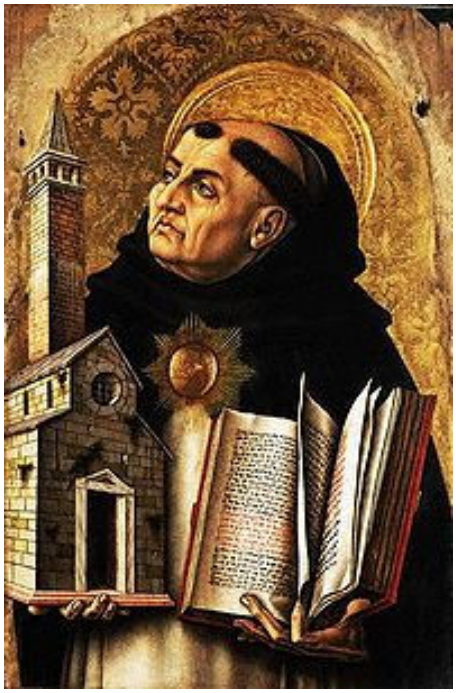

من الضروري إدراك، وقد حاولنا الإشارة لذلك في باقتضاب في المقدمة، إن عصر النهضة يعني قبل كل شيئ نهاية مسيرة طويلة قطعها الفكر الأوربي في محاولات لم تتوقف في التجسير بين الفلسفة المزدهرة في أوربا قبل أن تفد المسيحية إليها بما لا يقل عن 600 عام، محاولة تكييف الفلسفة لصالح الدين أو بالعكس (Adaptation) ومن بين هذه المحاولات واشهرها السكولاستية (Schoolstic)، تلك التي صادفت بعض من الاهتمام على يد القس توما الأكويني 1225ــ 1274 (Tommasso d, Aquino).

(الصورة: توما الاكويني)

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان التقدم الاقتصادي الذي قاد بتراكماته إلى تشكيلات جديدة سياسية / اجتماعية. لا سيما أن السكولاستية كانت انتهت رغم أن الأكويني منحها الكثير، انتهت حيث لم تستطع الحركة أن تواكب أو أن تستوعب حجم الآمال الناهضة المتطلعة إلى الأمام، وبعدها كانت رصاصة الرحمة على ما عرف بسياسة تأييد سلطة البابا(Ultramontis) وعهد الهيمنة الكنسية من خلال الحركة التي قام بها القس الألماني مارتن لوثر، والقس الروسي كوسوي.

وكان هناك من بين مفكري عصر النهضة من يحمل على عصور هيمنة الكنيسة المسيحية لأنها قضت على الفلسفة الإغريقية، ولم تقدم البديل عنها، فمرت أوربا بعصور بربرية، ظلامية. وأن هؤلاء المفكرين كانوا يشعرون بأنهم يولدون من جديد بعد أن خرجوا من ظلاميات الكهنة المسيحيين واكتشفوا آداب الإغريق والرومان وفلسفتهم. وهي آداب كانت القرون الوسطى قد طمستها كلياً تقريباً بحجة أنها وثنية، مادية إلحادية.

أزمة لم تجد طريقها للحل: هي إيجاد سبل التوافق بين الدين والفلسفة. صراع لم يهدأ مطلقاً ولم تنجح محاولات الكنسيين المتنورين من ردم الهوة وحل الإشكالية التي ما برحت تطرح نفسها هكذا:

يتعارض اللاهوت مع البحث العلمي في:

*** يقر العلم أن لاشيء يخلق من لا شيء، فيما يقبل الدين بوجود الخالق سبحانه، من لا شيء.**

*** يقر العلم أن مناقشة كل شيء وأية موضوعة ممكنة، فيما لا يقبل اللاهوت مناقشة وجود الخالق.**

*** السياسة كعلم تتعامل مع الحياة الواقعية ونتائجها الملموسة، بينما المؤسسة الدينية تهدف لحث الناس على الفوز بالجنة.**

ومن الواضح أن ميكافيلي قد أنحاز للعلم والفلسفة في موقفه حيال الكنيسة.

وعندئذ ظهر مصطلح الدراسات الإنسانية معارضة لها بالدراسات اللاهوتية. والدينية المسيحية. وكان المقصود بها الدراسات المتركزة على كبار أدباء وشعراء وفلاسفة العصور القديمة السابقة على المسيحية: كهوميروس، وأفلاطون، وأرسطو، وفرجيل، وشيشرون وعشرات غيرهم.

تلك أفكار وأعمال كانت معروفة منذ القدم في أوربا ولكنها كانت مهملة في العصور الوسطى لأنهم وثنيون، تجرأ مفكرو عصر النهضة واهتموا بهم وجعلوا من اكتشافهم ودراستهم اكبر وتحديث معارفهم والتأسيس فوقها، رسالة لهم في الحياة. ولذلك كان فلاسفة عصر النهضة يشعرون بحق أنهم يطلقون مرحلة جديدة في التاريخ.

ويكتب تيودور راب قائلاً: بعض المؤرخين احتجوا مؤخراً على هذه النظرة التبسيطية للأمور. وقالوا بما معناه: لا يمكن الزعم بان العصور الوسطى كانت ظلامية كلها. فالواقع انه وجد آنذاك بعض المفكرين الكبار المستنيرين بضوء العقل. واكبر دليل على ذلك فلاسفة العرب من أمثال الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن الطفيل، وبن رشد، وابن باجة، وابن عربي، والعربي، وأبي بكر الرازي، الخ.. وكلهم عاشوا في العصور الوسطى بحسب التقسيم الأوروبي لتاريخ الفكر.

ومعلوم أن هذا التقسيم يتحدث عن ثلاثة عصور أساسية: العصور القديمة اليونانية الرومانية (القرن الخامس قبل الميلاد وحتى القرن الخامس بعد الميلاد). العصور الوسطى من عام 500 ميلادية إلى عام 1500 تقريباً. العصور الحديثة من عام 1500 وحتى اليوم.

وبما أن كل فلاسفة العرب المذكورين عاشوا قبل عام 1500 بل وحتى قبل عام 1200 فإن هذا يعني أنهم كلهم ينتمون إلى مرحلة العصور الوسطى. فهل يمكن القول بأنهم كانوا ظلاميين متخلفين أو متعصبين كما توحي به هذه الصورة التبسيطية ؟ بالطبع كلا.

فهم لم يهملوا دراسة الفلسفة اليونانية، على العكس، ولم يهملوا العلم والعقل، على العكس تماماً. وقس على ذلك بعض الفلاسفة المسيحيين الذين ظهروا في أوروبا بعد أن ترجموا أعمالهم وبنوا عليها، فمن المعروف على نطاق واسع، أن أبن رشد هو من عرف الأوربيين على أرسطو، في شرح أعماله، بل وتأسست جامعة في إيطاليا (جامعة بادوفا Badova) للفكر الأرسطوي.

إذن لا يمكن وصف العصور الوسطى بالظلامية بصفة مطلقة، وإنما كانت فيها بعض المنارات، وبقع الضوء. ولكنها بشكل عام لم تكن مستنيرة. فاستنارة بعض العباقرة لا يعني استنارة عموم الشعب. ولكن عودة مفكري عصر النهضة إلى الماضي البعيد، وإلى فلاسفة اليونان والرومان وأدبائهم لا تعني مجرد العودة إلى الوراء ونسيان، الحاضر والمستقبل. فالواقع أنها كانت عودة من أجل التأسيس على ما وضعه الفلاسفة الأولون، فهي بهذا المعنى عودة لتغيير الحاضر أو لتجديد الحياة الحاضرة بكل جوانبها، وفي مقدمة ذلك إعادة ترتيب التحالفات والأصطفافات الاجتماعية / السياسية، وليس فقط فض العلاقة بين المؤسسة الدينية عن مؤسسة الحكم، بل وإنهاء أي دور سياسي مفترض للكنيسة، وهو سيكون مفتاح للتطورات اللاحقة في أوربا، وهنا يكمن جوهر عصر النهضة وحداثته.

والواقع إن التحولات الفكرية التي حصلت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في أوروبا كانت قد سبقتها ثلاث حركات مهدت لعصر النهضة:

الأولى: حركة السولاستية التي اعترفت بأهمية التنوير، ولكنها لم يكن بوسعها أن تستوعب تيارات المستقبل.

الثانية: حركة الإصلاح الديني الذي حصل في النصف الأول من القرن السادس عشر على يد مارتن لوثر، وأقل منها حركة كوسوي في روسيا.

الثالثة: حركة إنسانية نهضوية، تمثلت بانتعاش الآداب القديمة، والفنون، وميل جارف نحو الثقافة والمنجزات العلمية، ومن تلك: الاكتشافات العلمية كوبرنيكوس وغاليلو (1564 - 1642) الذي شكل الأسس الراسخة للعلم الحديث، الفيزياء والفلك والرياضيات وغيرهما، وكانت أولى المؤشرات على ظهور عهد جديد للفكر والسلوك انبثقت في ايطاليا منذ نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر. ويمكن أن نضيف إليها الاكتشافات الجغرافية وتحسن الأوضاع الاقتصادية.

وبحق يعتبر نقولا ميكافيلي (1469 - 1527) من شهراء عصر النهضة ومن أبرز علاماتها، والذي اشتهر بكتاب: الأمير وهو (برأي الكثيرين من المؤرخين)الذي أسس علم السياسة بالمعنى الحديث للكلمة(أو كانت مساهمته حاسمة). إذ أسس الواقعية السياسية التي خلع اسمه عليها فأصبحت تدعى بالميكافيلية، ولكن الكلمة اتخذت معنى سلبيا في الاستخدام الشائع لأنك عندما تقول عن شخص بأنه ميكافيلي فكأنك تقول بأنه وصولي، انتهازي. ولكن هذا يفتقر في الواقع إلى الدقة، أو بالأحرى ليس كاملاً لأن نظرية ميكافيلي عن السياسة أوسع من ذلك وأكثر تعقيداً، وبرأينا أن مساهمة ميكافيلي في تطور علم السياسة هي مساهمة حاسمة، وهي أبعد من قبول أو السخط على أفكاره، ليس بسبب فصله لعلم السياسة عن علم الأخلاق، وإنما لأنه كرس مصالح الدولة في المقام الأول، والحفاظ على مصالحها، تلكم هي النظرية الحقيقية في أفكار ميكافيلي.

ومن كبار فلاسفة عصر النهضة أيضاً، الذي مهددا للحداثة يمكن أن نذكر جيوردانو برونو (1548 - 1600) الذي انتهى نهاية مأساوية. فقد أدانته محاكم التفتيش بالهرطقة وحكمت عليه بالموت حرقاً، لأنه

شكك ببعض العقائد المسيحية ولأنه تبنى النظرة العلمية للعالم والكون، وكان أكبر فيلسوف إيطالي في عصره. كان هذا المفكر يقول بأن معرفة الكون هي هدف الحياة الفلسفية. وكان يقول أيضا بأن هذه **المعرفة غير ممكنة إلا عن طريق العقل والتجربة العملية المحسوسة**. لهذا السبب اعتبره هيغل احد مؤسسي الفلسفة الحديثة ثم انتقلت النهضة الفلسفية إلى خارج ايطاليا: أي إلى البلدان الأوروبية الأخرى.

29. عصر ميكافيلي

برز مفكر مهم لصالح السلطة الزمنية هو جون باريس (John Paris 1255-1306) الذي كتب " إن الكنيسة تتطلب انتشارا عالمياً لا تتطلبه السلطة السياسية، وأن المجتمع المدني ينشأ بوحي من غريزة طبيعية، مع اختلاف الناس في الميول والمصالح، وأن التقسيم السياسي الطبيعي، هو تقسيم العالم إلى أقاليم وممالك ". كما قال "إن السلطة الروحية تملك فقط حق الحرمان من رحمة الكنيسة الأمر الذي لا يترتب عليه أية نتائج مادية، أما سلطة القمع فمن حق الدولة(السلطة الزمنية)" .

أما حول حصانة البابا، فقد قال جون باريس " صحيح ليس هناك قانون يعاقب البابا، ولكنه إذا أثار الفتنة ولم يكف عن ذلك، فأنه يجب تحريض الكنيسة أن تتخذ الإجراءات ضد البابا، وعلى الأمير أن يدرأ عدوان سيف البابا بسيفه هو، في حدود القانون، وهو إذ يفعل ذلك إنما يدفع عدوان ذلك الذي أصبح عدواً له وللمجتمع".(2)

كانت هذه بدايات أن يفقد المرجع الأعظم قدسيته وهيبته، عندما يعلن مفكرين أن المرجع الأعظم بشراً وأنه يمكن أن يخطأ، وبعض الخطأ ينبغي محاسبته وربما معاقبته. وكان ذلك مساراً تاريخياً ينذر بانقشاع عهد الظلمات. ولا شك أن كتابات جون باريس التي نشرها عام1303 وغيره على هذا النحو الصريح من الإدانة لهيمنة البابوية والكنيسة على المجتمع والدولة بانحيازه التام للدولة بقوله:" أن السلطة الزمنية هي أقدم في التاريخ من الكهنوتية وليست اشتقاقا منها". كانت أفكار كهذه قد فعلت أثرها العميق ليس في أوساط المثقفين والمفكرين، بل بصفة عامة لدى الشعب. ومنذ القرن الرابع عشر كانت السكولاستية قد بدأت تفلس وتتلاشى كتيار وتفقد بريقها وسرعان ما ستخبو. وكانت مكانة الكنيسة في تراجع لا محال، ولكن ذلك كان يدور بوتائر متفاوتة في الأقطار الأوربية. وبينما كانت الكنيسة ما تزال تتمتع بالنفوذ القوي في إيطاليا، كانت تتعرض للضعف في ألمانيا وبريطانيا وحتى فرنسا.

في هذه الظروف وجد رجل سياسي سيكتب على يده تطور مهم في الفكر السياسي، أما قيمة أعماله وأفكاره فستكون موضع جدل حتى يومنا هذا، وهو نيقولا ميكافيلي 1469 - 1527 وكان لإسهاماته الفكرية (وضع كتابين: الأول/ الأمير، الثاني/ المطارحات) أثر مهم في تطور الفكر السياسي من جهة، والدولة الوضعية من جهة أخرى.

قلنا في جميع مباحثنا أن المفكر السياسي هو أبن عصره، لذلك فإن كتابات ميكافيلي تنطوي على شحنة عداء للكنيسة، فالأمور ترتبط ببعضها جدلياً، هناك أتفاق ظاهر أو كامن بين الكنيسة والملك، يتقاسمان السلطة بموجبها وبالطبع الأمتيازات وهناك نظرية سادت في تلك القرون، تقضي بتحالف السلطتين، الروحية والزمنية، أطلق عليها اتحاد السيفين (Glasnias)، لذلك كان من مصالحة الكنيسة أن لا يتحالف الأمراء، وبالأحرى أن لا يتحدوا، لأن في اتحادهم قوة وإضعاف لسلطة المؤسسة الدينية وبالتالي لمزاياها ومكاسبها. وهو ما جعل ميكافيلي يدرك أن الكنيسة تقف ضد الوحدة القومية الإيطالية، وأن تمزق إيطاليا

إلى كيانات سياسية عديدة سيجعلها ألعوبة في أيدي الدول القوية المجاورة(فرنسا ـ ألمانيا) بالإضافة إلى المنازعات والمشاحنات التي لا نهاية لها بين الأمراء الإيطاليين أنفسهم.

وفي العصور المتأخرة عندما بدأت سلطة الإمبراطورية تذوي في إيطاليا، أخذت البابوية تتسع في سلطاتها الزمنية، كانت إيطاليا مجزأة إلى عدد كبير من الدول، وهبت مدن كثيرة نثور على نبلائها الذين كانوا يستمدون سلطتهم من الإمبراطور، وأخذت الكنيسة تشجع هذه المدن الثائرة (الاتجاهات التقسيمية) رغبة منها توسيع سلطاتها الزمنية، وهكذا حتى سقطت إيطاليا في أيدي الكنيسة.(3)

وقد سبب موقف ميكافيلي هذا السخط عليه من قبل الكنيسة، وعن ذلك يكتب جان جاك روسو هامشاً في كتابه المهم للغاية (العقد الاجتماعي) عن ميكافيلي وكتاب الأمير " إنه كتاب الجمهوريين، لقد حرمت الكنيسة البابوية تداول هذا الكتاب تحريماً قاطعاً، ولست أعجب من ذلك، فأنة أوضح تصوير لفسادها (الكنيسة) كان تصوره هو".(4)

ولا يمكن اختصار أفكار ميكافيلي بسهولة، فلن يغني شيئاً عن دراسة مؤلفاته وبدقة، إلا أنه ينطوي على مبادئ حكم تتركز في البحث عن الدولة وعن أهميتها، وإن كان ميكافيلي لا يقيم أهمية كبيرة لمؤسسات الدولة، فهو لا يأتي إلا مرة واحدة على ذكر البرلمان عندما يمتدح النظام الفرنسي ومؤسسات الحكم فيه.(5)

ويركز ميكافيلي اهتمامه بالأمير(الحكام)، بل يكاد لا يهتم بشيء سواه، لأنه كان يرى في الكنيسة العائق الأكبر أمام حرية الفكر، فيقدم إليه النصائح في إدارة الدولة وفي علاقاته بالشعب أو بالدول الأخرى. ولكن بعض من نصائحه لا تخلو من الطرافة: فهو يعتقد أن على الأمير أن يشغل وقته بالصيد..! وهي نصيحة لم تكن حصافة ورزانة العالم العربي الماوردي لتطرحها، كما لا تخلو أيضاً بعض من نصائح ميكافيلي من التناقضات، فتارة يصفه الشعب بالرعاع (لا شك أنه كان يعني الغوغاء منهم، ولربما كانت تلك سمة عامة) وإن لا أهمية لهم (لاحظ صفحات: 147 / 144 الأمير) ثم يعود ويعتقد إن على الأمير أن يحوز على محبة شعبه.(6)

بيد أن هناك ملاحظة مهمة، بني عليها كثير من المؤرخين وعلماء السياسة أرائهم وأحكامهم، بأن ميكافيلي هو مؤسس علم السياسة الحديث. وبوصفه عزل الأخلاق عن علم السياسة عزلاً واضحاً، وقد كان حقاً في آراؤه تلك يمثل خروجاً غريباً عن المألوف في عصره، فقد أباح كافة الوسائل من أجل الوصول إلى غايات الأمير بما في ذلك ارتكاب ما يراه الآخرون رذائل، وأن لا يكترث حتى للتشهير إذا كانت تؤدي إلى زيادة ما يشعر الإنسان من طمأنينة ومصلحة الدولة.(7)

وما يهمنا هنا عرضه، أن أراء ميكافيلي لا سيما تلك التي كانت موجهة ضد الكنيسة وتسببها في تجزئة إيطاليا، كانت تنطوي على جرأة وعلى إشارة وإن بدت غير واضحة تماماً إلى بزوغ فجر الدولة القومية.

ويختصر موسولوني(حاكم وديكتاتور إيطاليا منذ العشرينات حتى 1945) في مقدمة رائعة رأيه في ميكافيلي " تشاؤم ميكافيلي العنيف فيما يختص بالطبيعة البشرية، أنه يحتقر البشر" وقوله " التعارض في فكر ميكافيلي بين الحاكم والشعب، بين الدولة والفرد تعارض محتوم. وهذا ما أطلقت عليه تسمية النفعية البراغماتية، وعند ميكافيلي الأمير هو الدولة".(8)

وكانت أعمال ميكافيلي ومن هو على شاكلته ممن وجهوا النقد إلى الكنيسة أو سلطتها ضمناً أو جهاراً، كانت إشارة إلى تراجع مكانة الكنيسة ودورها. ولكن ما يسمى حق الكنيسة بالتدخل في الشؤون الروحية

دون أن تكون هناك حدود واضحة بين القضايا الدينية والدنيوية، حولت الأمر مع تقدم الزمن إلى صدام دائم أو مشروع دائم بين الكنيسة والسلطة الزمنية، وحتى بين الكنيسة والناس. فالقضايا الفكرية ذات الطابع التحرري ابتدأت تطرح في الأوساط الثقافية والاجتماعية بجرأة أكثر من القرن العاشر أو الحادي عشر أو حتى الثالث عشر. ولكن بعد القرن الرابع عشر غدت معرفة حدود وسلطات وصلاحيات السلطة الروحية مطلباً عاماً، كما أن الشعوب كانت تريد معرفة حدود السلطات الزمنية.

وعلى هذا الطريق كانت ثلاث محطات مهمة:

* النزاع الذي قام بين البابوية ومملكة فرنسا والذي أستمر من عام 1297 إلى سنة 1303 بلغت فيها نظرية الإمبراطورية البابوية أوجها (لاحظ أن مركز البابا لما يزل قوياً بعد).

* النزاع بين البابا جون الثاني والعشرين، مع الأمير لويس البافاري بعد النزاع الأول بخمسة وعشرين عاماً 1328، تبلورت فيها المعارضة ضد سيطرة البابا ولعب فيها المفكر الديني البريطاني وليم أكام William Ockham 1285 - 1347دوراً قيادياً، ولكن نتائج هذا النزاع لم يكن هذه المرة لصالح البابا، بل حدت من سلطة الكنيسة، ولكن مؤسسة الكنيسة نفسها ظلت سليمة.

* النزاع الثالث حدث داخل الكنيسة نفسها، نجم عنه انشقاق مهم بسبب قضايا نظرية بالدرجة الأولى(صكوك الغفران) والمهم في هذا الدور أن النزاع لم يعد بين السلطة المدنية والروحية، بل ضمن المؤسسة الدينية نفسها. ومن النتائج المهمة لهذه النزاعات التي استغرقت ربما قرناً من الزمن وأن المؤسسة الدينية بقيادة البابا حاولت استعادة دورها القيادي وهيمنتها على الحكم الزمني، ولكن تلك الجهود باءت بالفشل والهزيمة، بل وأسفرت أيضا عن ناتج آخر هو ظهور العاطفة القومية كقوة جديدة في السياسة الأوربية.(9)

ولم يكن ميكافيلي المفكر الوحيد الذي أعلن موقفاً سلبياً من الكنيسة، بل أن طائفة من الفلاسفة والمفكرين كانت لهم مواقفهم المتفاوتة في الحدة من الكنيسة وأطلق عليهم "النقاد" ومنهم ميكافيلي الذي وصفه خصومه بأنه " اشهر أتباع الوثنية في عصره " وكان هناك أيضاً بيتر دي لارمي 1515(– 1572، وكانت المؤسسة الدينية قد وصمت كتابين من تأليفه يفند فيها مذاهب الكنيسة الفلسفية في تحوير الأرسطوطالية، ووصف المؤلف بأنه " عدو الدين والأمن العام " وكذلك برنو نيو تليزيو (1508 - 1588) وجيوردانو برونو (1548 - 1600) الذي أعدم حرقاً بسبب آراؤه العلمية المناهضة لمفاهيم الكنيسة وكذلك تومازو كمبانيلا (1568 - 1625) وهو راهب دومنيكاني قال باستحالة التوفيق بين الفلسفة والكنيسة، فأتهم بالمروق عن الدين والتآمر على الدولة، فسجن وعذب في إيطاليا سبع وعشرين عاماً.

ولكمبانيلا أراء في السياسة منها " أن السياسة يجب أن تخضع للأخلاق والدين معاً وتصدر عنهما. فهي ليست علماً أو فناً مستقلاً كما يريد ذلك ميكافيلي بمذهبه أن يؤكد. السياسة قائمة على المحبة، ويا حبذا لو ألغت الإنسانية جمعاء إمبراطورية يديرها مجلس الملوك بإرشاد البابا، فيتولى الحكم فيها أهل العلم النظري والعملي وتزول سلطة القضاء الكنسي(الأكليروس) وتزول الملكية الخاصة وينتفي الظلم والفقر. ومتى كان العمل مفروضاً على كل مواطن وموزعاً تبعاً للكفاية، فيكاد المواطن لا يعمل أربعة ساعات من اليوم ..! (10)

وينظم إلى القائمة من العلماء وإن كانت أعمالهم لا تمس مباشرة الموضوعات الدينية اللاهوتية والسياسية، إلا أن نتائج أعمالهم كانت تكرس العلم ومعطياته ونتائجه وبالتالي قوانينه، وتدين الفكر الغيبي واتجاهاته، لذلك كانت موضع استفزاز الكنيسة لأنها تمس بصورة مباشرة أو غير مباشرة اللاهوت، ومن بين هؤلاء:

- ليوناردو دافنشي : 1452 - 1519، إيطالي
- نقولا كوبرنيك : 1473 - 1543، بولوني / ألماني
- لويس فيغس : 1492 - 1540، أسباني
- كبـــلر : 1571 - 1630، ألماني
- غاليلو غاليلي : 1564 - 1642، إيطالي

وقد توالت الكتابات والأعمال من مفكرين وفلاسفة وعلماء الفلك أو مخترعين بالإضافة إلى الفلاسفة والسياسيين منهم بصفة خاصة. فقد اشتدت المطالبة على نطاق واسع(وإن كانت الكنيسة لما تزل تبذل مقاومة ضارية) بهدف الحد من سلطات الكنيسة" فقد اشتد النزاع خلال القرن الذي تلا ظهور كتابات وليام أكام (القرن الخامس عشر حول سلطة البابا المطلقة في الكنيسة" وكان النظام المدني (الملك) مدين لكتاب ومفكرين من طراز وليام أكام، وكذلك لأهمية المسألة القريبة(وسو يشتد ذلك في المراحل المقبلة) ولكن أيضا حول مسائل عامة مثل حق التملك وفرض الضرائب البابوية.(11)

أهم المحطات في فكر ميكافيلي

هناك جمل من كتابات ميكافيلي، في المراجع والتي تتداول في الأعمال، لا يكاد يفهم من سياقها ماذا يريد ميكافيلي قوله ..! ولكن هناك أيضاً جمل ذاع صيتها، وبالمقابل فإن بعض الجمل القصيرة، لها مؤشراتها في يومنا هذا.

وقد نشرت مجلة فوكوس الألمانية الواسعة الانتشار، بعض من تلك النصوص والجمل، قامت المستشارة في فوكوس كرستينا باور - يلينكا (Christine Baur- Jelinek) بالتعاون مع فريق فوكوس بجمع بعض من هذه النصوص المهمة وسوف نقوم بعصرنة (Modernization) النصوص الميكافيلية، ونمنحها بعداً يتفق مع الموقف في العلاقات الدولية المعاصرة. (12)

1. " الواجب الأساسي لأي أمير هو: أن يحمي نفسه من الكراهية أو قلة الاحترام ".

يحث ميكافيلي الأمير (الحاكم) على خلق إطار من الاحترام له ولمنصبه، وأن يقاوم الجهات أو الأشخاص الذين يحاولون ألحاق الضرر بمؤسسة الحكم. ولكن ميكافيلي لم يقل كما عبر عن ذلك سقراط وأفلاطون بصراحة تامة، أن على الدولة والأمير احترام القوانين ومنا ستكتسب الدولة والأمير (الحاكم)احترام المواطنين.

2. " الغرض (الهدف) يبرر الواسطة ".

هذا النص لم يقله ميكافيلي أبداً، والأرجح أن المؤرخين والنقاد وضعوا هذا النص كإجمالي لأفكار ميكافيلي، لتقارب هذا النص في فحواه مع مجمل آراءه. ومن ثم فإن هذه المقولة تخدم البعض ممن يريدها كمبرر وآلة يستخدمها من يريد الحفاظ على حكمه بأي ثمن. وعلى كل حال فإن ميكافيلي كان يتقلب في كتاباته ضد الحكام، ولكن عندما يدور الأمر بصفة الحاكم كشخصية، فتحتل المصلحة العامة وبصفة دائمة

في المقدمة متغلبة على الاهتمامات والمصالح الفردية للحكام، فالأمر هكذا، أي أخلاقيات تكمن وراء الأمر، إن كانت حيل، أو أساليب غير متعارف عليها، أو باستخدام أساليب غير شريفة. من أجل الاحتفاظ بالسلطة من أجل أغراض شخصية أم من أجل المصلحة العامة.

3. " على الأمير أن لا يظهر نيته أبداً، بل عليه قبل ذلك أن يحاول بكل الوسائل بلوغ هدفه ".

تصب هذه المقولة في نظرية اقتصاد القوة. وهي من تدابير الحنكة في إدارة الأزمات السياسية واحتمالات تصاعدها. يجب أن يبقى سقف القرار السياسي أمراً مجهولاً حتى للعناصر العاملة في الإدارة، وبتقديرنا، فإن الأمير الحديث ليس عليه أن يضع سقف الموقف في المراحل التمهيدية للأزمة، بل أن توارد المعطيات حتى أكثرها حداثة قد تمنح صورة الموقف بعداً جديداً يستحق أن يدخل في عداد عناصر الموقف العام كمعطى يستحق الانتباه والاعتبار، وعلى كل حال بتقديرنا أن هذه من الموضوعات الحساسة في قضايا اتخاذ القرار السياسي، ولها علاقة بالسجال الاستراتيجي، حيث ينبغي دراسة المعطيات المؤثرة على القرار السياسي دراسة وافية نزيهة بعيدة كل البعد عن أحكام الهوى، ومنح المعطيات قيماً رياضية من أجل التوصل لأدق القرارات وأكثرها صواباً.

4. " إن كنت قوياً، إذن أبدأ معركتك هناك حيث تتمتع بالقوة، حيث بوسعك أن تحتمل الهزيمة "

فيما يتعلق الأمر بالعمل السياسي المعاصر: الجزء الأول نصيحة جيدة للمفاوض أو حين مباشرة الفعاليات العملية، فمن المفضل إدارة المحادثات أو العمليات، في اتجاه قطاع أو حقل معين، حيث بوسعه تسجيل النقاط لصالحه، وعندما يجد المرء نفسه في موقف ضعيف، عليه أولاً أن يشخص ويعالج نقاط ضعفه. ففي المعركة ينبغي الاقتصاد في القوى، ومن ثم فقط عليه أن يزج في المساجلة، تلك العناصر التي إن خسرها فبوسعه تعويضها بسهولة، ولا تؤثر على مفردات الموقف العام وحيث بوسعه تقبل الأمر بسهولة تامة أو نسبية.

5. " قم بإبادة عدوك بصفة نهائية "

يوجه ميكافيلي النصيحة للأمير، بقوله: إن بعض من يسعى صنع سيرة لامعة يحاول بإصرار، إزاحة منافسيه عن طريقه بأسلوب المكائد والدسائس. وهذا على أية حال فهذا أسلوب الغوغاء ومن ينتهج أساليب غوغاء، يحط من قدره، ويضعف بذلك موقفه. ومن الأفضل بدرجة كبيرة، هو أن يجهز على خصومه، سياسياً، أو إذا كان بمقدوره أن يسحق في الميدان فعليه أن لا يتردد وينهي هذه الصفحة لكي يتسنى له التفرغ لمعالجة صفحة أخرى.

إن سحق العدو أو الخصم في العلاقات الدولية المعاصرة، هو أمر لابد أن يؤخذ في الحسبان القانون الدولي والرأي العام الدولي، وكذلك المنظمات الدولية التي تمنح العلاقات الدولية المعاصرة صفة قانونية وفي مقدمة تلك: منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن المنبثق عنها.

ولكن إبادة العدو قد تعني نزع قدرة التفوق لديه، سياسياً واقتصادياً، وإعلامياً، ونزع التفوق يعني منح قضيتك الغايات المسببة لها (Motivationn) وينبغي أن تحاول أن تجعلها أهداف شرعية في تقديرات القوى المؤثرة، وإحاطة القضية بحلفاء لهم مصلحة في نجاح هدفك، واستخدام كل السبل المفضية إلى هذه النتيجة، والمناورة بمعطيات الموقف، وقد يكون هامش المناورة محدود، لذلك على القيادات السياسية الانتباه لردود الأفعال المؤكدة والمحتملة.

6. " يجب استخدام كل وسائل القوة دفعة واحدة، إذ سيكون لها فيما بعد، تأثير أقل، بل وربما ستنسى، أما الأعمال الطيبة تستخدم تدريجياً وفقط بعد تحقيق التفوق، وبذلك ستنال التقدير ".

هذه استراتيجية عمل مهمة في السلم والحرب، وحتى في الإدارة. وهي تنصح الأمير (الحاكم ـ المفاوض) أن يستخدم قوته مرة واحدة للإجهاز على المقابل، فاستخدامها التدريجي قد يعرضها للإبادة التدريجية، وفي المفاوضات من أجل خلق موقف قوي لا يملك المقابل سوى التراجع وتقديم التنازلات، أما في الإدارة، فأستخدم صلاحياتك كلها عاقب المخالف والمقصر، وكافأ المجد في العمل والإنجاز.

7. " ليس بوسع المرء تفادي المعركة، إذا كان العدو يسعى لها بإصرار ".

لن يسعى للمعركة من لا يجد ضرورة قصوى في ذلك، أو عندما يكون ذلك هو الحل الأوحد، ولكن موقف المقابل هام ومؤثر، وإذا شعر الأمير أن المقابل قد وضع المعركة نصب عينية لا محالة ولا يلوح بصيص تراجع، آنذاك تصبح المعركة أمراً محتوماً، وعلى الأمير أن يضع كل قواه في استقبال الأخطار القادمة تحسباً ووقاية.

إعلان الحرب يمكن أن يحدث: عندما يتجاوز أحد الأطراف نقطة يعتبرها الطرف الآخر أنها ماسة بشكل خطير بمقومات أمنه، ومن شأنها أن تزعزع أسس وكيان الدولة. ردود الفعل لا ينبغي لها أن تؤسس على الغضب، في مثل هذه المواقف، بل ينبغي أن تكون ردود الأفعال هادئة ولا تدل على التشنج، الرد بهدوء ولكنه رد يضرب بقوة وبصورة منهجية (على أهداف محددة) الاستراتيجية الجيدة يمكن أن تغطي نقاط الضعف، وربما أن تحيلها إلى قوة، وتنفع في إطار التحالفات التي يمكن أن تحدث في هذه الحالات.

هناك بعض الدول تعلن بوضوح عقيدتها السياسية / العسكرية (Military Doctorine) الخطوط الحمراء التي بتجاوزها، يتعرض السلم لمخاطر جدية، وهي على الأرجح تلك الفقرات التي تشكل مخاطر جسيمة للأمن القومي.

8. " في الحرب يحتاج المرء للانضباط أكثر من الغضب "

الاندفاعات العاطفية الغريزية، تمثل في العمل بصفة عامة من المحرمات المطلقة. ومن يهتاج في كل مناسبة، أو لا يستطيع أن يروض نفسه، عليه أن يعلم أنه قد يخسر المعركة أو المفاوضة برمتها المؤسسة على رد الفعل الغاضب، بل عليه أن يظهر أحياناً أن الأمر أقل من مما يستحق الهياج، فذلك يعني، أن ما حدث لا يزال يقع ضمن مدى تصوره وقدرته للتحكم بسير الأحداث.

في الحرب أو في السياسة، لا بد إظهار أقصى درجات الكياسة، والابتعاد عن ما يدل على التزمت أو الاستخفاف، وقد يكون الغضب، هدف يسعى له الخصم لدفعك إليه من أجل أنهاك القوى العقلية، ذلك أن الغضب يحجب قدر مهم من الطاقات العقلية لمفاوض والمحارب على حد السواء.

9. "من يمتلك السلطة ولا يعاقب على الخطأ، على أن لا يخطأ مرة أخرى، سيحسب عليه أنه غير مقتدر وجبان "

هذه الجملة الرئيسية سارية المفعول في عصرنا هذا أيضاً، فعلى القائد السياسي والإداري أن يلتزم بدقة العمل وأن لا يسمح بأي تهاون يقود إلى الانفلات والتصرف خارج الخطة.

وفي كل الأحوال والواجبات لا ينبغي التنازل عن الخطأ، والتصرف بحزم ضد مرتكب الخطأ، وقد لا يكفي التعهد بعدم تكرار الخطأ، أو الاكتفاء بأبعاد المخطأ، وفي حال تكرر الأخطاء، فأن ذلك سيسجل كحالة على القائد الإداري والسياسي نفسه.

10. "الصداقة بين السادة ينبغي أن تكون بحراسة الأسلحة "

عصرنة هذه المقولة في السياسة الدولية: لا توجد صداقات حقيقية بين الحكام، لذلك على المرء أن لا يمنح ثقته مطلقاً لحاكم آخر، أو دولة بدولة أخرى، وإذا أظهر الحاكم ضعفاً في موقفه، فمن الممكن أن تستخدم هذه ضده كسلاح.

وأبرز دليل على ذلك: هو استمرار وجود حلف الناتو (NATO) رغم اختفاء حلف وارسو من المسرح الدولي، بل وتفكك المعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفيتي، والأمر لا يقتصر على وجود حلف الناتو، بل يجري العمل على توسيعه.

وقد يستغرق وقتاً ليدرك قارئ غير مختص بالعلوم السياسية، أن الموقف على مسرح العلاقات الدولية قد لا يتأثر كما يشاع بالصراعات بين الكتل على أسس أيديولوجية، بل تتدخل العناصر الجيوبولتيكية (Geopolitic) أولاً، ثم المصالح الاقتصادية، ثم الموقف الاستراتيجي العام، فاليابان اتخذت موقفها من الولايات المتحدة الذي قاد للحرب مع أن الأنظمة السياسية في الدولتين كان متشابهاً، وتحالف الاتحاد السوفيتي مع الغربيين ضد ألمانيا، مع أن ألمانيا كانت بلداً رأسمالياً، والموقف الأطلسي (الولايات المتحدة وغرب أوربا) من روسيا له جذوره التاريخية، وبدور روسيا الحالي والمستقبلي في أوربا والعالم.

والسياسة المعاصرة تستخدم مصطلحات كهذه:

* التحالفات المسلحة.

* سلام تحرسه المدافع.

* المعاهدات المضمونة تعزز الثقة بين المتحالفين.

* لا توجد صداقات دائمة، ولا عداوات دائمة، توجد مصالح دائمة.

* ثق بنفسك وبقدراتك أولاً.

* لا تكن طرفاً غير موثوق، كن قوياً مرهوب الجانب.

11. " ليس من يعمد لاستخدام السلاح أولاً، هو المحرض على الشؤم، بل من هو بحاجة لذلك "

تصعيد الموقف وصولاً إلى حد الصراع المسلح، ذروة قد أستغرق بلوغها مراحل قبل أن تبلور قناعة بفشل العمل السياسي، آنذاك فإن استخدام القوة المسلحة، بدرجات مختلفة، قد تمنح الموقف معطيات جديدة، تدعو الأطراف إلى إعادة الحسابات.

ربما في حالات معينة، يكون فيها الهجوم أفضل وسائل الدفاع، وفي ذلك استباق لموقف لا يريد أحد الأطراف بلوغه، أو إجهاضاً لتنامي قوة غير مرغوبة ستضيف إلى أحد الأطراف قوة مضافة. ومن يؤنبه ضميره في هذه الحالات، سيسقط صريعاً في الميدان.

" الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى " مقولة شهيرة للأستراتيجي الألماني الشهير كلاوس فون فيتز (Klaus von Witz) التي سادت عالم ما قبل الصواريخ البالستية التي جعلت من الحروب الشاملة خياراً مستبعداً بسبب امتلاك القوى العظمى لأسلحة دمار شامل (نووي، نيوتروني، بايولوجي، كيماوي) تكفي لإبادة العالم عدة مرات.

ومن ثم فإن التنافس في الحصول على مزايا اقتصادية وسياسية، هي العنصر المرجح، والدليل الأحدث على ذلك، السباق القائم على قدم وساق لنيل المكاسب والمغانم في أفريقيا، التي وبرغم النهب الاستعماري / الإمبريالي، فأنها ما تزال توصف بأنها قارة بكر تقريباً، والقرن الحالي والقادم هو قرن المواد الخام.

أفكار ميكافيلية في الإمارة

ـ " الممتلكات التي اكتسبت بهذه الطريقة (أي بالضم) إما أنها قد ألفت حكم أمير آخر فيما سبق أو كانت ولايات حرة يلحقها الأمير بممتلكاته.. إما بقوة أسلحته هو أو بقوة أسلحة غيره أو يسقطها في يده حسن الطالع أو قدرة خاصة ".(13)

يتحدث ميكافيلي هنا عن إيطاليا المجزأة، وكان كثير الاهتمام بوحدة إيطاليا، ومن يحب بلاده يحبها موحدة عزيزة، ويقدم الولاء لها على أي اعتبار آخر، فهو يريد القول أن الأمير عليه أن يتصرف بطريقة تكون مقبولة من شعب الإمارة التي صار الاستيلاء عليها.

وتصريف هذه المقولة تصلح في حال إعادة الاتحاد لقطرين، كالوحدة الفيثنامية، أو الوحدة اليمنية، أو مشاريع الاتحاد والوحدة عليها أن تراعي هذا الجانب.

ولكن إن شئنا أن نبحث المقولة في العلاقات الدولية غير حالات الوحدة والاتحاد، فنذكر أن فكرة الضم والإلحاق هي فكرة استعمارية تكاد تختفي بصيغها التي عرفت بها منذ الثورة الصناعية والفتوحات الاستعمارية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، لكن القوى الكبرى ما تزال تمارس ذات السياسة ولكن بصيغ حديثة، فحشد كبير من الدول النامية هي دول شكلية فحسب، لها مقعد في الأمم المتحدة ولها علمها ونشيدها الوطني وإذاعة رسمية، لكن الدول الكبرى تتدخل حتى في صغائر الأمور تبعاً لمصالحها السياسي والاقتصادية والاستراتيجية، وفي سائر شؤونها حيثما عن لها ذلك. فالتبعية الاقتصادية ما توال في أقسى أشكالها، وهو ما أفضى إلى تبعية سياسية، والأنكى من كل ذلك، أن القوى العظمى تحاول اليوم (وهي تصادف النجاح والمقاومة)، فرض أنماط من الثقافات وصيغ الحياة والدخل في دقائق الحياة اليومية ومفرداتها، بل هي سمة العصر وأحدى ملامحه الرئيسية.

وقد تخفي الدول العظمى أساليب تدخلها وراء عدة أقنعة: كالديون وال(المساعدات) وبرامج التنمية، وما إلى ذلك من العلاقات المشروطة على الأرجح، والتي تمثل المدخل للتدخل في الشؤون الداخلية، انتهاء بفرض المعاهدات غير المتكافئة التي تلب حاجات الدولة العظمى، ونادراً ما تهتم بهموم وهواجس الدولة الصغيرة، الطالبة للمساعدة.

ـ عن الملكيات المتوارثة يكتب **" إن الصعوبة في المحافظة علي الدول الوراثية التي الفت حكم أسرة حاكمة أقل بكثير منها من حكم الملكيات الجديدة لأنه يكفي ألا نتجاوز أوضاع السلف وان نتهيأ للطوارئ المقبلة "**

ومن النادر في الأنظمة المتوارثة، أن يستمر نظام الحكم على ذات السمت الذي كانت عليه، بسبب اختلاف القدرة الزعامية لوارثي الزعامة، من جهة وتغير الظروف والمعطيات السياسية والاقتصادية من جهة أخرى، ناهيك عن أن الوارث لا يجد ذات البواعث التي كانت لمن سبقه.

ونجد أن أفكار أبن خلدون في هذا المجال أكثر علمية ونضجاً، فميكافيلي يرى هنا ولكن دون أن يتوصل لذلك كما فعل أبن خلدون، أن الدول تتعرض للشيخوخة، بسبب فقدان العصبية التي دعت لنهوضها، وهو في ذلك ينتقد الأنظمة الملكية، ومن هنا وصفت أفكار ميكافيلي بأنها جمهورية مبكرة.

ويحاول مفكرون رجعيين أمثال: صاموئيل هنتغتن، وفرانسيس فوكوياما، أن يخلقوا عناصر شد جديدة بإشاعة مشاعر التخوف من هذه الجهة أو تلك، والهدف الرئيسي هو الإبقاء على حالة الشد العصبي، والالتفاف، عن طريق اختراع مخاطر موهومة.

وكان وزير الخارجية الأمريكي الكسندر هيغ، قد صرح أن لا بد من إيجاد المبررات لحلف الناتو، وابتكار جبهات ومواجهات. وأحدث تلك الأساليب، هو مشروع الدرع الصاروخي التي تحاول الولايات المتحدة تأسيسه في أوربا، هي تدعي أنه لحماية شرق أوربا من مخاطر وهمية(الصواريخ الإيراني) وعلى الرغم من أن هذا المبرر هزلي، ولا يصدقه أحد، إلا أن إجراءات تتخذ وتداعيات تحدث، وهناك ملامح أزمة تلوح في الأفق، الغاية منها إبقاء الأوربيين تحت شعور أنهم تحت حماية الولايات المتحدة القوية والضامنة للسلم والأمن على حافتي الأطلسي.

ـ كتب مكيافيلي " ولكن حين نستولي علي ممتلكات في منطقة تختلف معنا في اللغة والقوانين والعادات فإن الصعوبات التي لابد من التغلب عليها عظيمة ".

هذا خطاب يصلح لدعاة الإمبريالية والعولمة اليوم، وما لم يقله ميكافيلي لأنها لاحقة لعصره، أن الاستعمار هو مشروع اقتصادي / سياسي، والإمبريالية نموذج أعلى للاستعمار القديم (Colonialism)، أما العولمة فهي أعلى أشكال الإمبريالية، وهي مشروع اقتصادي / سياسي / ثقافي، أكثر تكاملاً من أي مشروع استعماري سابق، لأن التوسع الثقافي وسبله قد بلغت شأواً كبيراً، في ثورة شاملة رفيعة المستوى في جميع وسائل النقل والمواصلات (Communication System) من أبرز ملامحها: استخدام الأقمار الصناعية، وانتشار الحاسوب(الكومبيوتر) والهواتف النقالة، وآلات التصوير الديجتال وغيرها، وسهولة الانتقال بالطائرات، وهي أدوات تستخدمها دوائر العولمة في نشر ثقافة موحدة، عابرة للقارات والأمم، يملي فيها الأقوى إرادته ومعتقداته الثقافية، كما هي وسيلة لشعوب العالم الثالث في تحسين أدائها الثقافي، واستخدام هذه المعطيات لمصلحتها.

ـ " أن من لم تؤخذ أرضه منه لإقامة مستعمرة عليها سيحتفظ بالولاء له أي للأمير والخوف من أن تؤخذ منه أرضه مثلهم ".

ويكاد مكيافيلي يشير إلي أسلوب الدعاية بالترهيب، ولو عاصر ميكافيلي عالمنا اليوم، لأشار إلى أشهر واقعة تهديد وترهيب وابتزاز في التاريخ الحديث والقديم والحديث، ولأدرك أن تهديد القوي المتغطرس ليس على الدوام تأتي بثمارها، ونعني بها الجلسة التي هدد فيها وزير الخارجية الأمريكي بيكر وزير الخارجية العراقي طارق عزيز، بقوله سنعيد بلدكم إلى القرون الحجرية ما لم تقبلوا إنذارنا (Ultimatum). وقد رفض الوزير العراقي الإنذار، إذ لم يكن أكثر من استسلام كامل.

بوسع الدول العظمى اليوم بما تملكه من قوة هائلة، نقل جيوش جرارة خلال ساعات إلى أي بقعة في الكرة الأرضية وزجها في معارك قد تحرز النصر في صفحاتها الأولى، بيد أن هذه القوى سوف لن تكسب النتائج سياسياً، أو لنقل، أنها لن تستطيع التحكم في المسارات اللاحقة سياسياً بالدرجة الأولى، ولكن عسكرياً أيضاً، وسف تحتاج هذه الدولة العظمى، إلى مساعدة وجهود سياسية / عسكرية / أخلاقية لدول أخرى في معركتها.

- ويقول مكيافيللي **" إن إهانتنا لإنسان لابد أن تكون إهانة تعنينا عن أن نخشي انتقامه "**

ويريد ميكافيلي هنا القول أنك عندما تلحق الإهانة كضرر معنوي، أو إلحاق الضرر بطرف ما، عليك أن تتوقع ردود فعله إن عاجلاً أو آجلاً، وربما بطريقة تختلف عن تلك التي أقدمت عليها.

وفي السياسة المعاصرة، ورغم ضعف العوامل الأخلاقية، إلا أن هزيمة الولايات المتحدة في فيتنام خلقت عقدة نفسية لدى صناع القرار السياسي في هذه الدولة العظمى ما تزال تعاني منها، وقد أضافت العمليات الحربية في العراق الدائرة منذ سبعة سنوات المزيد من العقد السياسية، بعد الخسائر الكبيرة في الأفراد والمعدات التي منيت بها القوات المسلحة الأمريكية بخاصة.

- **(من كان سببًا في قوة غيره هلك)**..

كتب نيقولا مكيافيلي تحت عنوان (لماذا لم تثر مملكة داريوس علي خلفاء الاسكندر عقب وفاته). يقول: **" الممالك التي عرفها التاريخ قد حكمت بطريقتين.. إما حكمها أمير وأتباعه يساعدونه في حكم المملكة كوزراء بفضله وإجازة منه.. أو حكمها أمير ونبلاء يتبوءون مراكزهم بدون مساعدة من الأمير.. ولكن لقدمهم.. ولمثل هؤلاء النبلاء ولايات ومواطنون لهم خاصة يعترفون بهم سادة عليهم بطبيعة الحال.. وللأمير في تلك الولايات التي يحكمها أمير وأتباعه سلطان أكبر من سلطان الأمير الثاني.. لأنه لا يوجد فوقه سواه ".**

وفي السياسة المعاصرة نفهم ذلك أن القوى العظمى تدير أزمات، أو ملفات معينة، أو ربما مناطق كاملة بواسطة وكلاء تعمل على إمدادهم بمصادر القوة، أو تسمح لهم أن يكونوا مراكز قوى ليخدموا سياستها في نهاية المطاف، ولكن الولايات المتحدة كقوة عظمى تستخدم هذا المبدأ، تحرص أن تخلق قوى لتكون في مصلحتها وتحت قيادتها، وليس خلق قوة من أجل المطالبة بشراكة. وهناك فرق قانوني / سياسي كبير بين مصطلحي: تحت إشراف أو تحت كنف (Supervision) ومصطلح شراكة (Partner).

- يطرح مكيافيلي **ثلاثة أساليب لإخضاع المستعمرات الجديدة** التي لا نتفق معها في لغة أو جنس.. وهي التخريب، نقل السلطة إليها، تتويج حكومة عملية. وتمارس القوى العظمى هذه السياسة منذ عصر الاستعمار، وبكثافة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وشيوع أساليب الاستعمار الجديد. وتنصيب حكومات عميلة خيار محبب للمستعمرين القدامى والجدد، وكذلك في عصر العولمة.

وتنصيب حكومات متعاونين من أبناء البلاد وسيلة التجأ إليها كل المحتلون عبر العصور في محاول لإيجاد عناصر / شريحة تقبل بوجود المحتلين مقابل الحصول على مغانم فردية / فئوية لا ترتقي إلى مصلحة الوطن، وسرعان ما سيلحق التناقض التحالف الهش بين المتعاونين والمحتلين، المتعاونين على تعدد أطرافهم، والمحتلين على صعيد تقبل مسرح العلاقات الدولية لعملية نهب معاصرة تجري تحت أنظار العالم.

ـ (في الإمارة الجديدة التي استولي عليها بقوات غيرنا وخطه) يقول مكيافيلي: **" إن أولئك الذين يرقون من أفراد عاديين ليصبحوا أمراء لمجرد الحظ، لا يعانون عناء كبيرًا في الصعود.. لكنهم يقاسون كثيرا في توطيد ولايتهم.. هم لا يقابلون في الطريق إلي الإمارة أية عقبات لأنهم يطيرون فوقها) ويضيف (وهؤلاء يعتمدون اعتمادا مطلقاً علي حظ أولئك الذين يرفعونهم وإرادتهم الخيرة) ويعلل (وهم غير قادرين علي المحافظة علي أنفسهم لأنهم لا يملكون قوات صديقة وموالية لهم ".**

والترجمة العصرية لهذه الأفكار هي أن وضع أشخاص في موضع المسؤولية دون تدريب وتأهيل لمهماتهم، قد يتعود بالنتائج الوبيلة على البلاد والحكم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن القوى الكبرى المخلصة لاستراتيجيتها وليس لاعتبارات أخلاقية، تتعامل بواقعية: أنت لم تعمل لنا مجاناً، والآن قد حان وقت غيرك. والواقع والأحداث تشير أن الولايات المتحدة وبريطانيا قد استغنتا مرات عديدة عن كثيرين ممن تعاملوا معهم، لأن الحاجة استدعت التعامل مع وجوه جديدة.

ـ يعتبر ميكافيلي **أن " الدول التي ترمي شباكها وقواعدها سريعاً لجميع الأشياء الأخرى ذات البدايات والنمو السريع لا تستطيع أن تتجذر بعمق. هي تتشعب في أماكن رحبة حتى أن أول عاصفة تهب تدمرها ".**

والغرب الاستعماري لم يستفيد من هذه المقولة الميكافيلية، لجهة كسب تعاطف الشعوب، بل كان جل سعيها، نهب أقصى قدر من القدرات الاقتصادية، وفي هذا السبيل فإن العناصر المحلية التي تعاونت مع الغاز المحتل، اتهموا من شعوبهم بالخيانة العظمى، ولم يعد مهماً في هذه الحالة البرنامج الذي يتقدمون به للشعب.

أما القصص التي يسردها مكيافيلي أن أميراً لكي يستجلب محبة الناس ولي عليهم قائدا فظا ولما جأروا من بطشه قاوم بالقبض عليه وقسمه بالسيف نصفين وعلقه في الميدان. فهذه تدخل في نطاق الحيل والأحابيل السياسية التي يتبعها المحتلون أو حتى الحكام المحليين، لإظهار مزايا السطوة والمبادئ الضائعة التي يريد المحتل أن يشرعها. كما يروي ميكافيلي الكثير من الأحداث التي تشير أن الأمراء كانوا يحيكون الدسائس والمؤامرات من أجل الاحتفاظ بالسلطة أو توسيع النفوذ، ويذكر أحداثاً كثيرة أم المؤسسة الدينية (الكنيسة ـ البابا) غالباً ما كانت تشارك في المؤامرات، لقاء صفقات ومكاسب.

ـ ويطرح مكيافيلي عدة نقاط يطلب مراعاتها من الأمير(النظام) الذي يصل للحكم بالحظ أو بأسلحة غيره:

1. تأمين نفسه ضد الأعداء.

المقولة كمبدأ عام صائبة، ولكن أن لميكافيلي أن يعيش عصرنا هذا ويشاهد أعلى أشكال البراغماتية (Pragmatsim) تطبق في عالم السياسة، بل وحتى العقائديين الدوغماتيون (Dogmatism) صاروا برغماتيين يسلكون أكثر الوسائل انفضاحاً من أجل مصالح لا تداني المصداقية (Credibility) العقائدية ولو حتى بالقليل. عالم اليوم يقبل ويدعو لإقامة التحالفات، والائتلافات بهدف حلحلة الموقف ودفع العملية السياسية.

2. استعمال القوة أو الخديعة.

يؤمن ميكافيلي باستخدام القوة عند الحاجة لها، وحينما يمتلكها دون هوادة ولا شفقة، وعندما يتفوق طرف ما فعليه أن يستخدم معطيات التفوق بلا تراجع أو تردد لدرجة سحق الخصم بحيث قطع أمكانية أن يعود ذو حجم مؤثر. أما مبدأ الإيهام (Camouflage)، والاستتار خلف أي ستارة تؤمن تأجيل المواجهة الحاسمة، أو دفعها إلى الوراء سعياً وراء أهداف سياسية قد تكون مؤثرة بمجموعها. ميكافيلي يعتقد أن واجب السياسي أن يحافظ على الدولة ومصالحها فحسب.

3. أن يكون محبوبا ومهيبا للشعب.

ميكافيلي لا يقبل بالطغاة، وقوله هذا وإن كان الحاكم أو النظام يتسم بالقوة، ولا أمل يلوح لخصومه وأعدائه، إلا أن عليه أن يجعل وجوده مقبولاً، بل وخياراً محبباً. ولكن أي نوع من المحبة، إنها المحبة الممزوجة بالاحترام والتقدير، وهو ما يسعى الحاكم أو النظام أن يشيعه بين صفوف الشعب لا أن يفرضه قسراً.

4. التخلص من كل مكامن الخطر.

الحاكم إن تمتع ببصر وبصيرة ثاقبة، وبقدرة ضرورية للتنبؤ، عليه أن يدرك بعمق أي المخاطر ينطوي عليها إقدامه على هذه الفعلة أو تلك. وأن يتنبأ أي المخاطر هي أمامه وبأية درجة. والتخلص من الخطر في عرف ميكافيلي فهو قد يعني ربما التآمر، أو أتباع ما من شأنه تلبية الغرض، ولكن في علم السياسة المعاصر، فإن النظام / الحكومة ينبغي لها أن تنصت لرأي الخبراء، والخبراء هم علماء السياسة والقانون الذين ينيرون طريق الإجراءات بالأفكار السديدة، واستجلاء لعواقب القرارات ونتائجها المحتملة.

5 - يقوم بتجديد كل ما هو قديم.

هذه مقولة رائعة، وثورية حقاً، ربما قالها ميكافيلي دون معرفة وافية للديالكتيك(Dialectic)، ربما كان قد أطلع على مقولات هيروقليطس، بيد أن الديالكتيك لم ينضج إلا على يد هيغل وماركس وهما لاحقان لمرحلة ميكافيلي بعدة قرون.

التجديد ببساطة يعني استمرار الحياة، بل قل قابلية استمرارها، وأنها السبيل الوحيد لفهم التطور وحركة التاريخ، من يتخلف عن فهمها، يصبح للأسف كالشجرة اليابسة لا أمل بالثمار منها، وستكون عائقاً أمام من يريد مواصلة المسيرة.

6 - يجمع بين القسوة والشفقة.

القسوة دليل الحزم، وإشارة للقاصي والداني أن من يخطأ يعرض نفسه للمساءلة، وستكون قاسية إن كان الخطأ جسيم، ولكن عليه أيضاً أظهار العطف حين توفر ظروفه، ففيه يؤكد الحاكم (النظام) أن المواطن هو أبن الدولة، وفسحة العطف موجودة، إن توفرت ظروفها، ومنها تنزع الدولة (الحاكم) صفة السطوة والطغيان.

7 - نبيل الخصال.

هذه قالها كل علماء العلوم السياسية، فمن يتصدى لقيادة الناس، لن يكون مقنعاً ما لم يتمتع بخصال متميزة. وبعض من هذه الخصال هي مكتسبة، والأخرى هي لصيقة به كأن يكون كريم المحتد.

وقد يختلف علماء السياسة حول من هو النبيل أو كريم المحتد ..؟

في عصر ميكافيلي، لا بد أنه لا يمكن له أن يتصور أميراً دون أن يكون سليل عائلة إقطاعية، واسعة الثراء كبيرة العدد، تمتلك الأراضي الشاسعة، وهي صفات تؤهل العائلة على إقامة تحالف عائلات مع عائلات أخرى، وتتمكن بذلك أن تشكل القوة السياسية والاقتصادية والسياسية الأكبر. أما في عصرنا الحالي، فالقائد السياسي ينبغي له أن يمتلك كاريزما قيادية، وليس سوى ثقافة ممتازة تجعله محدثاً يستحق الانصات له، وتجربة مهمة في العمل السياسي، وله إطلالة طيبة على الجمهور.

فما لذي يجعل الفرنسيين ينتخبون رئيساً مثل ساركوزي، وهو المهاجر أبن المهاجر، تمتد جذوره لديانة غير المسيحية، سوى كفاءته في وزارة الداخلية التي أقنعت حزبه أولاً ومن ثم الجمهور أن بوسعه قيادة البلاد.

8 ـ رحب التفكير.

هي نصيحة طيبة من ميكافيلي في ذلك العصر الذي كانت الدولة تفتقر فيه للمؤسسات الدستورية القوية، وبالتالي كان الشعب يرجو، وليس أكثر من الرجاء أن يتسع صدر الأمير لرأي غيره.

في عالم السياسة المعاصرة، فإن حرية التفكير والاستماع خاصة لرأي المعارض هو من بديهيات الأمور، ولكن أي حاكم وأي حكومة وأية معارضة، فذلك هو الشأن الجوهري في الواقع.

فالحاكم كسلطة تنفيذية، ومجلس النواب كسلطة تشريعية إنما سلطات تعمل بنصوص القانون، وهي مقيدة بشكل حازم بالدستور، وهناك محكمة دستورية تنظر في كل حالة يشتبه بأنها خالفت الدستور أو روح الدستور ..!

9 ـ يبقي علي علاقة بين الملوك والأمراء تفرحهم إذا نفعوه ويخافونه إذا أضروه.

ثم يقرر مكيافيلي بأن: المنفعة الحديثة لا يمكن أن تمحو أثر الإساءة القديمة من نفوس العظماء. ولعلنا في هذا الباب قصدنا الإطالة لمأثورات مكيافيللي نظراً لما تراءي لنا من أهمية تلك الملحوظات في عصرنا الحالي.. وما يمكن أن نلاحظه يوميا في حياتنا علي أي مستوي من مستويات السلطة.

في السياسة المعاصرة نعلم أن الدول كالأشخاص. فمنها ما هو محترم الجانب، لأن الدولة وبصرف النظر عن حجمها(للحجم والسكان دور لا ريب في ذلك)، إلا أن الدول تستطيع أن تثبت للدول الجارة محلياً وقارياً، أنها ذات منفعة، وأنها تتحرك في أي اتجاه يكون مفيد للعلاقات الثنائية والدولية.

10ـ ويؤكد أن الشدة الصالحة (لو أمكن استبدال الشر خيرا) لا يجب أن تستعمل سوي مرة واحدة لتأمين مصير الأمير.. كما لا يجب استخدام الشدة في تلك الحالات التي سوف تتلاشي مع الزمن تلقائيا.

لعل ميكافيلي يريد أن ينصح أن لا يسرف الأمير(الحاكم / الدولة) في استخدام القوة، وإظهار الجبروت. وفي ذلك يلعب الاقتصاد في القوة دوراً في تقرير أين ينبغي أظهار القوة والتشدد، وأين تكون إبداء المرونة واجبة. والإسراف في القوة قد يؤدي أن يكون ذاك الطرف مرهوب الجانب، بيد أن القوى المناوئة له سوف تتحالف ضده متى ما بدا أنه خطر محدق على الجميع.

11 - ويشير إلي: أن الفاتح الذي يستولي علي ولاية جديدة عليه أن يهيئ الأمر لكي يقترف ضروب قسوته مرة واحدة حتى لا يضطر إلي أن يمارسها كل يوم ويعلل ذلك بأنه **(سيضطر دائما أن يقف والخنجر في يده ولا يستطيع أن يركن إلي رعاياه بتاتا لأنهم لا يستطيعون أن يطمئنوا إليه بسبب أذاه الذي يتجدد لأن الإساءة يجب أن تكون جميعها دفعة واحدة حتى أنه كلما قل حدوثها قل ضررها).**

في السياسة المعاصرة لا توجد ولايات تفتح بالمعنى القديم، بيد الأمريكان على سبيل المثال كغزاة في القرون المعاصرة، لا ينفكون عن استخدام القوة المفرطة ولسنين طويلة، بل هم يتبعون حزمة أساليب عديدة في آن واحد، وكلها تنطوي على الشدة أكثر مما تعتمد على الحوار السياسي مع خصومهم، وهذه دلالة أن الدولة العظمى التي تتمتع بقدرات اقتصادية وسياسية كبيرة، لكنها تعتمد على القوة بالدرجة الأولى، رغم أن دراسات استراتيجية أمريكية تنصح بعدم وضع القوة المسلحة في المقام الأول، بل السياسة المدعومة بالمال، ويستشهد استراتيجي أمريكي معاصر بالقول: أن المال لم يخلق من أجل قيماً أفلاطونية ..! (14)

12 - في الإمارات المدنية تحت هذا العنوان كتب: **(وبلوغ هذه الولاية لا يتوقف بتاتاً علي الجدارة أو الحظ ولكنه يعتمد بالأحري علي المكر يعينه الحظ لأن الأمير يبلغها برغبة الشعب أو بإرادة الطبقة الأرستقراطية)**

يريد ميكافيلي بالصياغات السياسية المعاصرة، والمكر عنده العمل السياسي / الدبلوماسي الذكي، يريد القول: أن ترسيخ السلطة لا يعتمد فقط على المعطيات القانونية، التي يفترض أن الكفاءة والجدارة عمادها، بل أن على الحكومة اللجوء إلى أساليب أخرى، هو يطلق عليها المكر، بيد أنها الذكاء والحصافة التي تتمتع بها الحكومة، والحاكم، من خلال سياسة داخلية وخارجية منسجمة، وبجهاز إعلامي متطور يفسر عمل الحكومة بطريقة ذكية للشعب.

13 - وإذا كان نيقولا مكيافيلى ينصح الأمير العاقل بأن **(يبحث عن وسائل يكون رعاياه بها في حاجة إلى حكومته دائما وفى كل ظرف ممكن وحينئذ سكونون أوفياء له على الدوام).**

الحكومة ينبغي لها على الدوام أن تكون حججها وأسانيدها في العمل الشرعي، وأن تكون حائزة على ثقة المواطنيين، وليس فقط قلوبهم واحترامهم، المهم هنا الولاء للدولة قبل الولاء للحكومة القائمة هذه أو تلك.

14 - كيف يجب قياس قوة كافة الإمارات ؟ تحت هذا العنوان كتب مكيافيلى **(أعتبر الذين في حاجة إلى غيرهم دائما هم أولئك الذين لا يقدرون أن ينزلوا أعدائهم في الميدان ولكنهم يضطرون إلى الانسحاب داخل مدنهم ويدافعون) و (ليس ثمة قول سوى أن تستنهض هذا الأمير لتحصن مدينته تحصينا منيعا ويهاجم بإحجام شديد وذلك لأن الناس يعافون دائما المشروعات التي تنبئهم بمصاعبها ولا يمكن أبدا أن تبدو مهاجمة أمير له مدينة منيعة ولا يناوئه شعبه أمرا هيناً)**

في السياسة المعاصرة ليست هناك قلاع وحصون، إنما هناك فهم عميق ودقيق لقضايا الأمن القومي، ولتلك معطياتها وركائزها على الصعيد الداخلي والخارجي. فعلى الصعيد الداخلي يعد الأمن الغذائي والاقتصادي عامة، والوحدة الشعبية، والسلم الاجتماعي من أهم مرتكزاتها، فيما على الصعيد الخارجي، علاقات الدولة الخارجية، محلياً وقارياً، والدور الذي تلعبه في الحياة الدولية سياسياً واقتصادياً، وثقافياً.

خاتمة

برأينا :

* المفكر أبن عصره.

* المفكر يستخدم مفردات من القاموس السياسي لعصره.

* لا يمكن مقارنة أعمال أي مفكر إلا بمن سبقوه من المفكرين أو المعاصرين له.

* ينبغي أن يتذكر من يتصدى للتقييم أو النقد، الظروف التاريخية لذلك العصر.

* لا يجوز اقتباس مقطع صغير من أعمال المفكرين، فقد يختفي المعنى في النص بأكمله.

هذه بتقديرنا عناصر مهمة، ينبغي للكاتب، الناقد أن يتذكرها عند تصديه لمهمات تحليل أو تقييم عمل أحد المفكرين.

وقد تعرض ميكافيلي لحملة تشويه واسعة، بل ووضعت كلمات لم يقلها في فمه، من تلك مثلاً مقولة انتشرت كالنار في الهشيم، لم يقلها ميكافيلي مطلقاً، وقد أطلعت على عمل لباحثة ألمانية مختصة بأعمال ميكافيلي، تذكر أن هذه المقولة موضوعة، ربما هي استنتاج توصل إليه أحدهم لأفكار ميكافيلي، إلا أنه لا يوجد نص في أعماله، والمقولة هي: الغاية تبرر الواسطة.

من له مصلحة في تدمير سمعة ميكافيلي العلمية والشخصية ..؟

الكنيسة كانت قد ناصبته وناصبها العداء، هذه حقيقة مؤكدة.

الكنيسة رمت ميكافيلي بأنه من أشياع الوثنية. المؤسسة الدينة اعتادت أن ترمي من يعاديها أو يسعى لإبعادها عن أنشطة السياسة والحكم بالزندقة، بالهرطقة، بالفسق، بالكفر ..الخ .

ولكن ميكافيلي كان متديناً، بمعنى أن كان مؤمناً وموحداً، ولكن الكنيسة تريد الاستسلام الكامل الشامل وليس أقل من ذلك، وهو ما لم يكن ميكافيلي ليقبله، لأن الزمن كان قد تجاوز مثل هذه الفكرة، بل وميكافيلي وآخرون غيره كانوا قد توصلوا إلى حقيقة أن الكنيسة عائق أمام التقدم، عائق ضد الوحدة الإيطالية، الكنيسة كان لها المصلحة أن تبقى إيطاليا مقسمة إلى دويلات، على أن تتحد، لأن في التجزئة ضمان لتفوقها على السلطة الزمنية(الدولة)، وأن الوحدة ستقود إلى قوة الدولة والحكومة والقوانين الوضعية وهو سيعرض نفوذها للتقلص التدريجي وربما لاختفاء.

هل تقبل المؤسسة الدينية أن تحصر عملها بين جدران الكنيسة ..؟

هل الأمر يتعلق بإطاعة أوامر إلهية بالقيادة والحكم ..؟

في غالب الأحيان لم يكن تلك الفقرة الوحيدة في رسالة الكنيسة (Argumentation)، الكنيسة كانت ثرية، بل المالك الأعظم للأراضي ووسائل الثروة. وقد تمتع رجال المؤسسة الدينية دائماً بالوجاهة الاجتماعية إضافة إلى المقدرة الاقتصادية.

لذلك فإن المؤسسة الدينية لا تحبذ أن تكون الدولة قوية. لأن قوة الدولة يعني الدستور، ويعني بالتالي سائر القوانين الوضعية، الذي تضمن الفعاليات الاجتماعية، القانون ينبغي له أن يلبي حاجات الأنشطة الاجتماعية، والأنشطة الاجتماعية تتضمن فعاليات لا ترضى عنها الكنيسة أو تقف منها موقفاً سلبياً.

الحياة تطرح منطقاً، يؤدي لاشتداد نفوذ الدولة بالنظر للتطورات الاجتماعية والاقتصادية التي دارت في نهاية القرن الخامس عشر يصفه جورج سباين بأن كان لها عواقب اجتماعية وسياسية بعيدة الغور، وكلها تؤدي إلى تقوية نفوذ السلطة الزمنية (الملوك والأمراء) قادت في نهاية المطاف إلى نهاية النفوذ القانوني للكنيسة. (15)

كانت الكنيسة قد أفلست إفلاسا تاماً، لم تنقذها الحركات الإصلاحية (اللوثرية)، ولا محاولات التوفيق بينها وبين الفلسفة (السكولاستية) التي يمتد جذور نفوذها إلى 300 عام قبل الميلاد، إي قبل حلول المسيحية وانتشارها في أوربا بما لا يقل عن 700 عام.

كانت رياح التغيير قد هبت لا محالة، الاكتشافات الفكية كانت أكثر من أن يطمسها حرق العلماء، أو إعدامهم، الفنون اجتذبت عقول الناس وأفئدتهم معاً، الشعراء والفنانون عامة قد أقنعوا الناس، أن الحياة جميلة، ويمكن أن تصبح أكثر جمالاً. التغيرات كانت تدب فوجدت هذه آثارها في فكر مفكر ألمعي مثل ميكافيلي، الذي أستشف بوضوح لم يجاريه أحد، أن المستقبل هو الدولة، وبالدولة فقط يمكن إحراز مكتسبات تعزز من كيان الشعب، تجمع إرادة الناس، ولا تفرق بينهم، لذلك لا بد من إنهاء دور الكنيسة، مقابل تقوية سلطة الدولة متمثلة بالملوك والأمراء، ومن خلال منح الفرص للعمل السياسي. (16)

ـ وكان عداء ميكافيلي للكنيسة ناجم عن اعتقاده أن لا تقدم مع هيمنة الكنيسة الثقافية / الاجتماعية، كتب يسخر من الكنيسة بقوله: " نحن الإيطاليين مدينون لكنيسة روما (الفاتيكان) ولقساوستها بأننا أصبحنا (بفضل فسادها وتخلفها) غير متدينين واشراراً، ولكنا ندين لها بدين أكبر وسوف يكون سبب خرابنا، ألا وهو أن الكنيسة أبقت ولا تزال تبقي على انقسام بلدنا، ومن المؤكد أنه لا يمكن لبلد أن يصبح أبداً موحداً وسعيداً إلا إذا أطاع تماماً حكومة واحدة، سواء كانت ملكية أم جمهورية ". (17)

ـ ويصف سباين أعمال ميكافيلي بقوله: إن كتاباته وأعماله في الدبلوماسية، مزاياها ونقائصها المميزة لها، فيها أذكى بصر بنقاط الضعف والقوة في موقف سياسي، ألأوضح وأرزن حكم على موارد خصم ومزاجه، وأكثر تقدير موضوعي للقيود التي تحد من سياسة ما، واسلم إدراك في التنبؤ بمنطق الأحداث ونتيجة المجرى الذي يسير فيه بالفعل، وهي صفات جعلت منه محبباً لدى الدبلوماسيين من عصره وإلى الآن.(18)

ـ أمتلك ميكافيلي بصيرة ثاقبة، وإخلاصا لا حدود له للعلم، ولمستقبل بلاده، فعمل بكل قواه على إعلاء شأنها، وفي ذلك ناهض القوى الكبرى في مجتمعه: الكنيسة والأمراء الفاسدين(الميديتشيين الذين عادوا للسلطة بحراب المحتلين الأسبان) وبإخلاصه بدت مواقفه وأفكاره غريبة مشايعي الكنيسة، والمتملقين للأمراء بدفع من مصالحهم الشخصية. وأفكاره المتحررة بدت جريئة في " مجتمع كانت بقايا الفكر الإقطاعي، ولا سيما فرديته ونفاقه، تطغي علي عقول الجانب الأكبر من أصحاب الكلمة والفكر فيه. فقد كان ضعاف النفوس من أقرانه يحسدونه ويحاولون النيل منه عن طريق خلق المشاكل له وإشاعة الرذائل عنه والطعن في إخلاصه، فلم يجد من الأصدقاء المخلصين، لا سيما بعد نفيه، سوي الذين كانوا علي مستوي تفكيره أو من كانوا في أخلاقهم ارفع من أن يسمحوا لأنفسهم بالتحلل والانحطاط، ويأتي علي

رأسهم المؤرخ المعروف كويجارديني والدبلوماسي الفلورنسي فرانسيسكو فيتوري. وبحق قال عنه أحد المؤرخين: **كان وحيدا لكنه كان ارفع من الآخرين.** (18)

ـ وميكافيلي شأنه شأن معظم عباقرة التاريخ، يموتون منفيين جياع، يدفنهم الغرباء. ولكن التاريخ يحترمهم، ولئن قاسى ميكافيلي في عصره، فذلك لأنه كان سابق بفكره، وقد شاء له طالعه أن لا يستطيع الحديث عن توافه الأمور التي تسعد وتبهج بعض الحكام، عن فن صناعة الحرير، ولا عن فن نسج الصوف ولا عن الربح أو الخسارة، فقد كان لا يجيد الحديث إلا عن أمر واحد بل **عن موضوع واحد هو قضايا الدولة**.(19)

لذلك بتقديرنا:

الدولة:

هي الخلاصة الحقيقية وزبدة أفكار ميكافيلي هي، **الدولة**، والدولة فقط، ومن أجل أن تكون كلمة الدولة هي العليا، ناصبته الكنيسة (المنافس التقليدي للدولة) العداء، فشهرت به واستخدمت كافة وسائل الإسقاط بحقه شخصياً ولم تنج حتى عائلته من التشهير.

وقد توصل ميكافيلي لقناعاته تلك عبر قراءات لأفكار فقهية / قانونية (شيشرون ـ سينكا ـ سولون)، كذلك من خلال التجربة التي عايشها شخصياً وكان وفياً لها ودونها في أعماله: الكنيسة خطر على الوحدة الوطنية، لا تقدم مع هيمنة الكنيسة، فالدولة بنظر ميكافيلي كيان يمكن السيطرة عليه عبر القوانين، ويمكن توجيه اللوم لها واتهامها بالتقصير ومحاسبتها، ولكن من الذي يجرأ على اتهام الكنيسة والمؤسسة الدينية ؟..

حتى القس مارتن لوثر الذي قاد انتفاضة ضد الانصياع الأعمى، وضد صكوك الغفران، وضد معصومية البابا، وقف إلى جانب الأمراء في قمعهم لثورة فلاحية، وانتهى الأمر به ليكون مسالماً للقياصرة والملوك، ليقول مقولته الشهيرة: لا يجوز لمسيحي أن يثور ضد القيصر.

ومن أجل إعلاء شأن وكلمة الدولة، قبل ميكافيلي أن يخوض المعارك دون هوادة، وكان قبلها قد قبل أن يفعل السياسي كل شيئ من أجل الحفاظ على أهم مكتسب يمتلكه أي مجتمع:

الدولة ـ النظام ـ القانون

الهوامش

1. Rab, Teodore, K. : Renaissance live, New York 1993 Petrark

2. سباين، جورج: نفس المصدر، ص396/384

3. ميكافيلي، نيقولا: الأمير، ص122

4. روسو، جان جاك: العقد الاجتماعي ، ص126

5. ميكافيلي: نفس المصدر، ص156

6. ميكافيلي: نفس المصدر، ص172/132

7. ميكافيلي: نفس المصدر، ص137

8. موسولويني، بنيتو: مقدمة لكتاب الأمير، ص7/5

9. سباين، جورج: نفس المصدر، ص373/372

10. كرم، يوسف: نفس المصدر، ص41/17

11. سباين، جورج: نفس المصدر ، ص435/434

12. باور، كرستينا: ميكافيلي: نظام السلطة، اشهر الاقتباسات وقيمتها الأستخدامية في الصراع التنافسي في التوظيف الحديث

Christine Baur- Jelinek

Focus: Nr:7, 2008, Hamburg / BRD

Machiavelli : REGELN DER MACHT

Die bekanntesten Zitate und ihr Nutzwert für den Konkurrenzkampf im modernen Unternehmen

مجلة فوكوس: العدد السابع / 2008، هامبورغ / ألمانيا الاتحادية

كرستينا باور ـ يلينكا

13. سيد أمين: أمريكا الميكافيلية / دراسة تطبيقية(المقولات مقتبسة من المقال)

14. بالدوين، هانسون: استراتيجية للغد، ص295

15. سباين، جورج: نفس المصدر، ج3، ص467

16. سباين، جورج: نفس المصدر، ج3، ص471

17. سباين، جورج: نفس المصدر، ج3، ص473

18. مظهر، د. كمال: ميكافيلي والميكافيلية، كراس

19. مظهر، د. كمال: نفس المصدر

المصادر

1. سباين، جورج: تطور الفكر السياسي، القاهرة/ (خمسة أجزاء)1972

2. ميكافيلي، نقولا: الأمير، بيروت / 1971

3. روسو، جان جاك: العقد الاجتماعي، بيروت / 1973

4. موسوليني، بنيتو: مقدمة لكتاب الأمير، بيروت / 1973

5. كرم، يوسف: تاريخ الفلسفة، القاهرة / 1957

6. سيد أمين: أمريكا الميكافيلية / دراسة تطبيقية (مجلة الفكر الحديث)

(7)Rab, Teodore, K. : Renaissance live, New York 1993 Petrark

(8) Machiavelli : REGELN DER MACHT

Die bekanntesten Zitate und ihr Nutzwert für den Konkurrenzkampf im modernen Unternehmen

مجلة فوكوس: العدد السابع / 2008، هامبورغ / ألمانيا الاتحادية

كرستينا باور ـ يلينكا

7. مظهر، د. كمال: ميكافيلي والميكافيلية، كراس، بغداد / 1984

30 . خاطرة دبلوماسية : تفادي مشكلة

واحدة من أهم صفات الدبلوماسي، هي أن يتحاشى الحديث كثيراً، ففي ذلك يتزايد احتمال الوقوع في زلة لسان، قد يصعب إصلاحها. فخير الحديث ما قل ودل كما يقول المثل العربي .

وقد حدث عام 1978 هجمات مسلحة على بعثات دبلوماسية عراقية، كان أهمها الهجوم على السفارة العراقية في باريس (تموز / 1978)، وكنت خلال تلك الفترة قائما بأعمال السفارة العراقية في برلين، وكنا نحضر لاحتفالية عراقية في مبنى السفارة، وقد اتخذت كافة التدابير اللازمة داخل بناية السفارة، وأيضا خارجها، إذ قمت بالاتصال بسفير الجهة التي (يعتقد) أن التحرك بتوجيه منها، وكانت صلتي الشخصية بتلك السفارة جيدة جداً، وقد تحدثنا بضرورة الابتعاد عن كل تصرف له دلاله عنف وإرهاب وهو ما سوف يسيئ للجميع بدون نتائج مادية مفيدة، واتفقنا على ذلك.

وبنفس الوقت كانت علاقة السفارة بوزارة الخارجية الألمانية جيدة وقائمة على الثقة، وتعززها علاقة شخصية ممتازة مع المسؤولين عن قسم البلاد العربية، (دائرة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا)، وقد فاتحنا أصدقنا الألمان فيما إذا كنا نطلب الحماية للسفارة.

وبرغم أني كنت على ثقة بأن شيئا يخل بالأمن سوف لن يحدث، ولكن لا يمكن الاعتماد على النوايا والعواصف والعلاقات، وبنفس الوقت كان (طلب الحماية) سوف يؤشر بصورة بارزة، وكان أحد موظفي دائرة الشرق الأوسط يتحدث معي وهو ينتظر بلهفة : ترى هل سأطلب بنفسي الحماية ..؟

فأجبت رئيس الدائرة بأختصار ولكن بوضوح: إنني في الوقت الذي مطمئن لوجود السفارة على أرض العاصمة برلين، متأكد غاية التأكد بأن السلطات الألمانية لن تقصر بهذه المناسبة أو بغيرها من حماية السفارات الأجنبية وليس السفارة العراقية فقط. وفعلاً، جرى الأمر هكذا، ولكن بدون طلب رسمي مني كرئيس بعثة، قامت السلطات الألمانية بتكثيف الحراسة، وجرت الأمور بشكل سلس وهادئ ودون إثارات.

فيما بعد وفي جلسات خارج العمل، قال لي صديقي الدبلوماسي الألماني المسؤول في قسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الألمانية: " كنا يا سيد الدباغ بأنتظار كيف ستتصرف إزاء عرضنا، ولكنك كالعادة تصرفت بدهاء فأمنت طلبك منا، ولكن دون أن تطلبه صراحة " .

31. زلة لسان ... أم تعمد

لست من هواة متابعة التلفاز، ولكني أقتني مجلة البرامج وأشاهد منها ما أختار، منها ما أطلع من خلال الانترنيت على ما أريد من البرامج. وأكثر ما يهمني هو المقابلات التي تجريها القنوات وخاصة الأجنبية، مع الشخصيات السياسية والعلمية. ورغم أنني أعرف تماماً أن السياسيون والدبلوماسيون خاصة، حذرون جداً ويندر أن تفلت من أحدهم كلمة أو جملة لا يريدون التصريح بها، ولكن رغم هذا تفلت أحياناً ما هو في نطاق الأسرار، أو المعلومات الغير متاحة في الصحافة والإعلام.

وعندما أشاهد وأسمع أن أحد تلك الشخصيات البارزة تصرح بحديث خطير، ومهم جداً، وهذا يحملني على التفكير، هل هذه الشخصية الكبيرة تعمدت هذا التصريح، فيدلي بكلمة أو جملة بعيدة المعنى والمغزى، أم ترى أن لسانه أفلت فل لحظة غضب، أو أسترسال وانسجام في الحديث وندم عليها فيما بعد، ولكني أعرف أيضاً ليس جميع المشاهدين يتابعون بدقة حرفية، أو أنه يشاهد التلفاز دفعاً للضجر، وهكذا تفوته معلومات مهمة.

الرئيس السوفيتي ميشائيل غورباتشوف

1

ـ ومن بين أهم ما مرت علي من لقطات مثيرة لا تنسى، هي مقابلة التلفزيون الألماني مع الرئيس السوفيتي السابق ميشائيل غورورباتشوف (Michail Gorbatschow) بمناسبة ذكرى تقويض الجدار بين برلين الشرقية والغربية. وتحدث غورباتشوف بمعلومات بدت لي غريبة جداً، رغم أني أدرس العلوم السياسية وخبرتي بالعمل السياسي. والمعلومة هي كما يتحدث غورباتشوف هي: أن الاتحاد السوفيتي كان متفاهماً مع حكومة ألمانيا الاتحادية بصفة تامة على كافة الخطوات التي تبدأ بانسحاب القوات السوفيتية من ألمانيا الديمقراطية، وتسهيل إقامة الوحدة الألمانية، وتعديل اتفاقية لندن الرباعية (1971)، أو إنهائها، وكانت تشكل عقبة كأداء أمام الوحدة الألمانية.

الأطراف الأربعة لاتفاقية لندن هم : الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي، بريطانيا، فرنسا. وكانت الموافقة السوفيتية تامة وبدون تحفظات. وكان المستشار الألماني الكفء هيلموت كول (Helmut Kohl) قد نجح بإقناع الرئيس الأمريكي دونالد ريغان، الذي لم يكتف بإعطاء موافقته، بل وممارسة الضغط على رئيسة الوزراء البريطانية الحديدية مرغريت تاتشر التي كان موقفها لا يلين، وترفض أي حديث عن موافقتها للوحدة الألمانية، وهذه حسابات بريطانية عميقة لها أفق السيطرة والهيمنة على أوربا. ولكن حيال الضغط الأمريكي، وافقت بريطانيا مكرهة. وهذا الموقف البريطاني ليس مفاجأة، ولا الانصياع للضغط الأمريكي ليس مستغرباً.

الموقف الغريب حقاً لدرجة الدهشة بالنسبة لي، وأعتقد حتى لأكثر المراقبين والمحللين، تمثل بالموقف الفرنسي. ويقول غورباتشوف أن رفض الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران، كان حازماً وقاطعاً، ويرفض أي مناقشة في الأمر. فرنسا حليفة ألمانيا الاتحادية الأولى في أوربا وفي العالم، الدولتان المؤسستان والراعيتان للسوق الأوربية المشتركة، ولمشاريع الاتحاد الأوربي، والشريك الاقتصادي الرئيسي، والشريك الاستراتيجي في الناتو وفي تحالفات ثنائية عميقة بين البلدين، ترفض بإصرار على الموافقة على الوحدة الألمانية ..... !

المفاجأة الكاملة والمذهلة كانت في الموقف الفرنسي... ولكن من يقرأ السياسة بدقة يرى أنه موقف طبيعي .. وكما أن الهواجس البريطانية مفهومة، فإن الهواجس الفرنسية مقبولة ومفهومة ربما بذات القدر ..! ألمانيا وفرنسا حليفتان منذ عام 1949، حين أرسى الجنرال الكبير شارل ديغول والمستشار المحنك كونراد أديناور أسس التحالف وفق رؤية بعيدة المدى، تنفذ على أرض الواقع بصبر وتوءدة حتى اليوم، إذن لماذا رفض الرئيس الفرنسي ميتران الوحدة الألمانية بإصرار ..؟

ولكن التاريخ والفرنسيون لا ينسون أن الألمان احتلوا العاصمة الفرنسية مرتين، وحاصروها على أبوابها مرة أخرى، والوحدة الألماني ستضيف إلى الدولة الألمانية الموحدة 17 مليون ألماني متعلم ومستوى صناعي وتعليمي راقي، ودولة صناعية من الدول العشرة الأولى في العالم (ألمانيا الديمقراطية الشرقية). برغم أن الإعلام الألماني (الغربي) عمل كثيراً وراح يقلل من أهمية ألمانيا الديمقراطية ويصور أن ألمانيا الغربية ستنفق كثيراً على ألمانيا (الشرقية)، ولكن الحقيقة هي أن مساحة ألمانيا اتسعت، وعدد سكانها أرتفع، وكذلك عدد جامعاتها الراقية، وجيش من العلماء والأخصائيين في كافة المجالات.

وبحسابات العقل والرؤية البعيدة، أدرك الفرنسيون أن ألمانيا ناقص، جزئها الشرقي، هي أضعف وأقل مقدرة منها قبل إقامة الوحدة، ويضعها في موقف أضعف في حسابات التحالف.لذلك كان موقف الرئيس الفرنسي ميتران العنيد ضد الوحدة، ولكن في السياسة ليس هناك مستحيل ونهائي، والمستشار الألماني العظيم كان يسير ملهماً صوب وحدة بلاده، فمالذي يحول بينه وبين حلم أمته ..؟ وبأختصار شديد، فعل كل شيئ (وألمانيا بوسعها فعل الكثير) ليلين موقف فرنسا، وتوصل لذلك فعلاً. وعندما تقاعد العظيم هيلموت كول، أنزوى في بيته بعيداً عن الأضواء والمجد العظيم الذي حققه لوطنه، لم يقل عنه كلمة مديح واحدة .. فالأمر كان سيفسد لو فعلوا ذلك .. هو قام بواجبه ..... فقط.

مقابلة الرئيس السوفيتي السابق غورباتشوف كانت مذهلة وهو يروي تفاصيل وخفايا تلك الحقبة التاريخية المفصلية في تاريخ أوربا : الاتحاد السوفيتي ـ ألمانيا. وأخمن أنه لم يفرغ كل ما في جعبته. ولكني كسبت منها تجربة سياسية كبيرة.

زلة لسان أم تعمد

2

السياسي الألماني إيغون بار

ـ من المقابلات الهامة التي شاهدها في حياتي، هي المقابلة التلفازية مع السياسي الألماني الألمعي إيغون بار / Egon Bahr ـ 1922ـ 2015) وهو أحد أبرز الشخصيات السياسية التاريخية في الحزب

الاشتراكي الديمقراطي (SPD) وعمل لفترة طويلة مع المستشار الألماني فيلي براندت، ونائبا في البرلمان الألماني الاتحادي، وعمل وزيراً للمهمات الخاصة، وبهذه الصفة قاد ابرز وأهم المباحثات الألمانية مع ألمانيا الديمقراطية (الجزء الشرقي من ألمانيا)، ومع الاتحاد السوفيتي، ولعب دورا هاماً ومؤثراً في المباحثات ونتائجها.

فالرجل يمتلك إذن خبرات وتجارب عمل مهمة في بلد كبير كألمانيا، وخاض غمار تجارب سياسية حاسمة، من بين أهمها هو عمله لفترة طويلة في تحقيق الوحدة الألمانية. وقيامه بسفرات كثيرة وعقد اجتماعات حاسمة، ومن بينها سفرة قام بها إلى موسكو / للأتحاد السوفيتي وإجراؤه محادثات بصدد الوحدة الألمانية.

هناك مسألة ألمانيا كامنة في أعماق السياسيين الألمان، وفي أعماق نفسية كل ألماني، وهي إدراكهم العميق أن بلادهم مجزأة / مقسمة، أقتطع منها مساحات شاسعة، وقسمت لدول عديدة، والوحدة حلم كل ألماني، إلا أنهم يدركون أن ذلك صعب المنال، وتحيط بهذه القضية حسابات دولية معقدة، ومصالح أوربية وعالمية، وتثير هواجس حتى أقرب المقربين لألمانيا في التحالفات والعلاقات الصداقية الثنائية، فحسابات مصالح الدول السياسة هي غير حسابات الصداقة.

الدول الألمانية في أوربا كانت حتى عام 1991 هي : ألمانيا الاتحادية، ألمانيا الديمقراطية، النمسا، سويسرا، وهولندة، وأمارة ليشتن شتاين، هذا عن تواجد سكاني ألماني مهم وحضور ثقافي في : هنغاريا، يولونيا، الدانمرك، رومانيا، مناطق في القرم وأوكرانيا. وبنظرة سريعة يدرك المرء أن هذه هي مساحة جغرافية وتعداد سكاني واقتصادي كبير جداً، تقف بوجهه بريطانيا، وفرنسا، وروسيا، وربما حتى الولايات المتحدة. لأن الوحدة الألمانية ستخلق دولة عملاقة بقدرات فائقة تفرض إرادتها على مسرح العلاقات الدولية والأوربية بشكل خاص. فهو بهذا حلم بعيد المنال.

الدولة الألمانية بوصفها أكبر الكيانات الألمانية تدرك أن الوصول لهذا الهدف طويل ومعقد، وأن عليك أن تثبت للجميع، للأعداء والأصدقاء على السواء، أن الشعب الألماني لا يريد سوى السلام، ولا يضمر سوى الود لجميع الشعوب الأقربين منهم والأبعدين، وعليه أن يزيل تراث دموي من العلاقات، ويمهد الطريق لكيان ألماني كبير ومقبول ولا يثير مخاوف أي طرف من الأطراف. وهذه ليست مهمة سهلة بل هي في غاية التعقيد. ولكن ينبغي التحرك بحذر وصبر وتوءدة. ومن ذلك الألمان يتجنبون إثارة حفيظة أي طرف من الأطراف، فلا يحيطون أي خطوة مهما كانت صغيرة في هذا الطريق بالضجيج الإعلامي والحماس العاطفي.

في المقابلة التلفازية يقول إيغون بار أن الوفد الألماني قصد موسكو للتفاوض، وقابل مسؤولين من وزارة الخارجية السوفيتية وهنا المفاجأة : " من دائرة ألمانيا وسويسرا والنمسا وهولندة .. (يبدو أن هناك دائرة متحدثة باللغة الألمانية في وزارة الخارجية السوفيتية)، ولكن إيغون بار أضاف كلمة " إذن دائرة ألمانيا

الكبرى ...! ". (Grosse Deutschland) وطيلة إقامتي الطويلة في ألمانيا لم يتكرر سماع هذا المصطلح الهام. وأنا أعتقد جازماً أن السيد بار لم يتعمد ذكرها، بل وردت كزلة لسان ..!

زلة لسان أم تعمد

3

جاك سترو وزير خارجية بريطانيا الأسبق

تابعت مقابلة تلفازية هامة أجريت مع وزير خارجية بريطانيا الأسبق (Jack Straw) ، أدلى بها السيد سترو بتصريحات، وإن لم تكن المعلومات التي أدلى بها (عن التعاون الوثيق بين إسرائيل وإيران) في حيز الأسرار، ولكن تأكيدها على هذا المستوى السياسي المسؤول، مدعماً بالأرقام، منح المعلومات طابعاً تأكيدياً مهماً، وصار بالإمكان الاعتماد عليها كمعلومة موثقة تستحق الإشارة إليها.

يتحدث الوزير سترو عن التعاون الإسرائيلي الإيراني الحميم خلال 8 سنوات الحرب لعبت فيها إسرائيل دور المورد الأول للسلاح لإيران سواء الأسلحة من الصناعات الإسرائيلية، وقد عثرت القوات العراقية على اعتده إسرائيلية الصنع، ولكن بوسع السلطات الإيرانية الزعم أنها أسلحة موردة لإيران منذ زمن نظام الشاه.

والشهادة المهمة هنا تأكيد وزير الخارجية البريطاني الأسبق، أن إسرائيل كانت تضخ الأسلحة لإيران طيلة ثمان سنوات التي استغرقتها الحرب، وهذه الشهادة المؤكدة والمسؤولة، تضيف إلى المعلومات الكثيرة التي كانت بحوزة السلطات العراقية، وحتى الدولية، التي أكدتها سقوط الطائرة الأرجنتينية في مناطق الحدود السوفيتية / التركية، وعن رحلات بحرية بين الموانئ الإسرائيلية والإيراني لنقل السلاح. وأشار الوزير سترو أن مجموع ما صدرته إسرائيل إلى إيران في أعوام الحرب بالثمانينات بلغ 2 مليار دولار، وهو مبلغ غير بسيط في تلك السنوات.

وتتميز علاقات التسليح أو غيرها على الصعد السياسية والجارية بالتكتم وإحاطتها بالسرية، رغم أنه لا يمكن التعويل على الإبقاء على الأسرار، فتداخل العلاقات والتقدم التقني يكشف العلاقات السرية مهما

حاولت الأطراف إخفاءها. وقد تتكون مصلحة لأحد الأطراف، أو لمن أطلع على أسرار العلاقة أن يعمد لكشفها بهذا الأسلوب أو ذاك. ومن تلك مثلاً أن قدمت إيران لإسرائيل ما تمتلك من معلومات وصور لمواقع العمل والأبحاث النووية العراقية، وسهلت بذلك مهمة قيام إسرائيل بشن غارات الطيران لقصف تلك المنشئات. وأن قيام تعاون إسرائيلي ـ إيراني عسكري / استخباراتي هو أمر منطقي حيال خصم مشترك وهو العراق.

ومن بين العلاقات التي أدلى الوزير البريطاني بمعلومات عنها، هو سماح السلطات الإيرانية بسفر اليهود الإيرانيين يقدر عددهم بنحو 100 ألف شخص، إلى إسرائيل، والعودة أو البقاء فيها، وهذا ما يمثل بمبادرة حسنة، لابد أن رد الإسرائيليون بمثلها. وأشار الوزير سترو أن خلال فترة خامنئي هاجر 50 ألف إيراني / يهودي إلى إيران.

زلة لسان أم تعمد

عالم الاقتصاد الفلسطيني د. طلال ابو غزالة
4

د. طلال أبو غزالة عالم اقتصاد عربي فلسطيني، خرج من قلب المأساة وصنع من نفسه شيئاً لشعبه وأمته، وبفضل علمه توصل وتبوء مراكز علمية / سياسية دولية كبيرة، وبفضل هذه المراكز العليا التي توصل إليه، ومخالطته ومجالسته شخصيات دولية ذات أفق عريض، وبفضل علمه الغزير أولاً، توصل الدكتور ابو غزالة إلى فهم عميق لعناوين بل ولمفردات وتفاصيل ما يدور على مسرح العلاقات الدولية، وأكثر من ذلك اكتسب القدرة الفائقة على التنبؤ وفق مقاييس علمية دقيقة.

في متبعة محاضرات الدكتور ابو غزالة فائدة قصوى، وحتى تلك المعلومة أو الملاحظة التي ربما تعرفها أو تتفهمها، وقد تشعر بها، أو يتوصل إليها تحليلك العلمي، يخبرك أياها د. أبو غزالة عن معرفة وعلم، بطريقة لبقة.

في إحدى محاضرات د. ابو غزالة يتحدث فيها عن تنافسات الأقطاب العالمية، فيتطرق إلى نظام العولمة الذي يلفظ آخر أنفاسه، ومن المرجح أن لا يستمر فترة طويلة بعد، الدور القيادي أنهك الولايات المتحدة الأمريكية نفسها كما أنهكت مناطق كثيرة في العالم في بؤر التوتر وغيرها، وأولى مظاهر تراجع الدور القيادي الأمريكي يكمن في المؤشرات الاقتصادية قبل كل شيئ، وهو ما يعطي تحليلات هذا العالم المصداقية والعلمية.

المهم جداً الذي تحدث به د. أبو غزالة، هو ما كنا نلاحظه من خلال ظواهر عديدة، ولكنه لم يكن يرتقي لدرجة المعلومة، أو اليقين هو أن مسرح العلاقات الدولية الحالي يتجه بسرعة ليتبلور على معسكرين :

الولايات المتحدة ـ بريطانيا / الصين ـ روسيا

وبالطبع لكل من هذين المعسكرين حلفاء وأطراف، والأساس في هذين المعسكرين هو التحالف على أساس القوة الاقتصادية والعسكرية. ويتوقع د. أبو غزالة أن تكون هناك نقاط ساخنة في المحيط الهادئ وأطرافه وخاصة في بحر الصين، وقد يبلغ الأمر حدود حرب محدودة، سيكون بعدها مفاوضات، يجري بعدها تقسيم جديد للعالم، والتقسيم لا يعني وجود عسكري وسياسي استعماري، كولونيالي، فتلك طبيعة اندثرت منذ زمن بعيد، بل الحضور والنفوذ سيكون اقتصادي / سياسي.

الأمم الصغيرة لا حظ لها في الصمود كقوة لها وزنها في الميدان إلا إذا دخلت اقتصادياتها عالم الترليونات، وصارت لها اهميتها الاقتصادية لتحقق أهمية سياسية.

العالم قوة ... نعم هذا قيل دائما عبر التاريخ، ولكن ما يتغير هو الصور المعبرة عن القوة ....!

32. دبلوماسيون، آثاريون، جواسيس

أربعة تقارير عن أنشطة مشبوهة

مقدمة

منذ أواسط القرن التاسع عشر، كانت المعطيات السياسية / الاقتصادية / الاجتماعية تؤشر أن المنطقة العربية في الشرق الأوسط التي كانت تحت الهيمنة العثمانية مقبلة على تحولات (تغيرات) كبيرة وحاسمة، ذلك أن الأطر والهياكل للمعطيات المذكورة كانت في مرحلة تعاني فيها من ضعف واضح، وتداعي، وقد اتجهت إليها أنظار الدول الاستعمارية للتقاسم ثرواتها ومزاياها الاستراتيجية.

وكانت العلاقات الدولية تمر بمرحلة توتر شديدة، ذلك أن مرحلة الاستعمار التي أعقبت الثورة الصناعية قد بلغت مرحلة لابد فيها من إعادة تقسيم جديد للعالم ومناطق النفوذ والهيمنة، هذا عدا عن أن النفط بدأ يطرح في السوق والسياسة العالمية كمادة استراتيجية للصناعة والاقتصاد وللآلة الحربية، بل لعموم مفاصل الحياة الحديثة.

توجهت الدول التي وجدت مصالحها في المنطقة بشتى الأساليب، المنطقة التي كانت مجهولة تماماً، ولا يمتلكون عنها أية معلومات منذ الحروب الصليبية. وغياب شبه تام للمعلومات الجغرافية والسكانية، والاقتصادية، والمنطق يطرح ضرورة الاستطلاع، وتأسيس بدايات لأعمال تمثلت بتحديد طرق المواصلات، ومد السكك الحديدة، وإيجاد أساس لتعاون اقتصادي ولو بصوره البدائية مع فئات محلية، وإنشاء فئة الكومبرادور، ليكون متعلقاً بشريان الحياة (الاقتصاد) مع الأجنبي، وتكوين شبكة من العلاقات من شيوخ القبائل، وكل من يمثل سلطة اجتماعية، ومع شخصيات متنفذة.

وهكذا انطلقت مجاميع كبيرة من لندن وباريس وبرلين، وغيرها من عواصم المال، بصفة: سواح، رحالة، مكتشفين، آثاريين، تجار، دبلوماسيين، وفي الواقع كان معظمهم من الجواسيس المدربين، بعضهم قد أستعد لمهمته وتعلم اللغة العربية، وتلقى دروس في العمل والتسلل والتغلغل، واقتناص الفرص وفن التعامل مع الشخصيات، جعل ما هو طارئ وعارضي، إلى أمر أساسي، وتحويل الأساسي الجوهري إلى أمر ثانوي عارضي، هذا هو جوهر عمل القوى الاستخبارية عندما تدخل بلداً وتصبح قوة مرجعية يؤخذ رأيها وينفذ صوتها، وهذا ما فعله لورنس، وهذا ما فعلته غيرترود بيل، حين دخلوا بلادنا وصاروا هم أسيادها وحكماً بين القوى الشعبية، بفعل الجهل والتخلف، وهذا ما فعلته تلك القوى، ما تفعله غيرها من القوى الأجنبية.

هذه تقارير أربعة، ينطوي البعض منها على معلومات جديدة، وبعض آخر على مدى الخراب الذي ألحقه هؤلاء الجواسيس في البلاد، بل وتشير التقارير أن الدوائر التي أرسلتهم كانت تتخبط في معلوماتها، وتتناقض، ثم أن تنافساً بين الدول الاستعمارية على بلادنا فعبثوا بالخرائط، وعينوا الحدود بين الدول وفق مصالحهم الاستعمارية، وكثيراً ما كانوا يغشون بعضهم أيضاً. بل ويغشون ويخدعون أمماً وشعوب، ويتلاعبون بالألفاظ والمصطلحات، ويركبون المؤتمرات، ويتبادلون الأدوار، ويندر أن يتلفظ أحدهم كلمة صادقة، أو يقطع وعداً وينفذه.

جرت هذه الأحداث على أرض بلادنا، والتقارير تعبر عن أحداث مصيرية جرت على أرض العراق والأردن وفلسطين وسورية ونجد والحجاز. التقرير الرابع أردت أن أنهي ترجمته، أو الإحجام عن نشره، لأنه ينطوي على مغالطات وتثقيف خاطئ متعمد، فهناك من المؤرخين من يعتقد أن بوسعه أن يواصل اللعب بالكلمات والألفاظ، ويواصل الغش، على الأقل شعوب بلدانهم، ثم تنكشف أمام القارئ تناقضات وخدع، وما تزال شخصية توماس لورنس (لورنس العرب) غامضة بدرجة كبيرة، منها احتمال أنه كان يعمل لصالح الصهيونية العالمية، ثم دور مشبوه للجاسوس آرون آرونسن، الذي كان روماني الجنسية، ولكنه فجأة يصبح عضواً في الوفد البريطاني في مؤتمر باريس. وعلاقة مشبوهة بين آرنسن وشقيقته سارة وبين لورنس، والمدهش أكثر أن هذه الشخصيات تختفي فوراً ونهائياً بعد أداء دورها التجسسي.

عندما وقعت التقارير بين يدي، لم أعتقد للوهلة الأولى إنها مهمة كما تبين لي لاحقاً، أني أدعو القارئ أن يتمعن ويفكر بمضامينها، وسيجد أنها مهمة بل ومدهشة أحياناً ...!

آثاريون، دبلوماسيون، جواسيس

أربعة تقارير عن أنشطة مشبوهة

1

Erster Weltkrieg Die wahre Pistolenkugel des Lawrence von Arabien

حقيقة الرصاصة التي أطلقها لورنس العرب في الحرب العالمية الأولى.

تقرير كتبة : سفين فيليكس كيلرهوف (Sven Fellix Kellerhoff)

ترجمة : ضرغام الدباغ

تاريخ النشر : 8 / نيسان / 2016

كتب توماس لورنس في مذكراته، الذي كان ضابط ارتباط الاستخبارات العسكرية البريطانية مع الثورة العربية ضد الإمبراطورية العثمانية، عن أحداث الثورة. ما يمنح المزيد من الإيضاح حول دوره.**(1)**

بعد مرور 99 عاماً أكتشف الآثار يون البريطانيون ما يؤكد الدور البطولي للشخصية الشهيرة، توماس لورنس (Thomas Lawrence) وبنفس الوقت الشخصية المثيرة للجدل الذي أشتهر باسم لورنس العرب (Lawrence von Arabien) وأن لورنس قد شارك شخصياً بهجوم واحد على الأقل على قطار الحجاز الذي يربط بين عمان والمدينة المنورة.

بالقرب من السكة الحديدية السابقة وقرب محطة عمار وهناك معبر من الأردن إلى الحدود العربية السعودية، جرت هنا عام 1917 معركة بهجوم على فطار عسكري للدولة العثمانية، والذي تحدث عنه لورنس في مذكراته " أعمدة الحكمة السبعة " وهذه المعركة تضمنتها أحداث الفلم السينمائي الذي أنتجته هوليود " لورنس العرب " ومثل دور البطولة فيه الممثل بيتر أوتول.

وعلماء الآثار من بريستول الذين يعملون في إطار "الثورة العربية الكبرى" ويبحثون عن أثار المعركة، عثروا على قذيفة ومسطحة بعض الشيئ، التي تم إطلاقها من مسدس كولت (M-1911) وبما أن العرب كانوا على الأغلب مسلحين بالبنادق والمسدسات البريطانية، فيما كانت القوات العثمانية مسلحة بأسلحة ألمانية، اعتبر الباحثون أن لورنس شخصياً كان مسلحاً بهذا المسدس الثقيل عيار 45 ملم الأمريكي الصنع، ومن المعروف أن لورنس كان مسلحاً بمسدس من هذا النوع.

وقد يعني هذا ، أن بعض المشككين في الأحداث التي وردت في كتاب " أعمدة الحكمة السبعة " هي مزينة ، وصولاً أنها اختراعات ..!. نيل فاولكنر، أحد أعضاء الفريق البريطاني، تحدث أن لورنس كان من هواة نسج القصص ولكن الطلقة (الظرف الفارغ) التي عثر عليها بالإضافة إلى علامة القاطرة (رقمها المميز)، تعني حقاً دوره في الثورة العربية.

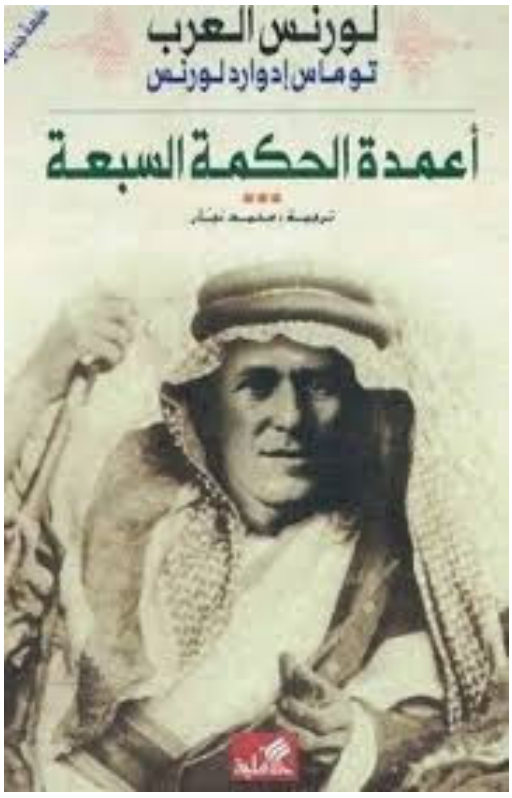

والمسدس الكولت (M-1911) كان قد دخل الخدمة في الجيش الأمريكي في عام 1911، وحتى عام 1914 كان هناك (68,533) قطعة منه في الجيش الأمريكي، ولك يكن هذا السلاح قد صدر منه بعد بأعداد تستحق الذكر. ولم يباشر بتصديره إلا بعد تموز / 1915، حيث صدرت منه شركة كولت، ما مجموعه 15,000 مسدس من طراز (M-1911) إلى وزارة الدفاع البريطانية، واعتبرت مسدسات قوية وزعت على الضباط، وخاصة لسلاح الطيران، وربما حصل عليه لورنس عن هذا الطريق.

المسدس المنسي للورنس

كان توماس لورنس (الذي ولد عام 1888) قد تعلم اللغة العربية في شبابه خلال أعمال التنقيب قي سوريا، وعند نشوب الحرب العالمية الثانية، استدعي للخدمة، كضابط في الاستخبارات العسكرية. والتحق للخدمة في القاهرة،وبعد عامين حين اندلعت الثورة التحررية في الحجاز، فأوفد الملازم لورنس إلى زعماء الثورة كضابط أنصال بسبب مهارته اللغوية.

وسرعان ما أكتشف أن العرب يقاتلون بشكل غير كفوء، وقام لورنس بتنظيمهم، وقام بتسليحهم بأسلحة بريطانية وعلمهم تكتيكات الهجمات السريعة القوية على طرق القوات العثمانية، وهكذا تمكن من زعزعة أوضاع العثمانيين حلفاء الرايخ الألماني، وبسبب نجاحاته نال ترقيات سريعة حتى بلغ رتبة عقيد عام 1918.

لورنس كان يعرف أنه لا يخبرهم الحقيقة

مع ذلك، كان لورنس يعرف أنه لا يخبر المقاتلين العرب الحقيقة : وفي الحقيقة كانت بريطانيا وفرنسا قد قررتا أن لا تمنحان الاستقلال للعرب. وكان العرب منقسمون، وتعمل جهات دبلوماسية عديدة على تقسيم مواقفهم. أنسحب لورنس من الحياة العامة، وعمل كجندي في سلاح الطيران الملكي، وكتب مذكراته (أعمدة الحكمة السبعة) التي ظهرت عام 1926 وأضافت عليه المزيد من الشهرة، ولكن لورنس لقي حتفه في حادث دراجة نارية عام 1935.

ولعل رصاصة المسدس التي عثر عليها، هي دليل، أن لورنس قد شارك شخصياً في إغارات الجيش العربي على خط سكة الحديد، بعد العثور على المعسكر البريطاني لمساعدة الثوار في الصحراء الأردنية عام 2014 وتعد من الاكتشافات المهمة التي تؤكد أحداث كتاب " أعمدة الحكمة السبعة ".

الهوامش.

1. توماس لورنس، شخصية مثيرة، وتنطوي على تناقضات عديدة، فهو داري أو باحث في الآثار القديمة لحضارات وادي الرافدين، التحق بالخدمة العسكرية في بداية الحرب العالمية الأولى، ونسب للعمل في الاستخبارات العسكرية البريطانية. أوفد إلى الشرق الأوسط (مصر)، ثم أعتبر كضابط ارتباط في الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين. وتميز عمله بالخداع والغش، تنفيذاً لأوامر الإدارة الاستعمارية.

منح رتبة عقيد مكافأة له على جهوده، ولكنه عاد والتحق بالجيش بعد الحرب كمتطوع بصفة جندي في القوة الجوية الملكية البريطانية.

كانت له حياة شخصية مثيرة، إذ أعتبر وجودياً، وأشير إليه في بعض المصادر بالشذوذ الجنسي.

****

.2

Kriegshelden Viel Rum – Wie Lawrence von Arabien wirklich lebte

بطل الحرب والكثير من المجد : كيف كانت حقيقة حياة لورنس بطل الحرب

تقرير كتبة : سفين فيليكس كيلرهوف (Sven Fellix Kellerhoff)

ترجمة : ضرغام الدباغ

تاريخ النشر : 9 / نيسان / 2016

أكتشف الباحثون البريطانيون معسكراً في صحراء الأردن الذي كان قادة الثورة ضد الدولة العثمانية يستخدموه في الحرب العالمية الأولى.. ومنها حقائق جديدة

الحجر يبقى إلى الأبد، والصخور كما لا تزال منذ مئة عام بذات الخصائص، وهذه المتانة والحفاظ على الحال هو ما ساعد الآثار يون على اكتشافاتهم التي كان لها تأثيرها بين العلماء.

في وسط الصحراء الأردنية اكتشف الآثار يون من جامعة بريس تول معسكراً أستخدمه ضابط الاستخبارات البريطاني توماس لورنس عام 18/1917، حينما كان يعمل منسقاً لهجمات الثوار على خطوط إمداد الثورات التركية. وفي صورة فوتوغرافية التقطت عام 1918 يبدو فيها جانب من المعسكر في خلفية الصورة تبدو فيها الصخور وكأنها أسنان، وحتى توماس لورنس (1888– 1935) كتب في مذكراته ما يلي " صخور وكأنها الأسنان قريبة من وادي الشام "، موجودة خلف المعسكر.

ولكن منذ زيارة الضباط البريطانيين بسياراتهم المصفحة من طراز رولزرويز (Rolls Royce) إلى الصحراء برفقة لورنس لم يكن هذا المعسكر موجوداً، بل أن هناك خارطة مؤشر عليها بعض المواقع التي كان طيار استطلاع من القوة الجوية الملكية البريطانية قد رسمها بعد طلعة الاستطلاع اعتماداً على الذاكرة، ولكنه لم يضع هذا المعسكر عليها أو أية إحداثيات أو أوصاف تفصيلية.

ومع ذلك، لم ذلك يمنع عالم الآثار جون وينتربلوم من مواصلة البحث، وبمساعدة الصور التي يقدمها موقع غوغل الأرض (Google Earth) عن هذا الموقع الذي يضم هذه الصخور المميزة في صحراء الأردن العملاقة، وليجدها، حقاً كانت مهمة هرقلية جبارة.

ذخيرة حربية وقناني روم

وبالتعاون مع علماء " مؤسسة الثورة العربية العظمى" الذين يبحثون عن آثار لورنس ورجال الثورة العربية، تمكن أخيراً وينتربلومن العثور في منطقة بجنوب الأردن، على المرتفعات التي تطل على ميناء العقبة الخليج المنبثق من البحر الأحمر، ولكن إلى الشرق بنحو مئة كيلومتر على جانبي سكة حديد الحجاز وهو خط مواصلات معروف ومهم فقي الشرق الأوسط وتمكن من تعقب آثار الصخور.

الآن وبالمقارنة مع الصورة الملتقطة عام 1918، أصبح ممكناً التوصل إلى المكان الذي كان فيه معسكر لورنس، وفعلاً مع أولى أعمال الحفريات، بدأت بقايا البريطانيين تظهر للعيان، في ضوء النهار. على سبيل المثال الظروف الفارغة للأطلاقات، ومكان موقد المخيم، التي كان رجال لورنس قد أوقدوها هنا.

ومن خلال زجاجات الروم التي وجدت، يبدو أنهم كانوا يحتسونها ومن النوع الجيد.، كما وجدت بقايا تجهيزات بريطانية كانت تستخدم في الجيش البريطاني. كما تم العثور على قطعة تنتمي لهيكل سيارة رولزرويز البريطانية المدرعة، ويبدو أن ضباط بريطانيون كانوا قد زاروا لورنس في مخيمه كما تظهر صورة يعود تأريخها إلى 1918

" إنها كبسولة زمنية "

في البحث عن ميدان المعركة، لعالم آثار قليل الانضباط نسبياً أعتبر هذا الاكتشاف اختراق مهم (اكتشاف)، وبإعجاب وقليل من المبالغة قيمه نيل فاولكنر علم الأثار ورئيس قسم " مشروع الثورة العربية الكبرى "، أعتبرها لا تقل أهمية عن اكتشاف قبر توت عنخ آمون لعلم الآثار المصريات.**(1)**

ويعتقد جيرمي زيلسون، المختص بسيرة لورنس، أن البحث مهم جداً، بل أنها " كبسولة زمنية " وخلافاً لمعظم مخلفات وآثار الحرب العالمية الأولى، تلك الآثار التي عثر عليها في الصحراء الأردنية، ومضى عليها نحو مئة عام دون تغير (منذ عام 1918).

ولورنس الذي تعلم اللغة العربية منذ شبابه حين عمل كآثاري في الحفريات في سوريا، التحق بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914، في الخدمة السرية ضمن الاستخبارات البريطانية (Intelligence Service)، وبعد عامين (1916) انطلقت الثورة العربية ضد الهيمنة العثمانية، وكان لورنس برتبة ملازم، أوفد للعمل كضابط ارتباط بسبب معارفه اللغوية مع الثورة.

وسرعان ما أتضح، أن العرب كانوا لا يقاتلون بشكل كفوء، فعمل على إعادة تنظيمهم، وجهزهم بالأسلحة، وعلمهم تكتيكات الهجمات التخريبية السريعة على طرق المواصلات العثمانية، مما أدى إلا زعزعة أوضاع الجيش العثماني الحليف للألمان. وبسبب أعماله رقي إلى رتبة العقيد. **(2)**

كان لورنس يعلم أنه لا يخبر الحقيقة للمقاتلين العرب. أن بريطانيا وفرنسا لا تؤيدان استقلالهم، وأن شهرته التي حصل عليها بفضل المراسل الحربي الأمريكي لويل توماس لن تغير من الأمر شيئاً.

انسحب لورنس عن الحياة العامة، تحت أسم مستعار، ونشر مذكراته في كتاب يحمل عنوان " أعمدة الحكمة السبعة "، ولكنه كان يريد أن يعيش بهدوء، وهو لما لم تحترمه الصحافة البريطانية.

وأخيراً جرى تخليد لورنس من خلال الفلم الأمريكي " لورنس العرب " الذي تم إنتاجه عام 1962، ومثل فيه دور لورنس الممثل بيتر أوتول، حاز الفلم على سبعة جوائز للأوسكار، ومن خلال إيجاد بقايا المعسكر، كان هذا يدعم إلى حد ما الأسطورة.

الهوامش:

1. هذه حقاً تنطوي على مبالغة وربما شديدة، فما هي أهمية إيجاد آثار غير موثوق عائديتها، لحدث ليس عظيم الأهمية .... إنها مبالغة لا تليق بعلماء وأساتذة./ المترجم

2. هنا مبالغة أخرى، فلورنس لم يكن عسكرياً محترفاً ليعلم الثوار الخطط، وكان يعمل في صفوف الثوار عدد كبير من الضبط وبعضهم برتب عالية (مقدم ـ عقيد) وكان بعض هؤلاء قد درس في الكليات الحربية، وكليات الأركان التركية والألمانية والنمساوية. ولكن الصحيح هو كانت ينقل رغبات إدارة الحركات العسكرية، كما كانت مهمته تزويد الأسلحة مهمة.

****

.3

Archäologie Wie Oppenheim und Lawrence um Arabien kämpften

آثاريون كأوبنهايم ولورنس قاتلوا من أجل العرب

تقرير كتبة : برتولد زيفالد (Bertohld Seewald)

ترجمة : ضرغام الدباغ

تاريخ النشر : 28 / كانون الثاني / 2011

مع خمسة من المهندسين المعماريين، و200 من العمال المحليين، حاول أوبنهايم (Oppenheim) وهو آثاري ألماني أبن أحد رجال البنوك في مدينة كولن، حاول في الحرب العالمية الأولى، تعبئة العرب ضد بريطانيا .

وفي النهاية وقفا أمام أنقاض ما أنجزاه. أحدهما كان توماس لورنس، (1888– 1935)، أشتهر بأسم لورنس العرب، كان يريد أن يحقق الحرية لبدو سورية، ولكن القوى الكبرى كان لديها خططها الخاصة. والآخر هو ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim) (1860 – 1946) وه من أكتشف قصر أسطوري، هذه القطع الفنية أهدها لمتحف برلين، وحلمه تحطم في 23 / تشرين الثاني / 1943، عندما سقطت قنابل فسفورية على البناية في محلة شارلوتنبورغ، شارع فرانكلين ببرلين، وفي محاولة إطفاء الحرائق، تحطمت الأعمال الفنية إلى ألاف القطع، وهكذا انتهى حلم هذا الآثاري إلى كابوس.

لورنس وأوبنهايم كلاهما من المعجبين بسحر الشرق وحضاراته، التي تختفي تحن رمال تلوله. كلاهما أستسلما لأحلامهما، فهما لما يكونا يبحثان فحسب، بل تعمقا في تاريخ وواقع بلدان المشرق، كما أنهما التقيا وأصبحا أعداء.

هذه هي حكاية المعرض، " إنقاذ الآلهة من قصر تل حلاوة وهو ما يعرض اليوم في صالات متحف البيرغامون (Pergamon museum) في جزيرة المتاحف ببرلين. والأخرى هي جريمة علمية، طيلة عشر سنوات هو ما اشتغل عليه الآثاريون والمرممون، بجمع 27,000 قطعة التي كان قد جمعها أوبنهايم وتحطمت، ونجحت الأعجوبة. **(1)**

تم أحياء واستعادة أكثر من عشرين من المنحوتات الحجرية الضخمة، ، والآن صار ممكناً مع 250 قطعة أخرى من بينها العديد قطع مستعارة، عرضها لأول مرة للجمهور، قبل أن تسحب مرة أخرى حتى الانتهاء من الجناح الرابع لمتحف البيرغامون / برلين، أي ربما بعد نحو 15 سنة، لتعرض وتزين في المدخل المتحف الآسيوي، لأنه مع ظهورها ستكون جزيرة المتاحف قد اكتملت. وهو بنفس الوقت انحناءة تقدير لروح علم الآثار بشخص ماكس فون أوبنهايم .

أوبنهايم كان مواطناً كبيراً، أبن البرت فون أوبنهايم شريك في أحد بنوك مدينة كولن. كانت رغبة الأب أن يدرس ولده ماكس القانون، ويستطيع بها أيضاً أن يكسب المال، ولكن هذا لم يوافق الابن، وسرعان ما حقق اوبنهايم شوقه إلى الشرق، سافر أولاً إلى المغرب (مراكش) وهناك أرتدي الثياب الوطنية وزار المساجد وهناك أتقن الحديث باللغة العربية، ، وهكذا أصبحت لحياته أبعاد وأشكال جديدة. وتزوج أوبنهايم، وعاش في القاهرة 13 عاماً أعتبرها من السنوات الممتعة.

على الرغم من أن أوبنهايم لم يتلق تدريباً دبلوماسياً، إلا أنه استطاع أن يقنع وزارة الخارجية الألمانية بفائدته، وكان القيصر فيلهام الثاني معجباً بالشرق، خلق نوعاً من التوجه صوب الشرق. وأوبنهايم فعل الكثير لإقناع مرؤوسيه، ومن تلك كشفه للعديد من الاكتشافات الأثرية، وهي قضية سعت إليها القوى العظمى في ذلك الوقت في إطار منافساتها الإمبريالية .

عام 1899 زار أوبنهايم تلال ووادي حلفا، في شمال شرق سوريا. وقد أستطاع بسرعة أن يدرك أنه على أرض تاريخية، وبعد أن قدم والده 15 مليون مارك (من ماركات الرايخ القديمة) وابتدأ بالحفريات، وليس كما فعل هاينريش شليمان، أعترف أوبنهايم، أنه كحفار، دمر أكثر مما أكتشف. وأستخدم أوبنهايم الكثير من علماء الآثار والمصورين والأطباء والمئات من العمال من السكان المحليين.

تل حلفا يعطي اليوم فئة كاملة من الأسماء

وما خرج إلى النور منذ عام 1911، وحتى بعده، وظهر أسمه في عناوين الصحف، والممول البرليني لحفريات بابل جيمس سيمون قال " لأنه كان محضوضاً ، بقدر ما واجهنا سوء الحظ نحن في بابل" قلاع وحصون وقصور، وأعمال فنية خرجت إلى النور، وإلى جانب ذلك كان أوبنهايم قليل الاهتمام للخزفيات، التي هي اليوم دار اهتمام الاثاريين ويمنحون أسم الخزف لفترة من التطور في الشرق الأدنى.

ما أكتشفه أوبنهايم وفريق عمله، كان مذهلاً بما يكفي، وفي موقع تل حالف (Halaf) وجدوا بقايا كرسي الأمير الآرامي. وكان الآراميون عام 1000 ق.م، قد قاموا بغزو الفراغ الذي خلفه، السقوط الحيثي. واخذوا عنهم تقاليدهم وكتابتهم، وتمكنوا من الحفاظ على حريتهم حتى القرن الثامن ق. م من الدفاع بوجه الإمبراطورية الآشورية. حتى تم تدمير البلدة وقلعتها حوالي 750 ق.م . وضمن أنقاض القصر كانت هناك الكثير من الأعمال الفنية، نجت من التدمير أو السرقة بفضل الأنقاض التي انهارت عليها وهكذا تم نجاتها.

في ذلك الوقت تعارف لورنس وأوبنهايم في الحفريات بالقرب من قرقميش، ولم يكن هناك تعاطف بين الاثنين، وكان الوضع الألماني وكذلك النجاحات جيدة. وبعد سنوات قليلة، التقوا مرة أخرى خلال الحرب العالمية الأولى، وكان لورنس قد أصبح بطل العرب، وأوبنهابم كان عام 1914 قد أصبح في ال54 من عمره، وحاول بالدبلوماسية والدعاية أن يضع حداً لكاريزما الضابط البريطاني.

وعبرت عبقرية أوبنهايم عن نفسها، من خلال إنجاز آخر، قام في الفترة من 1927 وحتى عام 1929 بالحفر مرة أخرى في تل حالف، وأستطاع أن يقنع السلطات أن يتركوا له العديد من القطع، مع العلم أن المتحف الحكومة أللألماني أشار عليه أن المساحة المتبقية للعرض قليلة جداً، لذلك قام بدعم من الأسرة ببناء متحفه الخاص.

وباقي القطع، كانت مودعة في مستودع في برلين ـ فريدريش هاغن، حتى عام 2001، وبمساعدة مؤسسة أوبنهايم والمؤسسة الألمانية للبحوث تمكنوا أن يجدوا مكاناً لأغلب ال 27,000 الف قطعة

المتبقية. وجرت عملية ذكية أعمال إعادة تركيب القطع وعرضها، أعيد ترميمها بدقة تماثل ما حاول الأمراء الآراميون في تصوير آلهتهم ومخلوقاتهم الأسطورية. ترميم الأسود، وتماثيل الآلهة، المصنوعة من البازلت باليد، وليس بالكمبيوتر .

هوامش

1. جزيرة المتاحف : في قلب برلين، ينقسم نهر الشبريه إلى فرعين مخلفاً جزيرة كبيرة يطلق عليها جزيرة صيادي السمك (Fischer Insel) يقطعها من الوسط الشارع الشهير أونتر دين ليندن (شارع الزيزفون)، المقطع الشمال تحتله خمسة متاحف : آلت موزيم، ناسيونال غالري، بيرغامون موزيم، بودا موزيم، ومتحف التاريخ الألماني. وهناك متحف سادس قيد الترميم من آثار القصف في الحرب العالمية الثانية.

4

الحرب العالمية الأولى : لورنس وآرونسن يتشاجران في فلسطين

Erster Weltkieg Lawrence und Aaronsohn stritten um Palästina

تحرير بيني موريس (Benny Mprris)

تاريخ النشر : 4 / تشرين 2 / 2007

ترجمة : ضرغام الدباغ

كجواسيس أو منتمين إلى جماعات متنفذه، كانت مهمات توماس لورنس، وآرون آرونسن من عام 1914 فصاعداً، متشابهة، ولكن في جهتين متعاكستين. ويثير كتابان أي منهما كان يمكن أن يحقق السلام في الشرق الأوسط. ولكن في النهاية كلاهما فشل في تحقيق ذلك.

قصة توماس لورنس معروفة على نطاق واسع (لورنس العرب)، الذي قام خلال الحرب العالمية الأولى بقيادة الانتفاضة العربية ضد العثمانيين، ثم مثل القضية العربية في مؤتمر باريس للسلام، والنهاية كانت غموض شديد.

وخارج إسرائيل، تكاد قصة آرون آرونسن غير معروفة، حول فلسطين والصهيونية، والعلماء، والتجسس ومنظمة (NILI) والتي مكنت البريطانيين من تحقيق الفوز على العثمانيين. ومن ثم مثل المصالح الصهيونية في مؤتمر السلام، قبل أن يلقى مصرعه في حادث سقوط طائرة يلفه الغامض عام 1919.

(الجاسوس آرون آرونسن)

مؤلفا كتابين جديدين : رونالد فلورنسا (Ronald Florence) الأكثر صراحة، وباتريسيا غولدستون (Patricia Goldstone) الأقل صراحة، وبأرتباط آرونسن مع قصة لورنس، من أجل تمجيد البطل، (وربما أن هذا مفيد لتسويق كتابهما) والرابط يخدم أيضا فكرة إعادة النظر في تاريخ الشرق الأوسط خلال وبعد الحرب العالمية الأولى، وإعادة تشكيله، وتحضير أفاق أثنين أو ثلاثة بدائل ليسوا أتراك.

التاريخ ...الذي خلال مجراه، ينطوي على إعادة تشكيل الجيوبولتيكي للشرق الأوسط الذي نعرفه اليوم، يدور حول ثلاثة وعود بعضها متناقضة، قطعتها بريطانيا خلال القتال. فوعدت العرب في حال انتصار الحلفاء، بالاستقلال لجميع الدول الناطقة باللغة العربية تقريباً التابعة للإمبراطورية العثمانية.

فرنسا وعدت البريطانيين بالسيطرة المباشرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط من صور(لبنان) إلى سوريا (اللاذقية)، إلى الكسندريتا (انطاكية) ومرسين (جنوب تركيا)، وبشكل غير مباشر للمنطقة التي تشمل منطقة عبر سوريا إلى الموصل (شمال العراق)، وسيطرة مشتركة على البلد المركزي فلسطين. وتعهدت الحركة الصهيونية للبريطانيين الذين وعدوا بتحقيق الوطن القومي لليهود في فلسطين.

وكان قسم الشرق الأوسط في مؤتمر السلام 1919، منشغلاً بدرجة كبيرة بتطويق أزمة الوعود البريطانية التي انتهت إلى نظام انتداب، وتواصلت حالة العداء العربي للبريطانيين (والغرب عموماً) متهمين لياهم بنقض وعودهم.

ونسي العرب أن الوعود البريطانية كانت مقابل قيام انتفاضة عربية وتمثل الجانب الأساسي في هزيمة الأتراك، ولكن الثورة جاءت فقط " جذب من هنا وجذب من هناك " كما شرحها لورنس. (1)

وفي الواقع، وكما أشار رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج لاحقاً، أن القوميين العرب من دمشق وبغداد والقدس وحلب، قد اختفوا ببساطة، طالما كانت الحرب مستعرة، فيما بقيت الغالبية العظمى من السكان مخلصة للدولة العثمانية ويتمنون بانتصار المسلمين على الكفار. (2)

(الجاسوسة سارة آرونسن)

وهكذا تم الأمر بإعطاء الشريف حسين السيطرة على الحجاز، وتنصيب أبنه فيصل في دمشق، كان البريطانيون قد أوفوا بالجزء المتعلق بهم من الصفقة.

لورنس كان عنصرياً في زمنه

الرجل الذي كان حريصاً أن لا تخلف لندن وعودها، وساعد فيصل على تأسيس دولته في دمشق وبغداد، كان لورنس، ولم يكن للورنس رأي إيجابي عن " القومية العربية "، فقد كتب عام 1925 حول سورية، عندما أوفد إلى باريس للقاء الحزب القومي العربي، أن هذا من وحي خياله فحسب.

صحيح كان لورنس يكن تعاطفاً كبيراً مع اليهود، وكان معجباً برواد الحركة الصهيونية، وكتب في رسالة لوالدته عام 1909 " فلسطين كانت يوماً دولة مهمة، ويمكن ببساطة إعادتها . وكلما عجل اليهود بذلك كان أفضل، ومستعمراتهم هي أنوار مشعة في الصحراء ".

كان يشاطر الرأي، لطبقته وعصره، وكتب عن اليهود الألمان " غير مقتدرين، في إقامة والحفاظ على الصلات مع الأعراق الأخرى، وعموماً هم من أكثر الناس الذين يبدون غرباء وغير محبوبين من مجموع السكان (فلسطين). (3)

الخوف من الأتراك

في باريس اعتقد فيصل، " مثل لورنس" ،أن الصهيونية يمكن الاعتماد على حسن نواياهم، وفي رسالة جوابية من لورنس في 1 / آذار / 1919، إلى فيلكس فرانكفورت، يكتب فيصل " سنرحب باليهود ترحيباً حاراً، الحركة اليهودية هي حركة وطنية وليست إمبريالية وفي سوريا مساحة كافية لكلانا ".

وفي بداية 1920، مضى فيصل في فكرة مختلفة، وندد بالصهيونية وأعلن عن نفسه " ملك سورية وفلسطين "وبعد ذلك بقليل، في آذار ـ نيسان / 1920 حدثت أولى الهجمات العربية على اليهود، وكان آرنسون في هذا الوقت قد مات. وكان قد ولد في رومانيا، وترعرع في فلسطين، وكان قد قام عام 1915 بتنظيم ما يسمى (NILI) من أجل مساعدة البريطانيين في تحقيق النصر.

كان يخشى أن ينتهي الأمر بأن ينقلب الأتراك على اليهود، كما انقلبوا على الأرمن في أسيا الصغرى، وكانت سارة شقيقة آرنسون قد سافرت إلى تركيا، وشهدت أعمال معادية للأرمن. وكان آرنسون يأمل بانتصار سريع للبريطانيين، ويعملون على تحقيق إقامة دولة يهودية.

آرنسون كان رسمياً المستشار التكنيكي.

عام 1916 سافر بمهمة لصالح الصهيونية وعمله التجسسي، إلى لندن والقاهرة، وكان الشخصية الأكثر بروزاً ومتفوقاً على شقيقته سارة. وفي عام 1917 أكتشف الأتراك الحلقة التجسسية، وشنقوا بعض أعضاءها، وتعرضت سارة للتعذيب الشديد، وعندما علم غولدنستون التفاصيل الدامية، غافل من حوله وانتحر.

وبين أعوام 1916 و 1919 تقاطعت الطرق بين آرنسون ولورنس في القاهرة ولندن وباريس، ولم يكن هناك شيئ يجمع بينهما، وآرنسون وصف لورنس " الأنف الحمراء الصغير " والمعادي للسامية " Antisemiten"، ولا نعلم كيف كان لورنس يصف آرنسون.

هل كانت كما كان، ففي عام 1918 حضر كلا الرجلان إلى باريس كمحامين (وسرعان ما كانت هناك عداوة صريحة) عن حركات قومية، كان دور لورنس واضحاً ومعروفاً، أما عن دور آرنسون، فيكتب مؤلفا الكتاب غولدستون وفلورنس، الكثير من الصفحات.

ومن الغريب، أن آرونسن كان رسمياً في عداد الوفد البريطاني، وكان مستشاراً لشؤون الشرق الأوسط للقضايا التكنيكية، ودعا للقضية الأرمينية، وكان إنجازه الرئيسي كان تقديم الوفد الصهيوني برئاسة وايزمان، وناحوم سوكولوف، ومعهم خارطة تحدد أهدافهم الجيوسياسية.

جاسوسان وطروحات جريئة

كانت خارطة آرونسون لا تستند إلى الحقوق التاريخية أو الانتماءات الدينية، بل إلى الحقائق الاقتصادية، والواقع والمصادر المائية.آرونسن كان يريد إقامة دولة يهودية تشتمل على المصادر المائية المركزية في فلسطين والأردن وبحيرة طبرية (بحر الجليل).

غير أن المنتصرين، كانوا ينظرون للأمر من زاوية مصالح أخرى، حشروا فلسطين في المنطقة الممتدة البحر المتوسط، والأردن، والحدود الفلسطينية ـ اللبنانية لعام 1923 في الشمال، وحدود سيناء والنقب لعام 1906، وعربة (وادي عربة) في الجنوب. كانت هذه معالم فلسطين تحت الانتداب البريطاني حتى عام 1948. آرنسون ولورنس لم يشطبا على سيرتهما القصيرة كجواسيس، بل وأيضاً كسياسيين، وناشطين في الكتل .

هوامش

1. تفسير مدهش لتنصل البريطاني الغربي من وعودهم للعرب ، ففي الوقت الذي كانوا يعدون العرب، كانوا يخططون لتقاسم النفوذ والمصالح، ويمنحون اليهود دولة قومية من أرض العرب.

2. ياله من تزوير فاضح للتاريخ ..! ...أين أختفى المثقفون العرب ؟ ببساطة لم يختفوا بل كانوا عماد ثورة الشريف حسين، والحكومة الفيصيلية في دمشق، ولكن تبرير الخديعة بالكذب هو أسوء من الغش نفسه.

3. فكرت للحظة أن أتوقف عن ترجمة هذا النص أو نشره، لما وجدت تحيزاً فاضحاً غير واقعي وغر علمي، ولكن هذا المقطع وما سبقه، يلقي الضوء على العقلية العنصرية والاستعمارية.

35. العالم ما بعد كورونا .....!

قبل نحو عام من اليوم، وبنظرة متابعة للمواقف السياسية والاقتصادية والثقافية / الاجتماعية، فتحت ملفاً (Folder) في الكومبيوتر بمكتبي، تحت عنوان " عالم ما بعد كورونا " وبدأت بإيداع المعطيات والمعلومات والتقارير عن هذا الموضوع وتداعياته على كافة الأصعدة، وقد بلغت حتى اليوم 182 بحثا وتقريرا باللغات : العربية، والأكثر باللغة الألمانية، والقليل باللغة الانكليزية.

ورغم أن تقديراتي من البدء كانت تشير إلى أن معركة الكورونا (Covid 19)سوف تكون طويلة، ونتائجها ستكون عميقة الغور، إلا أن لابد من القول أن الأمر تجاوز التوقعات الأولية بكثير، حتى بدأت أسجل مشاهدات عيانية وأحداث تحدث معنا في الحياة العامة، رغم أننا نعيش في وسط متحضر، يستبعد حدوث انعطافات حادة. إلا الأحداث تترى بشكل تدفعك للتنبوء لتدرك معها طبيعة المرحلة المقبلة و ملامح العالم بعد كورونا.

وأولى تلك الظواهر المعتمدة منذ الآن، هي التعليم عن بعد باستخدام الدائرة الفيديوية الذي بدأ ينتشر ويفرض نفسه بطريقة نجد أن التراجع عنه لم يعد ممكناً، واليوم يجتمع الطلبة والباحثون مع أساتذتهم باستخدام الهاتف المحمول الذكي (Smartphone) بكل سهولة وعملية، وحتى يمكن إجراء امتحانات وجلسات دفاع عن رسائل ماجستير واطاريح دكتوراه، ومحاضرات. واليوم ينتشر أكثر فأكثر التسوق (Online) والتسوق يبدأ من يشاء التسوق اليومي للمواد الغذائية إلى شراء الالكترونيات والأثاث، وما تشتريه يصلك إلى البيت. وقد يسرت البنوك استخدام البطاقات الدفع بكل سهولة.

هذا ناهيك عن الكتالوكات التي تصل إلى صندوق بريد بيتك، وهي تحمل لك ما موجود في البلد من تجارة وبيع ومودة، وكل ما يخطر على البال، والمحلات الكبيرة بكافة الاختصاصات (ملابس، أثاث، الكترونيات، مواد غذائية، صيدليات، مطاعم ... الخ) لها مواقع على الانترنيت تخبرك على مدار الساعة المعروض من منتجاتهم ومبيعاتهم. وهنا أشياء أخرى كثيرة لا تخطر على البال. وحتى المواد المستعملة أو الجديدة، وكل ذلك خلال لحظات وبسهولة تامة. والاستخدام الواسع لقضاء الحاجات(على اختلافها) عبر (Online) سيسهل من جهة التسوق والشراء، ولكنه سيقلل من جهة أخرى الصلات (contact) بين البشر أفراد المجتمع، ولهذا الأمر فوائده القليلة، ومضاره الأكثر ..! وهذا على الأرجح لمصلحة قادة الأنظمة على اختلافها الذين يعتقدون أن المضار تنجم عن لقاء البشر.

والنتائج ستكون اعتماد متزايد على التعامل عن بعد، وبذلك نلاحظ اليوم محلات ضخمة ثمل استثمارات عملاقة في عالم التسوق (Shopping) تعلن عن تصفيات وغلق الأبواب، كمركز التسوق العملاق ذو الفروع الكثيرة في برلين وعموم ألمانيا (Karstadt) فلا طاقة لهذه المحلات دفع نفقات تشغيل (رواتب للعاملين، تأمينات، إيجارات، مصروفات طاقة، تقادم البضاعة المخزنة لدرجة تقارب التلف) والكثير من المطاعم والمقاهي تغلق أبوابها، ولا أحد يدري متى ستعود الفعاليات الاجتماعية الثقافية إلى النشاط، مثل السينمات، المسارح، حفلات الموسيقى والغناء، السيرك. فهذه الآن ومن العام المنصرم تعبر من الذكريات الجميلة. وفي مفردات هذه المواقف ستؤدي إلى تناقص عدد المواليد الجدد، وبالتالي اعداد السكان، وتقديرات القوى العاملة والإنتاج الصناعي خاصة. وهو ما بدأت المراكز الصناعية تشكو منه.

في ألمانيا تسجل أرقام مقلقة حقاً لجهة الإصابات، أو لحالات الوفيات، وهو ما يدفع الحكومة لاتخاذ قرارات صعبة لا تودها، ولكن الموقف الصعب يفرض إجراءاته. ولكن دائماً تجد هناك من يحاول التمرد على النظام، ومن تلك أيضاً انهيار التقاليد الاجتماعية، فحجم الإصابات بلغ **(22,123)**، أما حجم الوفيات اليومي (15/كانون2) المرتفع جداً **(1511)** يدفع بعض الناس حبا بالحياة إلى ممارسات مجنونة، من تلك

مثلاً حفل جماهيري أقامه المثليون، للمرة الأولى نشاهد رجال ونساء مثليون عراة بشكل تام، وبعضهم مارس الأفعال الجنسية أمام عدسات المصورين ..! والشذوذ ينتشر بشكل ملفت للنظر، بما يشير أن الشذوذ سيصح أمر أكثر من طبيعي، في المستقبل القريب. وهو أمر سيكون له تداعياته الاقتصادية والثقافية وبدرجة ليست بسيطة.

جائحة كورونا عالمياً تؤشر إلى حرب عالمية من طراز غير معهود، فلماذا القصف وتهديم المدن، وتمحو آثار ثقافية مهمة، فايروس كورونا (Covid 19) يقوم بما يلزم وأكثر . والأرقام لغة صعبة تتجاوز التخفيف والمواساة، وتشير هذا اليوم (16/ كانون الثاني) في جميع أرجاء العالم إلى **(94,132,992)** حالة وفاة، وإلى حالة وفاة **(2,015,323)**. وهي أرقام فاقت معدلات الخسائر والإصابات بالأرواح في الحرب العالمية الأولى. تتقدم الولايات المتحدة، والهند والبرازيل، وروسيا، والمملكة المتحدة الدول من حيث حجم الإصابات والوفيات.

كان البروفسور جون نيف (John Nef) عالم أمريكي مهم (أستاذ في جامعة هارفارد) قد ألف كتاباً في غاية الأهمية بعنوان " الحرب والتقدم البشري "(War and Human Progress) والكتاب يمثل مجهود علمي خارق قام المؤلف بإدخال تعديلات كثيرة عليه وأعتقد صدر بطبعاته اللاحقة في الخمسينات في جزئين، ترجمته وزارة الثقافة والإعلام العراقية إلى العربية في الثمانينات، والكاتب يثبت بدقة وعلمية، أن الحروب هي من كوارث البشرية، ولكن كل حرب تعقبها تقدم ومنجزات علمية. ولو لاحظنا اليوم بعين فاحصة كم هي المسافة بعيدة بين 1970 وعام 2020 ، وتبدو لنا وكأنها قرون، وليست مجرد نصف قرن، ومن هنا يحق لنا أن نتوقع أن العقود المقبلة وحتى عام 2050 ستكون حافلة بمنجزات علمية وثقافية، وستندحر بطريقة مهينة أفكار الخرافات والجهل، وإرادة القوة والتعسف ستكون محتقرة ومدانة، والبشرية سوف ترفض الأشكال البدائية.

ولكن من جهة أخرى يدفع تفاقم الجائحة وضحاياها، آخرون إلى الشراسة والعدوانية، وهذا سبب غير مرئي، لتصاعد موجة اليمين المتطرف في أرجاء كثيرة من العالم (الولايات المتحدة، بريطانيا، هولندة، ألمانيا، فرنسا ..الخ) . وهذا التيار يحفز بالمقابل التوجهات الوطنية والقومية وتصاعد التعايش الاجتماعي ونبذ الصراعات. فاليمين المتطرف يروج لفكرة تخفيض سكان العالم إلى 2 مليار نسمة، وهناك جهات تروج لفكرة أن العقود المقبلة ستكون حافلة بالأمراض والأوبئة من شاكلة كورونا، وربما بما هو أشد.

الفضاء الخارجي سيزدحم بالأقمار والمركبات، ومشروعات تأهيل أجرام وكواكب، إذ لا ريب أن العالم سيزدحم بالسكان، فمن غير المعقول أن يتجاوز العشرة مليار نسمة، ونحن منذ الآن على أبواب هذا الرقم ..! وستكون هناك شحة في المياه، وبالمقابل سيتصاعد منسوب ومستوى سطح البحر، مما سيتسبب باختفاء أراض كثيرة من دول، بل ربما ستختفي بعض الدول، بسبب حرارة الأرض وانبعاث الغازات الدفيئة، وذوبان القطبين (الشمالي انتهى أمره) والقطب الجنوبي مهدد. ستختفي حيوانات كثيرة ربما القليل منها سيتكاثر بواسطة حدائق الحيوان.

ما أقصده ليس إثارة اليأس، بقدر ما أريد التنويه أن نحتكم العقل والعلم، وأن نبعد المخرفين فهؤلاء لن يوصلونا إلى أبعد من مدى رؤيتهم القصير بالطبع ...!

36. أفهمها كما تريد ...!

أشقائنا الشوام، عباقرة ودهاة في السياسة، ربما بالفطرة، أو أن ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية دلتهم على تعامل كثيف في السياسة والدبلوماسية، وهم يتعاطون هذا الفن الراقي بحرفية عالية، ولهم أمثلة وقواعد رائعة، وحيث يحتار الدبلوماسي في إيجاد عبارة لا تلزمه بموقف، أو ما لا يريد أن يصرح به، فيطلق جملة ويدعك تحتار في معانيها ومغزاها، وماذا يريد، ولكن اليوم ليس يوم دبلوماسية ولا تعامل عبقري، فالناس قادمون وبيدهم سكاكين شحذوها بصورة رهيبة.

وحسب نظرية الكلاب البوليسية، الكلب الذي يختص بكشف المخدرات يجعلونه يدمن المخدرات، فيعطونه كميات منها حتى يدمنها إدماناً ساحقاً لا مفك منه، ثم يأخذونه للواجب، فبالإضافة إلى غزيزته الخرافية في قوة الشم (30 مليون مرة أعلى من الإنسان) هناك الأمساك عن التناول حصته، فيشم المخدرات حتى لو كانت في أكياس نايلون أو مغلفة بأي حاجة، ومن مسافات بعيدة، وعندما يشخص الحقيبة، يكاد يمزقها تمزيقاً، وإذا كان حامل المخدرات إنساناً، فيجن جنون الكلب ويكاد يمزقه، ولكن الشرطة الأوربية بشر، هم يريدون المخدرات وليس حاملها، فالقانون والمحاكم تتكفل بالحائز على المخدرات أو المتاجر بها.

رباط الحديث ....!

من الجمل السحرية التي يتداولها أهل الشام **" أفهمها مثل ما بدك "** تجنباً لإطلاق ألفاظ صعبة ..! وأعتقد أن هذه الجملة تواجدت في المجتمعات العربية أيضاً، وفي العراق أيضاً .. وهناك جمل أخرى كثيرة على هذه الشاكلة بل أدهى وأمر ... ! أعد قرائي بأن أسردها لهم وقت الحاجة مستعيناً بحكمة عبقرية في السياسية والدبلوماسية وهي للخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان : **" عزمت أن لا أستخدم سيفي حيث يكفيني سوطي، وأن لا أستخدم سوطي، حيث يكفيني صوتي "..**

مناسبة هذه المقدمة .. أو رباط الحديث .. هو أني قرأت مقالة مهمة للمدعو جورج فريدمان، وهذا الرجل من مهندسي وعلماء العمل الاستخباري الأمريكي، وفي هذا المقال الذي هو بعنوان : **" تحالف أقل من المقبول "**، يتحدث صراحة تامة (إلا شوية، يدع شيئاً منها لذكاء القارئ) ومن هنا استخدامي للمقول الشامية **" أفهمها مثل ما بدك "**، وباختصار شديد، فليعلم كل عربي وكل مسلم أنه هدف موضوع وسط علامة (+) والقناص ماهر، والمسألة بالنسبة له مسألة وقت. ويبدو أننا قد تعرضنا لأختراقات في أكثر من مكان، حتى ممن كنا نعتبرهم من عظام الرقبة .. يا للأسف .. وسوف لن يبقى متمسك بهويته إلا من هو بصلابة ونقاوة الماس، وسنشهد في المقبل من الأيام مشاهد عجيبة لا تدخل الدماغ، فكما لا حدود لخيال قادة معسكر الإبادة والقتل، كذلك أبتدأوا العمل في الجانب (الثقافي)، بطبع قرآن جديد هو قيد التوزيع، وتأسيس مساجد على هواهم، تأم نساء المصلين والمصليات، يحضرها رجال ونساء سافرات، وشاذين جنسياً يصلون معاً بروح وممارسة وثقافة ليبرالية، وقد شرعوا بتدريب علماء وأئمة من هذا الطراز، ولكن في الأخير سوف لن يصح إلا الصحيح .

والآن إليكم مقالة جورج فريدمان، إقرأوها بإمعان وأفهموها مثل ما بدكم .....! المسألة لا تحتاج لكثير من الذكاء، ولا لمحلل سياسي أريب .. سهلة وتفهم على الطاير، الصعوبة فقط تكمن في مسألة واحدة فقط ..... في أن تختار موقعك من المباراة ... مهاجم، مدافع وسط، شبه وسط، حامي هدف .... مشجع ... متفرج، أو ربما أخذتك النومة أو تناومت أو تكاسلت وفضلت البقاء في البيت تتفرج المباراة على

التلفزيون الملون ذو الشاشة العريضة ...! كالقائل الجلوس على التل أسلم .. ولكن ليس بالضرورة الجلوس على التل عاصمك من الخطر ..! ليس بالضرورة أن تذهب أنت للخطر ... الخطر هو بنفسه سيأتي إليك ...! أنتبه حتى لو تملقته فهو سيدرك أنك تريد أن تنقذ رأسك فقط، دون كل ما تملك .. سيوفرك لبرهة، يلعب على أعصابك، ولكنه سيستغني عنك... انتبهوا .. تبينوا مواقعكم وما أنتم فيه وما أنتم فاعلون ...!

تحالف أقل من المقبول

جورج فريدمان / المقال الأسبوعي : 4 / حزيران / 2017

ترجمة : ضرغام الدباغ

لقد مضت ما يقرب من 16 عاما تقريباً منذ أن ردت الولايات المتحدة على أحداث 11 سبتمبر من خلال الذهاب إلى الحرب في أفغانستان، و 14 عاما على غزو الولايات المتحدة للعراق. في حروب لم تكن ناجحة، وليس هناك سبب يدعو للاعتقاد بأنها سوف تنجح إذا استمرت في محاربتها كما تفعل الآن.

في الواقع، لقد مضى بعض الوقت منذ أن خاضت الحرب مع توقع بالنجاح. لقد قاتلوا إلى حد كبير، ذلك لأن كل من جورج دبليو بوش ولا باراك أوباما لم يكونا على استعداد لقبول الفشل، لأن عواقبه المحلية سيكون لها وقعها في الولايات المتحدة، ولكن هناك أيضا خوف مشروع له ما يبرره، من أن التخلي عن الحروب سيؤدي إلى إنشاء دول إسلامية متطرفة في المنطقة وستؤدي إلى إسقاط الحكومات التي تعتبرها الولايات المتحدة، في أحسن الأحوال، أفضل من الراديكاليين.

تحولت الحروب إلى نمط كان هدفه الأساسي هو مواصلة الضغط على تنظيم القاعدة وحركة طالبان، والآن هناك الدولة الإسلامية، ورغم تدمير قدراتها في بعض المناطق، ولكن تدمير تام لهذه الجماعات نفسها كانت أفكار أمنيات. ولم يكن لدى الولايات المتحدة ما يكفي من القوة، على المسرح للقضاء على مجموعات مثل طالبان والدولة الإسلامية. وكان من الخطأ الاعتقاد بأن تدمير المنظمات يعني تدمير الحركة الجهادية. وبدلا من ذلك، ولدت حاملي راية جدد للحركة. وفوق ذلك، أصبح التفكير بأن هذه العمليات قد أدت إلى انخفاض حجم نشاطها الإرهابي، فكرة مشكوك فيها. حتى إذا لم تكن هناك هجمات بمستوى 11 سبتمبر ـ أيلول، ولكن كانت هناك عدة هجمات صغيرة، تواصلت واستمرت رغم الحروب.

تقديرات خاطئة

الخطأ الجوهري للولايات المتحدة تمثل بتحديد طبيعة المشكلة. ومنذ البداية ركزت الولايات المتحدة على المنظمات التي قامت بتوجيه الضربات، وسعت لقتل قيادات وأعضاء هذه المنظمات، وبالتالي سعياً لتدمير المنظمات نفسها. وكان هذا نتاج لسوء فهم التحدي المطروح، والمنظمات لم تكن سوى تمثيل لذروة رمح كبير للغاية، وإذا كسر رأس الرمح، فإنه سوف يستبدل بآخر جديد. وبغض النظر عن عدد

المنظمات الإسلامية الراديكالية التي دمرت، فسوف سيظهر البديل الاحتياطي من الأعضاء المجهزين لمواصلة النضال.

والمشكلة لا تكمن في المنظمات، بل في فئة (طائفة) من المسلمين، وتغلغل التيار الجهادي في مجتمعات أفغانستان، والشرق الأوسط. والطريقة الوحيدة للأنتصار على حركة الجهاد، هو دخول المجتمعات الإسلامية واقتلاعها من الجذور, ولكن هذا لم يكن ممكناً لطبيعة حياة جنود جيش الولايات المتحدة، الذين لم يكنوا يعرفون طبيعة الجهاديون، كما أن الجنود الأمريكان، نادراً ما يتحدثون اللغة المطلوبة، وهم بصفة عامة ليسوا مسلمين، وليس لديهم تفهم لهذه الثقافة.

تشكلت الاستراتيجية الأمريكية في الستة عشر عاماً من : فعل ما تعرفه أميركا، ومما لا ينفذ أو ما كان ينبغي القيام به. ويقوم بالاستراتيجية (تخطيطاً)، أولئك الذين يتمتعون بالثقافة حقاً. وليس بوسع غير حكومات المنطقة من تحديد وتدمير الحركات الجهادية، وبدونهم، فكل ما ستحققه العمليات العسكرية الأمريكية هو خلق المزيد من هذه الحركات الإسلامية الراديكالية.

ومنذ بدء الالتزامات الأمريكية في الشرق الأوسط(الأنشطة السياسية والعسكرية)، كانت مواقف حكومات المنطقة متناقضة حيال الراديكاليين الإسلاميين. فمن ناحية يعلنون عدائهم حيال منظمات كالقاعدة، ومن جهة أخرى يظهرون التفهم لحركات أخرى قامت بالكثير من العمليات، ويبدون التردد أو يمتنعون من العمل ضدها. هذا الشيئ كان جزئياً، لأن أيضاً هناك من المواطنين الذين ليسوا بجهاديين، ولكن الجهاديون كانوا عندهم موضع إعجاب، ولم يكونوا خطرين بالنسبة لهم(للمواطنين)، إلا لجزء صغير من المجتمع. الغالبية من المواطنين كان تعاونهم مع الحكومة محدود.

وهناك أيضاً، التساؤل عن مدى استعداد الحكومات للمجازفة بزعزعة استقرار مجتمعاتهم في الهجوم على (كيانات/ وجود) متأصلة من تلك المجتمعات. وأحيانا اخترقت تلك الحكومات هذه الحركات. وفي بعض الحالات، قطاعات من الحكومة تقوض إجراءات التصدي لها (قمعها). بل وفي حالات أخرى، أجزاء من الحكومة دعمت الجهاديين، إما لحماية أنفسهم من النقد أو الهجوم، أو لأنهم ببساطة يشاركونهم جهة نظرهم.

باختصار، قد لا تنجح استراتيجية الولايات المتحدة. إذا ما طرحت الحركات الجهادية نفسها كحركة اجتماعية وكجزء من المجتمع، وبالتالي جزء من قاعدة اجتماعية تمثل الفئة الأوسع من المجتمع، والهجمات على هذه الحركات المنطلقة من هذه القاعدة (الجنود والشرطة)، سوف ليس لها سوى تأثير مؤقت. والمفتاح في حل الإشكالية هو في هجوم تشنه دول الشرق الأوسط على تلك البنية الاجتماعية في بلدانهم ذاتها، وسعي دول الشرق الأوسط في إرغامها لجيرانها لاتخاذ إجراءات قوية على نحو مماثل. وقد لا تعمل هذه الآليات، ولكن من دون مشاركتهم (بلدان الشرق الأوسط) لا أمل من النجاح في الحرب.

الخطوة الأولى

هذا هو السياق، إذ أعتقد أن قرار 5 حزيران (القرار ضد قطر)، الذي أتخذ من قبل حفنة من الدول العربية، التي تقودها المملكة العربية السعودية ومصر لعزل قطر. يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار، أو لنقل

بدقة أكثر، أن الإجراء هو ضد قطر، العمل ضد قطر كجزء من من محاولة تحول أستراتيجي من قبل بلدان الشرق الأوسط، التي كانت قد أرغمت من قبل الولايات المتحدة. والولايات المتحدة تطالب بالتغير أكثر من قطر.

وتمثل طلب الولايات المتحدة هو بإنشاء تحالف في الشرق الأوسط. والغرض من هذا التحالف هو أتخاذ جهود من أجل تغيرات جماعية، للقضاء على تدفق نهر الأموال من الدول الإسلامية إلى المقاتلين. وهذا لا يمكن التوصل إليه إلا إذا تحركت الحكومات في كل بلد والضغط على الجهاديين بقوة، وليس قضاء تمثيلي (شكلي) على جهاديين، والذين ينالون الدعم لأسباب مختلفة. وإذا حدث هذا يمكن كسب الحرب بعد هذه السنوات الكثيرة.

الرئيس الأمريكي دونالد ترامب أستقبل من قبل الملك السعودي سلمان بن عبد العزيز في مطار الملك خالد الدولي في 20/ أيار / 2017 بحفاوة. وطرحت قطر كمثال، والأمر يدور عن تحالف موجود، من مجموعة من الدول العربية، التي تعمل وتكافح ضد دعم الدولة الإسلامية. وكان الأمر أبسط لو جرى العمل على البدء تأسيس تحالف لإيقاف دولة أجنبية، ولكن هذا لم يكن الهدف، ولكن الهدف كان عدم التعامل مع قطر. وكانت هذه الخطوة الأولى باتجاه الهدف للبلدان التي كانت ضمن التحالف، ما إذا كانت الولايات المتحدة موافقة، مفهوم، ولكن من المهم أكثر حول هذا الموضوع، التأمل لماذا مجموعة من الدول الهشة كما في العالم العربي وصلوا هذا الحد من التعامل، بعد هذه السنوات الكثيرة، (وغالباً) بالأنحراف عن الهدف المطلوب، وأود أن أقدم إيضاحاً محتملاً :

أولاً : على ضوء الاستراتيجية الأمريكية، فإن هذه الحرب سوف لن تنجح أبداً.

ثانياً : حكومة ترامب تنفق في الحرب أقل مما فعله أوباما أو جورج بوش، وأوضح أن الولايات المتحدة ليست على استعداد لمواصلة الحرب، وهذا يعني بالتالي إن على العرب عليهم تكوين جبهة ضد الجهاديين.

ثالثاً : إذا أتفق العرب على حماية منطقتهم ومواقعهم، في غياب الولايات المتحدة، وفي تأسيس تحالف وإجراءات قوية، ضد قطر وفي أتخاذ إجراءات فعالة ضد التهديدات التي تتعرض لها مجتمعاتهم.

العرب لا يريدون مشاهدة الولايات المتحدة في هذا الموقف(الأبتعاد عن المنطقة)، فالقوى في الشرق الأوسط التي سوف تطلق هي كبيرة بالنسبة لهم أوسع مما تسعه قبضتهم. وفي الوقت المناسب، ستقوم الدولة الإسلامية (داعش) ومن يدعمها بتدمير النظم القائمة، والموقع المثالي للعرب هو أن تخوض الولايات المتحدة حرباً لا نهاية لها، في بلدانهم في ظل عدم اقتدارهم ضد الجهاديين وأنصارهم.

يبدو إن ما على الولايات المتحدة فعله، هو الاعتراف أن هذه الحرب لا يمكن خوضها لأجل غير مسمى، وأن الدول العربية سوف لن تجازف وتتنازل عن مستوى رفاهيتها. وإذا كانت الولايات المتحدة تريد أن تبقى في حالة حرب، فهناك نوع من المجازفة للعرب، أو أن يدعوا مجازفة أعظم المنطقة بدون القوة الأمريكية، وقطر هي بؤبؤ هذا التحالف العربي الذي سيقام، وانطلاقاً من هذا، فإن الولايات المتحدة تنتظر التزاماً شاملاً في العالم العربي للتعامل مع الجهاديين.

ولكن هناك مشكلة، فالأمريكان يريدون مشاركة عربية في الحرب، والعرب يريدون أن تكون الحرب ضد قطر، فوجهة نظر العرب أن الهجوم ضد الجهاديين في مجتمعاتهم هي كما يرى أغلبهم هو هجوم على المجتمع نفسه. وبالنسبة لحكومات أخرى في الشرق الأوسط هي مسألة تنطوي على مجازفة، تهدد مجتمعاتهم. وقد تهدد الولايات المتحدة بالانسحاب أو يحتمل أن يحدث ذلك فعلاً. ولكن العرب سيعبرون الجسر(ويحققون ما يريدون) إذا قبلوا ذلك (المشروع الأمريكي).

والأمريكيون يرون ثلاثة احتمالات، لثلاثة خيارات:

1. إما خوض الحرب إلى أجل غير مسمى.
2. وبإمكانهم مواصلة النضال جنباً إلى جنب في تحالف عربي أصيل.
3. أو ترك الأمر. الوقت ليس مناسباً للاستسلام لليأس، ولكن في نقطة معينة من الواقعية لابد من مواجهتها،

ـ الخيار الأول، ولحد الآن يبدو مستبعد، والأمل بالفوز هو جنون.

ـ الخيار الثاني غير قابل للتصديق، الثقة في العالم العربي للقيام بمجازفة تنطوي على الأخطار هو غير محتمل،

ـ لذلك فالاحتمال الثالث لحد الآن هو الأكثر ترجيحاً.

إنني أرى الوضع القطري، كمحاولة تفسير أمريكية لتجنب الخيار الثالث، إذا قبلت الدول العربية المجازفة، يمكن آنذاك كسب الحرب، وبوسع الولايات المتحدة البقاء، بل وتصعد من قوتها. وقد صاغت الولايات المتحدة طلبها لهذه اللحظة للحفاظ على العرب، ولكن هذا ليس سوى دفعة أولى، الفوضى ستكون أكبر عندما تغادر الولايات المتحدة الشرق الأوسط والفوضى ستكون أكبر من فوضى الاصطدام بالمجاهدين، ومساحة المناورات صغيرة، الخيارات والقرارات كبيرة.

37. الحلول الصعبة

يقال في علم السياسة، أن اتخاذ القرارات الصعبة، هي عملية تحتاج إلى عبقرية بالإضافة إلى الشجاعة. وإدراك للحظة التاريخية، قرارات يتخذها سياسيون محترفون، لا تخالط أفكارهم سوى التوصل إلى قرار يخدم القضية، يقلص من مستوى وحجم الخسائر، ويرفع من مستوى المكاسب، قرارات لا مجال للعواطف والأمزجة والاعتبارات الشخصية فيها، أو للمثل العاطفية الخيالية. قد يكون الظرف السياسي محتدم وصعب وساخن، ولكن على السياسيين أن يفكروا برأس بارد، وأن يدعوا الحماسة والهتافات، أو مشاعر الحزن والإحباط لغيرهم، للصحفيين أو لقادة التظاهرات الشعبية. لذلك ليس خطأ القول الحروب يصنعها المجانين، والسلام يتوصل إليه العباقرة ..!

السياسي القائد، المولج بأتخاذ القرار هو كالقائد العسكري في الميدان، في انفعاله، حماسة أو غضباً، سيقوده إلى ارتكاب أخطاء وربما حماقات. وفي ميادين القتال، تحل الهزيمة أولاً حين يفقد القائد العسكري رشده وينفعل ويصبح جزء من تفاصيل الحدث منفعلاً ومتفاعلاً، ويتخلى بذلك من مهمته الأساسية وهي صنع الحدث وتوجيه من هم تحت إمرته، والسياسيون يتخلون عن الأحكام العقلية والحسابات المادية للموقف، فالسياسي يعمل وكأن آلة حاسبة بين يديه (calculator) ولا يصغي إلا للتقديرات العلمية المنبثقة من معادلات مادية واقعية، ويبدأ الخطأ حين يصغي لصوت هواه وقلبه، أو حين يضع شخصه في الميزان ليرجح قرار ما ... وهذا القرار سيكون حتماً ضعيفا .. وهنا تبدأ الخطوة الأولى في المسار الخاطئ.

قلنا أن السياسي المتمكن يتخذ قراراته بناء على معطيات مادية، وبناء على اقتدار يرتكز إلى خبرة وممارسة ولكن بالإضافة إلى العلم والتجربة ... ثم على مجموعة متكاملة من المستشارين في شتى العلوم، ليشكل منهم فريق عمل، ويستحسن أن تمنح الأجهزة القريبة من حلقة القرار دوراً في عملية لتخاذ القرار، وتشير تجارب كثيرة، أن فقرات غير مركزية ولكنها هامة لم تؤخذ بالأهمية اللازمة بأعتبارها فقرات ليست مركزية، أي أنها في هامش الصورة، ولكن هذه الفقرة الصغيرة كانت حاسمة حين استحقت دورها، كحسابات الطاقة الكهربائية، وحسابات قدرات النقل في البلاد ووسائط النقل، والمستشفيات. الأمثلة كثيرة جداً على إهمال بسيط، قاد إلى نتيجة كارثية، أو لخسارة مبينة.

خلال خدمتي في سفارة الجمهورية العراقية ببرلين / ألمانيا الديمقراطية، كنا نلتقي مع مجاميع من الدبلوماسيين المعتمدين، وليس نادرا ما كنا نتحدث عن وجود دولتين ألمانيتين كلاهما بدرجة من الأهمية في الفاعلية الاقتصادية والسياسية، فكيف ستحل قضية الوحدة الألمانية ...؟ كنت اجيب خلافا لتوقعات العديد من الدبلوماسيين، وبرأي أن تغير الموقف بين الدولتين الألمانيتين سيكون إما كنتيجة لحالة من السلم العميم والرخاء الشديد، والميل لحل المشكلات الدولية بالحوار، وبواقعية ستحل قضية الوحدة الألمانية، أو حرب شعواء (وهذا احتمال بعيد)، لأن الحرب النووية ستقضي على اللاعبين، بل وحتى المتفرجين.

وفي زيارة الرئيس بريجنيف إلى بون 1979 جرى فيها تبادل وجهات النظر حول أشد القضايا تعقيداً، على الملأ وكان مسرح العلاقات الدولية قد بدأ يخطو صوب المصارحة والمكاشفة، ونهاية لعهد الدبلوماسية السرية، فكل المعطيات الرئيسية معروفة وتناقش يومياً في الصحافة، وأجهزة الإعلام التي تعاظم دورها، تدخل البيوت عبر وسائل عديدة، إذن فإبقاء القضايا الحساسة وراء الستائر السميكة، ليس بالقرار الصائب. لذلك تبادل الرئيس بريجنيف والمستشار شمت الأراء على طاولة العشاء في خطابات على مسمع ومرأى المدعوين من الضيوف السوفيت، والمضيفين الألمان، والبعثات الدبلوماسية، ورجال الصحافة والإعلام مبثوثة في شبكات التلفاز للمشاهدين.

كنت أتحدث مرة مع بروفسور في جامعتنا، وساقنا الحديث وتشعباته إلى الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية وكان ذلك عام 1980 أو 1981، فقال غير مستبعداً، أن تخسر الأشتراكية الصراع في مجال سباق التسلح، وتسقط الاشتراكية، فدهشت تماماً من حديثه وهو المفكر الاشتراكي الماركسي، ولكنه هنا يتحدث بلغة علمية، أن سباق التسلح يلتهم معظم التراكم في الدخل القومي ويحرك البلاد من التطور، وهي مضطرة لأن تضع أفضل مواردها في التسلح، ومع ذلك فهي لا تستطيع مجاراة الولايات المتحدة، لذلك فإن تغير الوضع في البلدان الاشتراكية محتمل جداً. ولذلك كان قرار الاتحاد السوفيتي إنهاء الحرب الباردة، وتفكيك الاتحاد السوفيتي الذي كان يلتهم موارد الدولة، وأن تقف روسيا بقدراتها وهي كبيرة في مواجهة الغرب الرأسمالي. وهذا كان من القرارات الصعبة ولكن الضرورية.

وحيال نظرية **" لا حرب "** كمسلمة شبه بديهية فالحرب لم تعد خياراً بل تدميرا لقوى الأطراف المتحاربة، إذن فلنفتش عن حلول وسط، ولا ينبغي للعقل السياسي الكفء أن يعلن عن هزيمته، فكل الحلول ممكنة شريطة أن توصلنا إلى الصراع المسلح والحرب. لتبق كل الخيارات متاحة على طاولة المفاوضات، وتبرز الحاجة إلى قيادات قوية بوسعها اتخاذ قرارات صعبة حين يكاد يقفل أفق الحل السياسي، ولكن على العقل السياسي المحترف أن يجد الحلول. والدبلوماسية تبتدع السبل لتطبيق القرارات السياسية.

الدبلوماسي لا يصنع القرار، بل هو منفذ ممتاز لها، هو عازف رائع للنوتة أمامه، قد يشارك بالنصيحة لصناع القرار في عداد قنوات صنع القرار السياسي، وعلى الدبلوماسي أن يميل إلى خلق ظروف وتصورات تحقيق المصالح الوطنية بالوسائل السلمية بواسطة التفاوض والتوصل إلى اتفاقات ممكنة التطبيق على أرض الواقع.

نلاحظ هنا أن العمل السياسي هو أبعد ما يكون عن المزاج والعشوائية، بل يقترب في طبيعته من عمل الطبيب الجراح في التشخيص، وإجراء ما يلزم لإنقاذ المريض ... والحلول الصعبة هي مهمة الرجال الشجعان، مهمة من لا يهمه كثيراً التصفيق والهتاف، بل الحلول المنقذة للوطن... تراجع وأنت بكامل قواك المادية والمعنوية قبل ترغمك التطورات على اتخاذ القرارات المرة التي لها طعم السم ...!

الدبلوماسي أكثر الأشخاص مؤهلاً لاتخاذ القرارات الصعبة، وتنفيذها بقلب ورأس بارد، فيخاطب الجهات التي ينبغي مخاطبتها برؤية واضحة، وكلمات دقيقة لا لبس والتباس فيها، الدبلوماسي لا كرامة شخصية له، وليس أمامه سوى مصالح البلاد فقط، وهي التي يجب أن يحافظ عليها بأن يجد أفضل الطرق والسبل ... الدبلوماسي يجسد نظرية أن كل مشكلة وأي مشكلة يمكن لطاولة المفاوضات أن تجد لها الحلول ... لذلك فالدبلوماسية التي هي على الضد من استخدام القوة ... قوية جداً بأستخدام العقل والشخصية الراقية المدربة ... وبذلك أستطاع الدبلوماسيون إيقاف جيوش وقذف القابل النووية في صناديق المهملات ... وتوصلوا لحلول أنقذت البشرية ...!

38 . خاطرة دبلوماسية : تفادي مشكلة

واحدة من أهم صفات الدبلوماسي، هي أن يتحاشى الحديث كثيراً، ففي ذلك يتزايد احتمال الوقوع في زلة لسان، قد يصعب إصلاحها. فخير الحديث ما قل ودل كما يقول المثل العربي .

وقد حدث عام 1978 هجمات مسلحة على بعثات دبلوماسية عراقية، كان أهمها الهجوم على السفارة العراقية في باريس (تموز / 1978)، وكنت خلال تلك الفترة قائما بأعمال السفارة العراقية في برلين، وكنا نحضر لاحتفالية عراقية في مبنى السفارة، وقد اتخذت كافة التدابير اللازمة داخل بناية السفارة، وأبضا خارجها، إذ قمت بالاتصال بسفير الجهة التي (يعتقد) أن التحرك بتوجيه منها، وكانت صلتي الشخصية بتلك السفارة جيدة جداً، وقد تحدثنا بضرورة الابتعاد عن كل تصرف له دلاله عنف وإرهاب وهو ما سوف يسيئ للجميع بدون نتائج مادية مفيدة، واتفقنا على ذلك.

وبنفس الوقت كانت علاقة السفارة بوزارة الخارجية الألمانية جيدة وقائمة على الثقة، وتعززها علاقة شخصية ممتازة مع المسؤولين عن قسم البلاد العربية، (دائرة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا)، وقد فاتحنا أصدقنا الألمان فيما إذا كنا نطلب الحماية للسفارة.

وبرغم أني كنت على ثقة بأن شيئا يخل بالامن سوف لن يحدث، ولكن لا يمكن الاعتماد على النوايا والعواصف والعلاقات، وبنفس الوقت كان (طلب الحماية) سوف يؤشر بصورة بارزة، وكان أحد موظفي دائرة الشرق الأوسط يتحدث معي وهو ينتظر بلهفة : ترى هل سأطلب بنفسي الحماية ..؟

فأجبت رئيس الدائرة بأختصار ولكن بوضوح: إنني في الوقت الذي مطمئن لوجود السفارة على أرض العاصمة برلين، متأكد غاية التأكد بأن السلطات الألمانية لن تقصر بهذه المناسبة أو بغيرها من حماية السفارات الأجنبية وليس السفارة العراقية فقط. وفعلاً، جرى الأمر هكذا، ولكن بدون طلب رسمي مني كرئيس بعثة، قامت السلطات الألمانية بتكثيف الحراسة، وجرت الأمور بشكل سلس وهادئ ودون إثارات.

فيما بعد وفي جلسات خارج العمل، قال لي صديقي الدبلوماسي الألماني المسؤول في قسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الألمانية: " كنا يا سيد الدباغ بأنتظار كيف ستتصرف إزاء عرضنا، ولكنك كالعادة تصرفت بدهاء فأمنت طلبك منا، ولكن دون أن تطلبه صراحة " .

39. مداخلة ضرورية في فلسفة الحق

د. ضرغام الدباغ / برلين

خلال الأعوام العشرون، ما بين أعوام 369/ 389 قبل الميلاد، كتب أفلاطون(427- 347 ق.م) وهو أحد أبرز فلاسفة الإغريق، مؤلفه الجمهورية، الذي يكاد يجمع علماء السياسة الغربيون على اعتباره الركيزة الأساسية الأهم في علم السياسية، وعليه تأسست أفكار لاحقة سواء في الفلسفة الأوربية قبل وبعد الكنيسة الأوربية، أو الفلسفة في عصور ما قبل النهضة وما بعدها.

لسنا بصدد دراسة ومناقشة أفكار أفلاطون، بقدر ما نريد هنا التركيز على مبادئ فلسفة الحق التي أستوحى الكثير من علماء السياسة في عصر النهضة وما بعدها أفكارهم السياسية وبنوا عليها، بل تذهب المراكز الثقافية الغربية إلى اعتبار أفكار أفلاطون أساساً شيدت عليه صرح الفلسفة في العصور اللاحقة، وأن الفلسفة الغربية برمتها ما هي سوى حواشي لأفكار أفلاطون.

والأفكار الأساسية، أو لنقل بدايات الفلسفية التي بحثت في مفاهيم السياسية والاجتماع لقت تطويرها فيما بعد على يد أفلاطون، إنما كانت نويات متناثرة، فقول الفيلسوف تراسيماخوس Thrasymachus " أن العدالة ليست إلا مصلحة القوى، إذ أن الطبقة الحاكمة في كل دولة هي التي تضع القوانين التي تراها أحفظ لمصالحها، والطبيعة هي حكم القوة وليست حكم الحق" ويذهب فيلسوف آخر هو كاليكلس Callicales إلى اقرب من ذلك بقوله " أن العدالة الطبيعية هي من حق الرجل القوي، وأن العدالة القانونية هي ذلك الحاجز الذي تقيمه جماعات الضعفاء لحماية أنفسهم" (1)

أما سقراط (ولد عام 470 وتوفي 395 ق.م في أثينا)، وكان أول فيلسوف يرجع إليه الفضل في جميع هذه الحبات المتناثرة ومحاولة صياغتها في إطار فلسفة واضحة، فقد حاول من خلال محاوراته مع تلامذته بصفة خاصة، الارتقاء بمستوى الفلسفة، وتلمس المناهج من أجل التوصل إلى ذلك، ولكنه سقط ضحية الوشاة، فحكم عليه بالإعدام بتناول السم، فأمتثل تعبيراً عن احترامه للقانون وإن كان جائراً، فلم يخلف أثراً كتابياً، ولكن تلميذه أفلاطون ضمن مؤلفاته أفكار أستاذه.(2)

وتمثل العدالة والأفكار المتصلة بها، المدخل لأفكار أفلاطون، وهي بتقديرنا هي حجر الأساس الذي أنطلق منها أفلاطون ليشيد فلسفته السياسية، وستكون العدالة، موضع بحثنا هذا ومحور أفكاره. فيذكر أفلاطون في تعريف أولي للعدالة: " العدالة هي أن يرد للإنسان ما هو له "(3)، أي أن العدالة أن ترد لمن سلب منه أموال منقولة أو غير منقولة، أو أمر معنوي، ثم يمضي أفلاطون، ليتوسع في مفهوم العدالة ويضع له ملحقات بقوله: " أنه نفع الأصحاب ومضرة الأعداء ". ثم يقول العدالة هي مساعدة الأصحاب الأمناء وإلحاق الضرر بالأعداء الأشرار.

بيد أن أفلاطون ما يلبث أن يتجه صوب واقعية يمنحها الشرعية، بصرف النظر عن قاعدة رد ما سلب لأصحابه، بقوله: **العدالة هي مصلحة الأقوى، والحق للقوة** (4).

وأفلاطون الذي وافق قبل سطور بالأمر الواقع ومنح القوة شرعية الإرغام، يقول: إن الإضرار بالإنسان يجعله أكثر شراً وأقل عدالة. وهو بذلك يقول أن قوة الإذعان لا تملك القوة الشرعية. ثم يصل أفلاطون إلى ذروة الازدواجية في التفكير بقوله: إن التعدي يلد النزاع والانقسام، أما العدالة فتؤدي إلى الأتساق والوئام، وأن التعدي يقضي على كل ميل إلى الاتحاد في العمل بين الأفراد والجماعات، لذلك كان التعدي عنصر ضعف لا قوة ".

ثم يعود أفلاطون ليقبل بذرائعية جديدة، قوله: " **إن إطاعة الحكام هو العدالة** "(5)، في إشكالية ما برحت تمثل نقطة ملتهبة في الفكر السياسي، كانت ولما تزال مسألة لم تجد حلها في الفكر السياسي القديم والحديث (عدا نظرية العقد) ولكنها في الفكر السياسي الديني لا يضع الإجابة لتساؤل مهم في واقع الحياة السياسية: ماذا نفعل للحاكم الجائر، سواء كان ملكاً، أو رئيساً أو إماماً.

وكانت الفضائل، ومنها العدالة فقد كانت عند أفلاطون المدخل إلى سائر الموضوعات السياسية والاجتماعية في فلسفته وأفكاره الشاملة.والفضائل عنده:

1 . الحكمة. 3 . العفاف، امتلاك أعنة الرغائب واللذات.

2 . الشجاعة 4 . العدالة (6)

أما العدالة، فهي الفقرة التي تحتل الاهتمام الأكبر في فكر أفلاطون لعلاقة ذلك بالدولة والمجتمع والناس، فهو يعبر عن وصفه أو تعريفه للعدالة ويتفلسف في ذلك ويقلب الأمر على شتى جوانبه وبعض آراؤه عن العدالة بقوله " أن العدالة هي أن يرد للإنسان ما له" وأنها" نفع الأصحاب ومضرة الأعداء" ويعرف الأصحاب تعريفاً اجتماعياً واسعاً " والأصحاب هم الذين نعتقد فيهم الأمانة والصلاح" ثم يصبح أكثر تحديداً بقوله " **العدالة هي مساعدة الأصحاب الأمناء ومضرة الأعداء الأشرار" و " أن الإضرار بالإنسان يجعله أكثر شراً وأقل عدالة**" (7)

ولكن أفلاطون، وذلك شأنه في مباحثه، لا يعرف الاستقرار، بل يبدو وكأنه يحاول أن يبلور بحراً زاخراً، ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلاً إلا لماماً، فتراه يتحول بين الموضوعات بسرعة، في هذا يكتب " **العدالة هي مصلحة الأقوى** أو الحق للقوة " ثم أنه يعود ويذكر خصال العدالة وكأنه يعظ الحكام إذ يقول " إن التعدي يقضي على كل ميل إلى الاتحاد في العمل بين الأفراد والجماعات، لذلك كان التعدي عنصر ضعف لا قوة " (8)

والعدالة عند أفلاطون مرتهنة بالقدرة على الحكم وفرض الأمر الواقع، بما في ذلك سنن الحكومات الدكتاتورية والاستبدادية حيث يجدها أفلاطون عادلة طالما صادرة عن الدولة الحكومة فيكتب " أن شرائع كل حكومة مصاغة في قالب يضمن فائدتها، فشرائع الديمقراطيين ديمقراطية، وشرائع الأوتوقراطيين استبدادية، ومعنى ذلك أن في كل ذلك منفعة الحكومة هي العدالة"(9)

ورغم أن أفلاطون لا يريد أن يربط أفكاره بالدين كثيراً، ولكنه كما ناقض نفسه في كتابه الثيتس، يناقض نفسه مرة أخرى في مؤلفه الجمهورية بقوله " إن الإشهار بالعدالة يؤدي بأصحابها إلى فوزهم برضا الآلهة ونيلهم سعادات لا توصف تسبغها على الناس" ونراه من جهة أخرى يقول " **أن طاعة الحكام هو العدالة** " ثم يعود ليقول " إن مخادعة الآلهة والتغلب عليها مستحيلان " (10)

ثم أن أفلاطون يبذل اهتماما كبيراً بالحاكم وشخصيته ومؤهلاته وقدراته الفكرية الفلسفية قبل كل شيء. فالحاكم عنده شخصية مقدسة وإن كان لا يعبر عن ذلك حرفياً ولكن بقوله " الحاكم راع والشعب رعيته"، ثم ذكرنا اعتباره أن **طاعة أمر الحكام هي العدالة**، يتطلب من الحكام صفات كثيرة تقع الفلسفة في مقدمتها " فالحاكم الكفء في عرفنا فلسفي النزعة، عظيم الحماسة، سريع التنفيذ، شديد المراس" وكذلك قوله " يلزم أن يكون من أكبر أعضاء الجسم الاجتماعي سناً، وأوفرهم فطنة وأعظمهم جدارة وأعرقهم وطنية وأقلهم أنانية، هؤلاء هم الحكام الحقيقيين " ولكن أفلاطون مع ذلك، ويبرر ذلك بمصلحة الدولة، يقبل أن يمارس الحاكم الكذب مع أنها من صفات الرذيلة " فإن جاز الكذب لأحد فللحكام فقط في مخادعة الأعداء، أو في أقناع الأهالي بما هو خير للدولة " (11)

وتستحق الملاحظة هنا: أن العدالة وضرورة تحقيقها، والسعادات وأهميتها وجدلية الحوارات، قادت بالضرورة، وربما دون قصد مباشر من أفلاطون، ولكن بداهة إلى فكر قيادة الهيئة الاجتماعية المولجة بتحقيق هذه الشعارات الأخلاقية / المعنوية، بالإضافة إلى ضروراتها المادية بتقسيم العمل ضمن أفراد المجتمع.

أما أرسطو، فلئن أتفق مع معلمه أفلاطون من حيث ضرورة إيجاد هدف أخلاقي باعتباره الغاية الأسمى للدولة، ثم أنه يصل إلى أن الهدف الحقيقي للدولة ينبغي أن يشمل ارتقاء مواطنيها خلقياً، لذلك فقد تضمنت كتابات أرسطو في معظمها ليس سمات وشروط الدولة المثالية، بل المثل العليا التي ينبغي أن تحافظ عليها الدولة. فالمثل الأخلاقية العليا هي عند أرسطو من الغايات الأساسية التي تقوم من أجلها الدول تلك المثل التي من بينها العدل وأخرى: كسيادة القانون والحرية والمساواة بين المواطنين والنظام الدستوري (القانوني) وهي عنه السبيل الأهم لبلوغ الغايات التي من أجلها تقوم الدولة.

ويوافق الأستاذ جورج سباين(ومع أنه قليل الاعتبار للعوامل الاقتصادية) أن دوافع التغيرات والإصلاحات هي في جوهرها اقتصادية، فقد يدور البحث عن أنظمة واتجاهات ومبادئ سياسية، ولكن الشأن الرئيسي هو اقتصادي، إذ يقول الأستاذ سباين وهو من مشاهير علماء السياسة المعاصرين، " وكان مدار البحث هو: هل تدور أرستقراطية قوامها الأسر العريقة المالكة للأرض، أو ديمقراطية قوامها المصلحة المتصلة بالتجارة الخارجية وهدفها تدعيم قوة أثينا في البحار ؟ وقد فاخر سولون بأنه قصد بتشريعاته، المعاملة العادلة بين الأغنياء والفقراء".(12)

ومن الضروري الإشارة ولو على نحو سريع إلى مصدرين، كانا على الدوام محور أفكار العلماء والفلاسفة وهمت: الطبيعة، وهي القوانين الإلهية التي يأمر بها الرب عن طريق ممثليه. والأعراف، وهي ما تعارف الناس عليه من نظم كتقاليد غير مكتوبة إلا أنها ثابتة ومحترمة بصورة جماعية أو شبه جماعية، وهي الأخرى اكتسبت قوة القوانين، فجرى تدوينها كذلك أو بقيت عرفاً معروفاً يجري تداوله واحترامه بوصفه ضرورة أحكام جرى الاتفاق عليها اكتسبت قوتها من خلال موافقة المجتمع عليها والعمل بأحكامها. فتلك كانت أيضا واحدة من المعضلات التي واجهت المفكرين والفلاسفة. ومن ثم فإن القوانين على اختلافها ومنها القانون الأساسي(الدستور) والمفاهيم المتصلة به، كانت موضع اجتهاد المفكرين والفلاسفة، وموضع مجادلات ومناقشات لا نهاية لها.

وعلى هذا النحو، فقد اعتبرت مفاهيم عديدة هي من قبيل القوانين الطبيعية كالمساواة والعدل فأخذوا يتفلسفون بها ويذهبون مذاهب شتى، وغاصوا في قوانين الطبيعة حتى غدت جزءاً أساسيا من الفلسفة

السياسية وما برحت الحقوق الطبيعية، والقوانين الطبيعية، والأعراف والقوانين الوضعية(تلك القوانين التي وضعها الإنسان) بؤرة تثير المناقشات والجدل في الفلسفة السياسية وعلى مدى القرون.

وأفلاطون وأرسطو، أعمدة الفلسفة، اعتبرا أن: **طاعة أمر الحكام هي العدالة، والعدالة هي الحق**، وعلى هذا المنوال عمل فيما بعد أيضاً الفلاسفة في العهد المسيحي، فالمسيحية التي تعرضت للقمع بوصفها حركة فقراء، والفلاحون والفقراء يساندون أي حركة تحمل في أفقها العدالة، أملاً في تغيير أوضاعهم البائسة ورفع الظلم الواقع عليهم، وفي أول حلولها في أوربا تعرض دعاتها على الأوائل للاضطهاد والتعذيب والتصفيات الجسدية، لكن ما لبثت أو وجدت الدولة الرومانية أن الديانة المسيحية قد تكون عاملاً يشد أرجاء الإمبراطورية من جهة، ويمنحها (حقاً) إلهياً بالتدخل والتبشير الاستعماري، وذلك تم حين اعتمدت الدولة الرومانية المسيحية ديانة رسمية في العام 350 ميلادية، فأصبح رجال الدين (الكنيسة) وجهاء في المجتمع الروماني، ما لبثوا أن أصبح لهم جزء من السلطة والسلطان في الدولة، بل صاروا يتقاسمون السلطة مع القياصرة والأمراء، وتناسوا العدل الذي بشروا به في بادئ الدعوة.

والانفجار المدوي ضمن الكنيسة، تمثل هذه المرة ليس باتجاه توفيقي Compromise ضمن الكنيسة، بل في حركة سيكون لها أبعادها الفكرية المهمة وستكون لها انعكاساتها السياسية والاجتماعية، فهم أطلقوا على أنفسهم " حركة الإصلاح الديني " Reformation " وأطلق عليهم آخرون "بروتستانت" Protestant، أي المحتجون، (مصدرها الاحتجاج)، Protestanion باعتبار أن قائد الحركة الإصلاحية أعلن في بيانه الشهير: الاحتجاج على قرار طرده من الكنيسة الكاثوليكية، وكان ذلك في مطلع القرن السادس عشر 1517، وقد سميت الحركة أيضا بالحركة اللوثرية، مستخدمة هذه التسمية من قائد الحركة، رجل الدين الألماني مارتن لوثر Martin Luther 1483 - 1546.

ومثل هذه الأتجاهات تتكرر في التاريخ، فعندما أشعل مارتن لوثر أوار الثورة في الكنيسة الكاثوليكية، أعتمد على بادئ ذي بدء على الفلاحين والفقراء في انتفاضته ضد طغيان الكنيسة الكاثوليكية ومقرها البابوي، حيث كان الأمراء والقياصرة موالون للمقر البابوي لاكتساب شرعية هم بحاجة لها يستقوون بها بوجه أمراء الإقطاع. بيد أن تطور الحركة اللوثرية قاد في مفرداته إلى تناقضات بين بعض القياصرة الأمراء وأمراء الإقطاع من جهة، والبابا وسلطة الفاتيكان من جهة أخرى، بعد أن تعاظمت مطالب الفاتيكان، ولا بعد استيلاء الكنيسة على أفضل الأراضي، وتحولوا إلى قوة مادية إضافة لقوتهم الروحية، فشق العديد من القياصرة والأمراء الساخطين القلقين على نفوذهم، شقوا عصا الطاعة على البابا والفاتيكان، واستعانوا بمارتن لوثر كحركة دينية مضادة للبابا، ليكتسب الانشقاق في الكنيسة النفوذ والقوة. وكانت هذه عاملاً مؤثراً في تحول لوثر من نصير للفلاحين والفقراء، إلى مناصر للأمراء والقياصرة، وخذل الفلاحين في ثورتهم ضد طغيان الإقطاع اليونكرز المتحالفين مع القياصرة وأمراء الأرض. عندما **أكد مارتن لوثر في تعاليمه الدينية: لا يجوز للمسيحي مطلقاً عصيان القيصر والأمير.**

وعندما آلت السلطة السياسية نهائياً إلى أيدي البورجوازية، في أعقاب أحداث هامة شهدتها أوربا(ولم تكن أميركا بعد ثمة أهمية سياسية أو اقتصادية أو ثقافية بعد)، كانت البداية في هولندة ثم في بريطانيا وبعدها في فرنسا، كنتيجة طبيعية لعصر النهضة (Renaissance) والتنوير، الآثار الحاسمة للثورة الصناعية.

ولكن الكنيسة، الممثلة للمؤسسة الدينية التي كان نفوذها قد غدا سياسي واقتصادي، إلى جانب الثقافي والاجتماعي، وبوصفها احتكرت لقرون طويلة (حق) التفسير والتأويل، ومنح الشرعية وحجبها، في

علاقة بينهم وبين الحكام (ملوك وقياصرة وحكام، وربما حتى طغاة)، خضعت لظروف تاريخية، حتى بدأت تتلاشى بعد عصر النهضة والتنوير، والثورة الصناعية.

إذن من يمتلك الحق ...؟

تعرضت مفاهيم الحق الفلسفية الأفلاطونية وشرائع القوانين الرومانية إلى اهتزازات، عندما فرض عبر التاريخ الطرف القوي، أو من يمتلك أسباب القوة، أسس الحق، بل وأكثر من ذلك، فالقوانين التي صاغها الأقوياء والمتحكمون بالسلطة، جرى تفسيرها وتأويلها وفقاً للمصالح الخاصة لتلك الأطراف القوية، وفي العصور اللاحقة، حدث ذلك بمزيد من إضفاء فنون الغش والتدليس والخداع على نحو غير مسبوق.

ثم جرى كما هو معروف تفسخ التحالف بين الملوك والكنيسة وأمراء الإقطاع، ولكن ذلك جرى بشكل تدريجي وعلى وتائر مختلفة في الدول الأوربية، وعندما حل عصر الدول البرجوازية الدستورية، في هولندة أولاً ثم في بريطانيا ، ثم في فرنسا، ومتأخراً في ألمانيا، وتلك كانت تطورات مترافقة مع عصر النهضة ثم عصر التنوير، وأخيراً الثورة الصناعية وحقب الحملات الاستعمارية، وكانت العلاقات الدولية قد دشنت مرحلة جديدة بانقضاء الحروب النابليونية وآثارها السياسية في أوربا، وتلك مرحلة سادت فيها التحالفات والمعاهدات بين الدول من أجل تشكيل قوى سياسية مؤثرة في أوربا، لم يكن الحق فيها سوى دهاء الدبلوماسية السرية، لعبت بريطانيا فيها الدور الأهم، في تطمين مصالحها في القارة التي يفصلها عنها بحر الشمال.

عصبة الأمم لم تكن إلا منظمة الأقوياء المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، أباحت بشكل علني الاستعمار (كحق) في نص مشهور: **حق الأمم القوية الأخذ بيد الأمم الضعيفة نحو التقدم.** وكانت حقوق الشعوب يجري التداول بها أروقة المنظمة بما يشبه التعامل في أسواق البورصة(أسواق السندات والأسهم).

في العلاقات الدولية المعاصرة، أثارت المسألة العراقية وما زالت تثير الكثير من المناقشات الجادة حول جدوى القانون الدولي، والأمم المتحدة، وحقوق وضمانات الدول، وسلامة الكيانات السياسية، وكيف أستطاع حفنة من الرجال انساقوا وراء أهوائهم وقناعتهم الشخصية، أن يقودوا بلدانهم إلى حروب دموية أفرزت نتائج كارثية على كافة المستويات، وهذا الأمر لم يعد سراً ليس بعد كشف التحقيقات السرية والعلنية التي أجريت في بريطانيا والولايات المتحدة، من أن الحرب ضد العراق كانت محض ألعاب مخابرات بعيدة كل البعد عن قواعد إدارة العلاقات بين الدول والقوانين الدولية، حرب لها أكثر من بعد واحد أشعلت نيرانها ولم تنطفئ بعد، لا علاقة لها بالقانون، ولا بشرائع هم أقروها ولا بضمير الإنسانية والرأي العام... القوة ليست الحق، والقوة يمكن أن تستخدم بصورة بعيدة عن العدل والأخلاق..

وثمة حقائق أخرى فرضت نفسها في هذا المجال.

الدول الكبرى، امتلكت من وسائل القوة، ما يجعلها تستغني عن الحجج والإقناع والاحتكام إلى قواعد القانون الدولي وشرائع العلاقات بين الدول والأمم، وقبول مبدأ أن للآخرين مصالح ينبغي احترامها. وأصبح الحق محصور بما تعتقده وما يتلاءم مع مصالحها الاقتصادية والسياسية. والحروب التي دارت في القرن العشرين أبرز مثال على ما نذهب إليه. ولا نعتبر الحربين العالميتين الأولى (1914 - 1918)، والثانية (1939 - 1945) فقط، بل وكذلك الحروب الكثيرة التي جرت في القرن العشرين والتي لم تكن سوى حروب اقتسام العالم بين الأقوياء، أهمها حرب كوريا، والحرب الفيتنامية، الصراعات في جنوب

شرق آسيا، وحروب شبه القارة الهندية، والحروب العربية / الإسرائيلية، وحروب التدخل في أميركا اللاتينية، بل يمكن الجزم أن الصراعات المسلحة بصفة عامة، لم تكن إلا نتائج جانبية للتنافس بين القوى الكبرى، ذلك أن جذور بؤر التوتر تكمن بهذه الدرجة أو تلك في أيدي القوى العظمى التي تحتكر القوة، وبالتالي تحتكر الحق، وفيما ينبغي أن يكون وعلى أية صورة.

تلك كانت مرحلة استطاعت الدول القوية فرض الحق وتكيفه بل وحتى وضع الصياغات القانونية له، وتأسيس مراحل وفق تصورات خاصة، لا علاقة لها بمبادئ فلسفة الحق(الحق هو فيما تمتلك، وليس فيما تستولي عليه)، بيد أن الجديد هو أن تلك القوى العظمى، وبكل ما تمتلكه من قوى مادية لم تعد قادرة على فرض منطقها وفرض مصالحها، وأن ذلك يبشر بفتح صفحة جديدة في العلاقات الدولية.

فعلى سبيل المثال، كانت القوة الهولندية المتواضعة، كافية لتحتل الهند أو أجزاء منه في بداية حقب الحروب الاستعمارية التي كانت نتيجة للثورة الصناعية، ثم انتزعتها بريطانيا بالقوة أيضاً، ولكن هولندة الصغيرة استقرت في بلد كبير مثل اندنوسيا فترة طويلة، ورحلت عنها عندما هبت رياح التحرر بعد الحرب العالمية الثانية، وبفعل وعي أنتشر بين شعوب المستعمرات، ولكن أيضاً بفعل حقيقة كبيرة هي وجود المعسكر الاشتراكي المناصر لثورات الشعوب مادياً ومعنوياً، والهزيمة الأخلاقية للاستعمار الكولونيالي المباشر الذي بدا هو بذاته متخلفاً، هبت الإمبريالية الأمريكية للحلول محله بأساليب عمل جديدة، في إطار تغيرات شاملة ضمن المتربولات الرأسمالية، وتطور كبير طرأ على نظام دولة الاحتكارات الرأسمالية، من أبرز مظاهره، هزيمة المحور الفاشي، وتصدي الولايات المتحدة لقيادة العالم الرأسمالي، وصياغة اصطفاف لمواجهة حركات التحرر والقلاع الاشتراكية والحركات العمالية المناهضة للرأسمالية في الدول الرأسمالية نفسها.

ولكن ماذا جرى ... فقوة الولايات المتحدة المعززة بتفرد وفرض هيمنة لا سابقة لها في تاريخ العلاقات الدولية، حيث تغزو جيوشها وتجتاح دولاً صغيرة، تفتقر في معظم الحالات حتى إلى الأسلحة المتوسطة، ولكنها تعجز عن احتلالها، بمعنى فرض أرادتها السياسية. رغم أنها تنصب حكومات تابعة لها وتوفر لها الغطاء السياسي الدولي، وتقود زعماء وقادة تلك الدول إلى(محاكم) وتشكل (محاكم) جزاء دولية لتحاكم من يتمرد عليها، فيما تمنع هي عن قبول حتى مبدأ خضوع أفراد من قواتها المسلحة للمسائلة القانونية، هكذا تفهم هذه الدول الحق والحقوق في عصر الإمبريالية الجديدة التي يطلق عليها بالعولمة.

ولكن هذه القوى العظمى رغم امتلاكها هذه القوى الخيالية، وامتلاكها (حق) إسكات الضمير الإنساني، ومنصة القضاء الدولي، وتقود جيوشاً عالمية، أرغمت دولاً مهمة على الانصياع لأرادتها والانتظام في حملات عسكرية جرارة، لكنها تعجز في النهاية عن تحقيق نصر ... سياسي أو عسكري، وتتحول تلك الحروب الباهرة إلى مآزق لا تدري كيف تنجو بنفسها منه.

يقول المستشار الألماني الأسبق، الحكيم هيلموت شمت: وبالنسبة لنا سواء في أفغانستان وكذلك في العراق قد أظهرنا، أن الأمريكان وحدهم قادرين على كسب أي حرب يخوضونه، ولكنهم في النهاية لن يستطيعوا بمفردهم أن يحققوا الاستقرار أو حتى السلام. وقد تبين ذلك من خلال زيارة بوش الأخيرة في الأسبوع المنصرم(فبراير - 2005) أنهم لم يعودوا يحتملوه، وإن كانوا قد توهموا ذلك. ويبدو لي، أن الرئيس بوش الابن وإدارته يقفون أمام عدد كبير من الخيارات والقرارات، والمثال الأول: أنه لا توجد استراتيجية أمريكية مقنعة أو معترف بها حيال النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني. وكذلك لا توجد استراتيجية واضحة حيال العراق.(13)

ومداخلة المستشار الألماني هذه يعود تاريخها إلى فبراير/ 2005، نضيف عليها الآن مأزقاً جديداً هو المجهول الذي دخلت فيه القوة في جبال هندكوش، والنتائج التي ستسفر عنها مواجهة بين عشرات ألوف الجنود المدججين بأحدث الأسلحة بمواجهة شعب من الحفاة والعراة تقريباً، في أمثولة ستمنح مفهم القوة والحق أبعاد جديدة، يطلقون عليها الحرب مجازاً: ضد الإرهاب، ونشر الأفكار الديمقراطية، وكأن نشر الخير يحتاج لأدوات الشر وبهذا القدر الخيالي.

في واقعية مريرة أقر الرئيس الأخير لدولة عظمى كالاتحاد السوفياتي، أن تعديلاً ضرورياً لا مناص من إدخاله على المفاهيم التي تبدو أنها راسخة رسوخ الجبال الراسيات، تلك المفاهيم التي جرى العمل بها كقاعدة نظرية لا تحتمل الخطأ: أن الحرب هي أستمرار للسياسة بوسائل أخرى (مقولة المفكر الاستراتيجي الألماني كلاوس فيتز)، ويذهب غورباتشوف إلى التأكيد أن قاعدة كلاوس فيتز قد عفا عليها الزمن، وأن الحرب النووية ليس فيها رابحون وخاسرون، فهي إبادة للجميع بل وحتى المتفرجين، ولا بد من الإقرار **بالحقوق** المتساوية لجميع الدول والشعوب في الأمن والسلام والتطور، وبحق كل شعب اختيار طريقه دون التدخل في شؤونه الداخلية، ولا يجوز نقل الخلاف الثقافي / الأيديولوجي إلى مجال العلاقات الدولية، وإخضاع السياسة الخارجية له، لأن الأيديولوجيات قد تكون متنافرة، أما مصلحة البقاء ودرء الحرب فهي المصلحة العامة والعليا.(14)

لا عيب في العودة للحق، للتراجع وتصحيح الأخطاء، وفي تلك شجاعة أدبية عظيمة، والغرب طالما أتهم الأشتركيون ومذاهبهم بالدوغماتية (Dogmatik) ولكنهم يمارسون في عصر العولمة أشد أنواع الدوغماتية، ولطالما سفكت دماء وانتهكت سيادة دول بأسم مبادئ الديمقراطية، وها هو الغرب اليوم لا يقبل حتى بارتداء ثياب وملابس غير تلك التي يرتديها..!

* الحق في العلاقات الدولية هو أن تقبل بوجود غيرك، وأن تقبل بالنظام الذي يقبله لنفسه، المنبثق من أصالته، من ثقافته، ومن تراكمه السياسي والاجتماعي.

* الحق هو في الامتناع عن استخدام القوة.

* الحق هو أن يسمح لك بأن تعرض وجهة نظرك بسلام.

* الحق هو أن تكون لجميع الشعوب والأمم ذات الحقوق والمزايا، الأمن للجميع، السلام للجميع، السيادة للجميع، وحقوق التنمية والتطور للجميع.

أن صورة أخرى للعالم تطل علينا من بعيد، لا نستطيع تقدير البعد، ولكنه آت .. القابل النووية المختزنة سوف تفكك، القوة آلة وحشية يرفضها العالم، القوي لا يستطيع رغم قوته تنفيذ إرادته، ها هي الولايات المتحدة تحتاج لوقوف أي دولة معها ولو بمئة جندي، لتدعي الحق وأخلاق الحق. ولكن ها هم مئات ألوف الجنود يعجزون عن إنفاذ الإرادة الخاطئة لأنها تفتقر إلى الحق.

هناك من سخر عندما تراجع الاتحاد السوفيتي، وتنازلت الاشتراكية، ولكن التاريخ يثبت أنهم تراجعوا عن استخدام قوة كانت طوع أياديهم، وتلك مأثرة عظمى للاشتراكية.

لسنا وجوديون، ولكن نجد جملة ألبير كامو صحيحة للغاية:

" ليس هناك عادلون، إنما هناك أسياد شريرون يجعلون الحقيقة سائدة "

هوامش

1 . سباين، جورج: تطور الفكر السياسي، ص36، القاهرة / 1971

2. DUDEN Lexekon S. 651

3. صحيفة الجمهورية/ بغداد 1986،

4 . أفلاطون : الجمهورية ص 9 ، بغداد / 1991

5 . أفلاطون: نفس المصدر، ص25

6 . أفلاطون: نفس المصدر، ص123

7 . أفلاطون: نفس المصدر، ص7

8 . أفلاطون: نفس المصدر، ص9

9 . أفلاطون: نفس المصدر، ص23

10. أفلاطون: نفس المصدر، ص52/26/49

11. أفلاطون: نفس المصدر، ص80/76/65/30

12. سباين، جورج: نفس المصدر، ص26

13. شمت، هيلموت: محاضرة في قناة فونيكس، فبراير/ 2005

14. غورباتشوف، ميخائيل: البيروسترويكا والغلاسنوست، ص 161-163، بغداد / 1989

أن يقوم 100 ألف جندي أمريكي، و160 من القوات الحكومية الأفغانية (82 ألف جندي حكومي، 80 ألف شرطي حكومي) وعشرات الألوف من قوات 42 دولة بعمليات عسكرية تستخدم فيها أحدث التكنولوجيا الحربية وأسلحة دمار، بهدف نشر الديمقراطية.....!

40. كيف نتنبأ بالقادم من الأحداث

ثمة ظواهر في السياسة العالمية مثيرة للقلق من جهة، ومن جهة أخرى ستقود إلى مزيد من التسارع في الاستقطاب بدرجة لن تدع فسحة من المجال للمواقف الوسطية والتوفيقية. فالتدهور يتواصل في المواقف السياسية على كافة الساحات، وبؤر التوتر، وجائحة كوفيد 19 ، (كورونا) بآثارها المختلفة، وتصاعد الإصابات، التي ربما اقتربت من حجم 100 مليون إصابة، والوفيات تجاوزت 2 مليون إصابة، عدا ما يصعب إحصاؤه وتقديره من الخسائر الاقتصادية، وهذه أرقام ومعطيات حروب عالمية.

أميركا تفسد التعامل على مستوى العالم بسبب شعورها بفقدان السيطرة في العالم ..ستضرب عشوائياً .. تعتدي على أمم صغيرة وضعيفة، فتبتز مواقف ومكاسب مالية وسياسية، ذكرت مالية أولاً لأنني بت مقتنعاً أن ربح المال حتى القليل، هو هدف كبير للرأسمالية، دون أدنى اكتراث للخسائر البشرية، فهذا آخر ما يفكرون به. وكنت قد قرأت مرة مقولة لكارل ماركس، ما معناه : أن الرأسمالي يقدم دون وجل عندما يتجاوز ربحه 10%، أما بنسبة 40% فهو مستعد للمجازفة، وبنسبة 75% فهو يقدم وإن كان الخطر يحدق به، أما إذا تجاوز ربحه 90% فهو يقدم على المغامرة حتى تحت ظلال المشنقة.

وماركس كان قد درس ابتداء الفلسفة والاجتماع في جامعة برلين قبل إقامته في باريس ودراسته الاقتصاد. والرأسمالية المعاصرة هي اليوم أكثر شراسة ووحشية بأضعاف مضاعفة عن رأسمالية زمن ماركس، فالرأسمالية تزداد توحشها كلما يبدو لك أنها شبعت، ذلك لأنها تحسب التراكم والفوائض، والأرباح المركبة ... وبذلك فإن أي مبلغ يبدو لك صغيراً، هو كبير بالنسبة للرأسمالي. وسأضرب لك مثلاً بسيطاً جداً، أن احتكار أكسون الأمريكي (**EXXON**) العملاق، يتعامل بمئات المليارات، وإذا كان مجال نشاطه الرئيس هو النفط تنقيبا واستخراجاً ونقلاً وتسويقا وشراء وتصفية وبيع بالجملة والمفرد، ولكنه لا يمانع بالدخول في أعمال صغيرة قد يتصور البعض أنها لا تناسب مقامه ..! فمقامه هو الأموال التي تهطل فوق جبل المال ليتضاعف ... فالنهر الكبير الصاخب يتألف من فروع كثيرة جداً، والدولة الأمريكية برئيسها وحكومتها وجيشها إنما هو خادم صغير لأكسون وأمثاله من الاحتكارات، وهذه الدولة تعيش وتأكل من فتات من تقدمه هذه الاحتكارات.

هذه هي لب القاعدة وجوهرها لحل أي معادلة سياسية في الولايات المتحدة، لا صداقات لا تحالفات، لا أخلاقيات، ولا أي اعتبار قبل اعتبارات المصالح المادية. وقد شاهدت بنفسي منظراً لا يصدق رغم إقامتي الطويلة في أوربا، إذ يهدي حاكم كندا ترودو للرئيس الأمريكي رونالد ترامب خلال زيارته لكندا، صورة فوتوغرافية مؤطرة لمبنى قديم، لم يفهم ترامب معنى ذلك، وتولى ترودو شرح الأمر قائلاً : " السيد الرئيس .. جدك المهاجر الألماني إلى كندا (قبل الولايات المتحدة) أقام في مدينة كندية وأسس دار للدعارة فيها وهذه هي المبنى الذي أسسه جدك ". لم

يكترث ترامب ولم يرف له جفن، أخذ الصورة، وأعطاها لمرافقه وكأن شيئاً لم يكن. وكأن لسان حاله يقول لترودو : " وأنا اليوم حفيده الرئيس دونالد ترامب، وفوق هذا أحد ملياردیرات أميركا والعالم، وأزور كند وتفرش لي حضرتك سجادة حمراء ..".

واليوم تدرك الولايات المتحدة، أن سجادة الثروة والنفوذ تسحب من تحت أقدامها حبة فحبة، شيئاً فشيئاً، وهي تخسر يوميا على مدار الساعة مواقعاً ونفوذا في جميع أرجاء العالم، أبتدأ من معاقل حلفاءها، في أوربا وأنتهاء في الشرق الأدنى الآسيوي. صحيح أن هذا يدور ببطء، ولكن الأمريكان يعلمون أنه مسار تاريخي حتمي، وسوف لن يتوقف أو يتغير إلا بأعمال خارقة. وفي مرور سريع على معالم هذا التراجع، ووفقاً لتقرير نشره مركز البحوث الاقتصادية "آي أتش أس غلوبال إنسايت" في يونيو/حزيران 2010، فقد بات القطاع الصناعي الصيني على وشك أن يتجاوز نظيره الأمريكي. وأوضح التقرير أن قيمة البضائع التي تنتجها المصانع الصينية وصلت العام الماضي إلى 1.6 تريليون دولار، مقارنة بنحو 1.7 تريليون دولار أنتجتها المصانع الأمريكية. على أن الطاقة الإنتاجية الأمريكية حالياً تتزايد بثبات كل شهر، ووصلت إلى 74.7 % قبل عام (2009)، لكنها تظل دون المعدل العام الذي وصلته سابقاً ، والذي وصل إلى 81 %.

وكانت الطاقة الإنتاجية الصناعية الأمريكية قد تراجعت إلى 68.2 % في حزيران عام 2009، وأغلقت بعض مصانع "كرايزلر" و"جنرال موتورز" بسبب الإفلاس. وكانت الصين قد قالت في وقت سابق إن صادراتها ارتفعت بنحو 18 % في كانون الأول، حيث بلغت صادراتها من السلع 957 بليون(مليار) دولار في الشهور العشرة الأولى من عام 2009 فيما صدّرت ألمانيا بضائع بـ 917 بليوناً في الفترة ذاتها، لتواصل الصين صعودها إلى مصاف القوى الاقتصادية العظمى. هذه المعطيات كانت لعقد مضى (عسرة سنوات) ولنلاحظ حجم التطور ومؤشراته ولنقدر وقعه على صناع القرار في الولايات المتحدة...

ـ صادرات الصين تتخطى التوقعات وترتفع إلى 21.1 % في نوفمبر

ارتفعت صادرات الصين في تشرين الثاني/نوفمبر بأسرع وتيرة لها منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، حسبما أظهرت الأرقام الرسمية الاثنين، في وقت ساهم ازدياد الطلب في أسواق رئيسية قبل فترة الأعياد، في تحقيق فائض تجاري قياسي.

وتعد الأرقام دفعة جديدة من الأخبار الجيدة في ثاني أكبر اقتصاد في العالم، والذي يشهد انتعاشا بعد تدابير إغلاق للحد من فيروس كورفيد 19 (كورونا) ، أدت إلى انكماش قل نظيره في وقت سابق من العام.

وارتفعت الشحنات إلى الخارج بنسبة 21.1 % على أساس سنوي الشهر الماضي لتبلغ قيمتها 268 مليار يورو مدعومة بطلب قوي على السلع الطبية والالكترونيات.

والأرقام التي تعد الأفضل منذ شباط / 2018، تخطت نسبة 12 % التي توقعها محللو بلومبرغ، وجاءت أفضل بكثير من النسبة التي سجلت في تشرين الأول/أكتوبر والبالغة 11,4 %. وتمثل البيانات نموا للشهر السادس على التوالي. لكن الصادرات ارتفعت بنسبة 4,5 % أي أقل من التوقعات بنسبة 7 %، وأقل بقليل عن الشهر الذي سبقه.

في الأشهر الـ11 الأولى من العام، أظهرت بيانات الجمارك ارتفاع صادرات المنسوجات ومنها الأقنعة، بنسبة 33 % مع فرض حكومات في العالم تدابير لاحتواء الفيروس. وأظهرت البيانات أيضا أن فائض الصين مع باقي دول العالم بلغ 75,41 مليار دولار في تشرين الثاني/نوفمبر، مقارنة بـ 58,44 مليار في تشرين الأول ، هو الأكبر منذ 1990، بحسب "بلومبرغ نيوز."

في تشرين الثاني/نوفمبر، ارتفع الفائض للصين مع الولايات المتحدة ، وهو نقطة نزاع رئيسية في الحرب التجارية بينهما، إلى 52 % مسجلا 37,4 مليار دولار.

ـ فاينانشيال تايمز: اقتصاد الصين يحقق نموا 21.3% وسط إقبال عالمى على منتجات بكين

قالت صحيفة فاينانشيال تايمز البريطانية إن صادرات الصين نمت بأسرع وتيرة لها هذا العام في شهر تشرين الثاني / 2020، مع ارتفاع الطلب العالمي على البضائع الصينية مما رفع الفائض التجاري لأعلى مستوى شهري له على الإطلاق.
وارتفعت الصادرات بالدولار حوالي 21.3% الشهر الماضي مقارنة بالشهر نفسه في العام السابق، بحسب ما أظهرت البيانات الرسمية ، وهو أسرع معدل منذ فبراير 2018، وكان خبراء الاقتصاد الذين تواصلت معهم بلومبرج قد توقعوا أن تكون الزيادة 12% فقط. واكتسب معدل صادرات الصين زخما في كل شهر منذ يونيو، وبحلول أكتوبر حقق أعلى مستوى في 19 شهرا، وساهمت الصادرات في تعافى البلاد سريعا من الوباء وزادت من هيمنتها في بيئة غير محددة للتجارة العالمية.
وكان الفائض التجاري الصيني في تشرين الثاني / 2020 75.4 مليار دولار، وهو أعلى رقم مسجل، وأيضا أعلى من رقم 58.4 مليار دولار المسجل في تشرين الأول / 2019. وتقول الصحيفة أنه بينما استفاد الأداء التجاري الصيني من تعافى عالمي أوسع، فإن طفرة الصادرات التي حققتها البلاد جاءت مدعومة من الشهية الدولية المتزايدة للمنتجات الناتجة عن الوباء، وما ترتب عليه من إغلاق، مثل معدات الوقاية الشخصية والمنتجات الإلكترونية.
وقال لويس كوجس، رئيس اقتصاديات آسيا فى أكسفورد إيكونوميكس إن الكثير من المشتريات التي لها علاقة بكورونا لن تحدث مجددا ونتوقع في النهاية تراجع دولي من البضائع إلى استهلاك الخدمات حيث ستخفض إتاحة الحاجة إلى التباعد الاجتماعي.

تراجع الولايات المتحدة

هكذا تتراجع الولايات المتحدة ببطء، ولكن الأرقام تقشر وقار الحقيقة .. وهذه المعطيات تظهر الحقائق الموجعة بوضوح وصراحة. ومن المؤكد أن الولايات المتحدة سون لن ترضخ لهذه التطورات غير السارة بل سترد بقوة هنا وهناك، وبما يسمى "القتال التراجعي" كي لا يبدو كالهزيمة، فالولايات المتحدة عملاق صناعي ومركز رئيسي من مراكز المال ومركز سياسي مهم، ولكن العطب تسلل لهذا المركز لسببين رئيسيين:
الأول: وهو موضوعي (Objective): ويتمثل ببروز متروبولات جديدة، ومراكز صناعية جديدة صديقة (كالأتحاد الأوربي، واليابان)، وغير صديقة كالصين وروسيا، وهذه تمارس لعبة التوسع، وستقضم ما كان في سلة الولايات المتحدة.
الثاني وهو ذاتي (Objective): ويتمثل بأن التكاثف في مركز رأس المال في الداخل ألهب التناقضات الداخلية في الولايات المتحدة بين قوى الأحتكار بلغت درجة ملحوظة في ولاية الرئيس ترامب الذي برز كممثل للقوى اليمينية المتطرفة، مع ظهور ملامح تشبه الدولة الفاشية في استخدام مفرط للقوة ضد الفعاليات الشعبية، وضد الأقليات. وخارجيا مارست التهديد والابتزاز وبالغت في سياسة فرض العقوبات السياسية والاقتصادية على نحو غير مسبوق، وإرهاق الحلفاء والأصدقاء بطلبات سياسية ومالية مرهقة، وتضعهم بين خيارات حادة وصعبة. الأمر الذي أفقد النزاهة في الموقف القيادي الأمريكي، وهذه السياسة مورست في حتى في عهد الرئيس الديمقراطي أوباما وإن على نحو مخفف.

هل بوسع السياسي أن يتنبأ بالمقبلات من الأحداث ...؟

أقول بنسبة كبيرة نعم .. لأن أفكار السياسي هي خلطة بين التاريخ كعلم وعلوم الجغرافيا والاقتصاد والاجتماع والقانون، وبقدر إلمامه ومتابعاته لجوهر الأحداث وتحليل نتائجها، وبمرور الوقت (سنوات) سيحوز على هذه القدرة. وبطبيعة الحال تختلف من شخص لآخر بدرجة إخلاصه للعلم وابتعاده عن أحكام الهوى، وعمق إبحاره فيما يؤدي لمعرفة واسعة بالأحداث ومسبباتها.

40. تعرف على سقف الموقف ....!

نصادف في الحياة أشخاصاً، على الأرجح ممن يعملون في السياسة، من يقبل خيارا مراً، عندما يجالس (يحادث / يفاوض) عدوا ما من محادثته / مفاوضته من بد، وهذه بالطبع من نكد الدنيا، ولكن من غير السياسي مقدر له أن يواجه نكد الدنيا ومكائدها بشجاعة وصبر ..؟

بعض الناس، والأسوء حين يتعاطى البعض منهم السياسة وهو يعتقد أنه يسير في درب معبد مليئ بالزهور والرياحين، فيتصرف على أن المكاسب السياسية سهلة المنال، وكأن الأطراف الأخرى والكثير منها من الخصوم العلنيين، أو المتسترين، أو ممن لا يقف موقفاً لصالحك بدون ثمن، وآخرون كتبت عنهم، يعتقد أن الموقف الأفضل، هو الموقف الأكثر قوة، وأن رأيه أهم من كل الآراء، وبالتالي رغبته أو إرادته " يجب " أن تنفذ، فيبالغ ويتطرف في طرح الموقف بأقصى درجاته، والأقل من ذلك يعتبره تراجعاً غير مقبول، هذا ما لم يضع عليه ظلال من الشكوك ...!

اليوم أريد الإشارة إلى بعض من يعملون في السياسة، لا أتطرق إلى حسن النوايا وصدق التوجه الوطني ، فمن خواص السياسي ولا سيما في المراتب المتقدمة أن يعرف كيف يقود الدفة بحكمة، وتهمني عمق الرؤية التي نحتاجها في تحليل الأوضاع السياسية، تخترق السطحي، بغير انفعال.

في عالم السياسة قواعد مشهورة، ومن تلك :

1. **ليس الذكاء في معرفة الخير من الشر، بل في أختيار أهون الشرين .**
2. **تجنب اتخاذ القرارات بناء على أحكام الهوى .**
3. **إذا أشتبه عليك أمران، فأنظر أقربهما إلى قلبك وأجتنبه.**
4. **لا أستخدم سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أستخدم سوطي حيث يكفيني صوتي**. (في اقتصاد القوة).
5. **" أن السياسة هي فن الممكن "** في علم السياسة الحديث، يتفق علماء الشرق والغرب على هذه القاعدة .
6. **(أن الموقف السياسي هو تحليل مادي ملموس لواقع مادي ملموس "** في علم السياسة.
7. **عليك أن تميز بين التناقض الثانوي (الذي يمكن التعايش معه)، من التناقض الجوهري (الذي لا يمكن التعايش معه). ولكل من التناقضين مستوى معين من الصراع معه له أدواته.**
8. **السياسي الحكيم يقبل بنصف نجاح مضمون، على النجاح التام بمجازفة وأتباع المغامرات.**
9. **كل سياسي يريد المجازفة، فليفعل ذلك بماله الخاص، وليس على حساب الشعب.**
10. **" بيني وبين خصومي شعرة أحرص أن تنقطع، إن شدوها أرخيت، وإن أرخوها شددت ".** هكذا يتكلم القائد السياسي، وليس القائد العام للأساطيل الجوية والبحرية ..!
11. **في السياسة هناك سيئ، وهناك أقل سوءاً ... وعلى السياسي إيجاد الفرق.**
12. **السياسي لا يعمل بالمزاج، بل بالممكن ..!**

هذه بعض من قواعد العمل السياسي، قواعد صالحة للعمل وليس للمناقشات التي لا تفضي إلى شيئ .. هناك فرق كبير في أن تفاوض / تتحادث، بحجم كبير من المسؤولية، وبما متاح لك من هامش مناورة ضئيل جداً .. وبين مناقشات لتزجية الوقت .... أو محادثات جدية يجب أن تفضي إلى نتائج، لتستحق أن تسمى محادثات جدية .

الفرق بين قائد سياسي محنك يعرف قدراته ومقدار تأثيرها، ويناور بها ولا يستخدمها كلها ليبقي لنفسه احتياطياً للمواقف المقبلة... وقائد آخر يطيع هواه ويقذف بنفسه ومن معه في أتون نار محرقة. وبوسع القائد أن ينتحر (بدنيا أو سياسيا) ولكن ليفعل ذلك بعيداً عن الناس.

حين درسنا اللغة الألمانية، هناك كتاب صادر من معهد غوتة في الخمسينات " تعليم الألمانية لأبناء العربية " فيه مقطع لا يجوز أن تقرأه على أنه نص لتعليم اللغة فقط، الذي يدور عن صديقان مراهقان: ألماني وعربي بل وللعبرة والحكمة، ولأستخدامات سياسية واجتماعية. النص :

" Ich habe viele Wünsche, aber leider nicht genug Geld .....!

" لدي أمنيات كثيرة ... لكن للأسف ليس الكثير من المال ...! "

بالعربي نقول مثلاً جميلاً :

" مدر رجليك على قدر لحافك ..".

41. السياسية بين العلم و الأستخارة ...!

السياسة علم عميق، والناس عادة يتحدثون كثيراً في شؤون وأحداث الساعة اليومية، فيقف مع هذا الطرف ضد ذاك، ويعتقد أن موقفه هذا سياسي. والأمر يتعدى هذه الفئات من عامة الشعب، إلى قادة ورؤساء حكم وأنظمة يتخذون قراراتهم بناء على أحكام الهوى، ودون ريب فإن تلك القرارات توصف بأنها قرارات غير محكمة، وأكثر من ذلك قرأنا أن بعض الرؤساء والزعماء يتخذون قرارات على ضوء أحلام عاشوا أحداثها، أو بناء على استخارات يجرونها ، أو قراءة النجوم وما إلى ذلك ...!

وعندما يغيب الاستهداء بالنظريات العلمية، وكنتيجة لجهل الحكام المتسلطون على السلطة في البلدان النامية بآليات اتخاذ القرار السياسي، تلعب الأمزجة والأهواء، دوراً رئيسياً، وخرافات لا تخطر على بال. ومن تلك عداوات عائلية قديمة، وتجربة شخصية حدثت فيل عقود من الزمن، تبرز الآن في وعي القائد، والعقد النفسية، وكل هذا يدور وفي غياب أجهزة وقنوات رافدة لصناع القرار السياسي، فالقرارات الصادرة في بلدان كهذه، تفتقر إلى الخلفية العلمية والحسابات الدقيقة، لذلك تشهد العلاقات الدولية تصرفات من دول لا تدل على إدراك كامل لأبعاد القرارات المتخذة، وحين تخفق هذه القرارات، تنعكس ردود الأفعال على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبشكل مدمر أحياناً.

وبحسب النظريات الدارجة في الجامعات الأوربية، فإن علم السياسة أنفصل عن علم الأخلاق على يد الإيطالي أنطونيو ميكافيلي(1469-1527)، ولكنه وجد تطويره الحقيقي على يد الفرنسي شارل مونتسيكيو(1689- 1755)، هذه إذا ضربنا صفحاً عن الأسس الحقيقية لعلم الاجتماع السياسي الذي تأسس على يد العالم العربي الكبير أبن خلدون، ولكن الجامعات الأوربية أصبحت تعترف بعلم السياسة كعلم أو فرع من العلوم الاجتماعية والإنسانية منذ نهاية القرن التاسع عشر، وترسخ هذا الاعتراف بإنشاء كل من المدرسة الحرة للعلوم السياسية في باريس عام 1872 Ecole Libre des Sciences Politiques, ومدرسة لندن لعلم الاقتصاد والسياسية London School of Economic & Political Science وقد تأكدت أهمية هذا العلم باعتماده كمادة للتدريس في الجامعات الأوروبية بصفة عامة والجامعات الأميركية بصفة خاصة.

وأدى وجود عوامل متعددة إلى تهيئة الأجواء الملائمة لنمو هذا العلم مثل الحرية الفكرية في إطار ليبرالية عامة شملت الحياة بصفة عامة في أوربا، وتقدم العلوم الاجتماعية بصورة عامة والشعور بالحاجة إلى علم السياسة لإعداد قادة سياسيين وإداريين جدد وتثقيف المواطن.وقد اقترن ذلك الاهتمام بالمزيد من الاتجاه نحو الدراسة الاستقرائية لمختلف الظواهر السياسية كالأحزاب السياسية والرأي العام وجماعات الضغط والمصالح وغيرها خاصة في الولايات المتحدة حيث غلبت فيها النزعة المنهجية لدراسة الوقائع والجزئيات إلى درجة أحدثت تطوراً منهجياً جديداً جعل علماء السياسة فيها يتبنون نظريات جديدة. وقد ظلت دراسة النظريات السياسية التقليدية غالبة في أوروبا إلى أن تأثر العلماء والمفكرين السياسيين في أوروبا بالمناهج الاستقرائية والتحليلية الأمريكية مما أحدث تحول تدريجي لصالح هذا الاتجاه.

وقد ظلت النظرة السائدة إلى علم السياسة إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية على أنه فرع من العلوم الاجتماعية أو الإنسانية التي تهتم على وجه ما بالحياة السياسية وأنه ليس هناك ميدان خاص للمعرفة ينفرد به علم السياسة انطلاقاً من أن جميع العلوم الاجتماعية والإنسانية تتناول السياسة، أي أن النظرة لعلم السياسة أو العلوم السياسية كانت تؤكد العلاقة بين علم السياسة والعلوم الاجتماعية دون أن نعترف له بموضوع خاص ينفرد به دون سائر العلوم الاجتماعية إلا أنه عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وما نتج عن تلك الحرب من ظواهر سياسية لم تكن موجودة من قبل وانقسام العالم إلى كتلتين وقيام كيانات دولية جديدة، كل هذه العوامل أكسبت أهمية لعلم السياسة وفتحت الباب للبحوث السياسية والدراسات المستقلة، وأعطت لعلم السياسة أبعاداً جديدة تبرزه عن العلوم الاجتماعية الأخرى.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى تلك النزعات العنيفة التي اجتاحت الحياة السياسية في أوربا في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، أكدت الضرورة الحاسمة للمزيد من التبلور والتسامي لموضوعات العلوم السياسية ومنحها اهتماماً أكبر في الدراسة والبحث.

ـ تحديد موضوعات العلوم السياسية (مؤتمر باريس):
وفي أيلول / سبتمبر 1948، كانت العلوم السياسية قد قطعت الشوط الضروري والهام للتحول إلى علم معترف بأستقلاله عن العلوم الأخرى (الاقتصاد والاجتماع) وتأسيس أقسام في الكليات (غالباً مع كليات القانون، وأحياناً في كليات الاقتصاد)عقد اجتماع في اليونسكو بباريس لتحديد موضوعات العلوم السياسية، فأعتمدت القائمة التالية:

النظرية السياسية :
النظرية السياسية.
تاريخ الأفكار السياسية.
النظم السياسية:
الدستور.
الحكومة المركزية.
الحكومات المحلية والإقليمية.
الوظائف الاقتصادية والاجتماعية للحكومات.
النظم السياسية المقارنة.
الإدارة العامة.
الأحزاب والجماعات والرأي العام.
الأحزاب السياسية.
الجماعات والجمعيات.
اشتراك المواطنين في الإدارة والحكم.
الرأي العام.
العلاقات الدولية.
السياسة الدولية.
السياسة والتنظيم الدولي.
القانون الدولي.

ثم أضاف عليها فيما بعد الأستاذان : بندكس وليبست هذه الموضوعات:

عملية اتخاذ القرارات السياسية.
آيديولوجة الحركات السياسية.
الأحزاب السياسية.
السلوك الانتخابي.
الحكم.

وتواصلت العلوم السياسية تثبت أهميتها في الحياة، فتأسست كليات مستقلة للعلوم السياسية، بما في ذلك في أقطارنا العربية في وقت مبكر نسبياً(الستينات والسبعينات)، ففي العراق على سبيل المثال وصل القطر أول أستاذ عراقي (د. محمد عزيز) ينال شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من كلية العلوم السياسية الفرنسية بباريس في أواسط الخمسينات(1954) ثم تأسست الصحف والدوريات التي تعنى بهذا العلم،

فأتسعت أفكاره والمديات التي بلغتها العلوم السياسية. أما في الثمانينات فقد بلغت عدد كليات العلوم السياسية في العراق 5 كليات.

وربما مثل هذا التقدم في العلوم السياسية لم يكن متوفراً في الأقطار العربية عدا العراق ومصر، ولكن فيما بعد مرحلة السبعينات شهدت عموم الحركة الجامعية العربية تقدماً مطرداً، بلغت الجامعات العربية خلالها درجة مهمة.

ـ : الإعلان الدولي بشأن الثقافة (مؤتمر مكسيكو):

إعلان مكسيكو بشأن الثقافة : يوليه ـ أغسطس / 1982

في محاولة لتحديد مفهوم الثقافة في إطار واسع بعد مناقشات طويل توصل المجتمعون:

أن الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن ينظر إليها اليوم على أنها جماع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان والنظم والقيم والتقاليد والمعتقدات.

أما الثقافة في اللغة العربية ، فهي أساسا الحذق والتمكن، ويقال: ثقف الرمح أي قومّه وسواه، وعندما تطلق على البشر: فالمقصود أن يكون الشخص مهذباً ومتعلماً ومتمكناً من العلوم والفنون والآداب، فالثقافة هي إدراك الفرد والمجتمع للعلوم والمعرفة في شتى مجالات الحياة، فكلما زاد نشاط الفرد ومطالعته واكتسابه الخبرة العلوم لديه أو مستوى حضارته وعمرانه.

فإن استخدام هذا المصطلح كمقابل لمصطلح Cultur في اللغات الأوربية تجعله يقابل حالة اجتماعية شعبية أكثر منها حالة فردية.

ويستخدم مصطلح **الثقافة** وفق المفهوم الغربي للإشارة إلى ثقافة المجتمعات الإنسانية، وهي طريقة حياة تميّز كل مجموعة بشرية عن مجموعة أخرى. والثقافة يتم تعليمها ونقلها من جيل إلى آخر؛ ويقصد بذلك مجموعة من الأشياء المرتبطة بنخبة ذلك المجتمع أو المتأصلة بين أفراد ذلك المجتمع، ومن ذلك الموسيقى، الفنون الشعبية، التقاليد المحببة، بحيث تصبح قيما تتوارثها الأجيال ومثال ذلك الكرم عند العرب.

المعنى الغربي للثقافة: مجموعة العادات والقيم والتقاليد التي تعيش وفقها الجماعة أو مجتمع بشري بغض النظر عن مدى التطور في الحياة زاد من معدل وعي الثقافة لدية وأصبح عنصراً بناءاً في المجتمع.

لاحظ عزيزي القارئ كم هو علم عميق وصعب السياسة، ومع ذلك تجد من يغوص في هذا البحر العميق وهو لا يعرف السباحة، بل ولا يرتدي حتى سترة نجاة، وعندما تحاول أن تنصحه يغضب، كي لا يغرق في لجة البحر العميق، ولكنه يواصل اللعب واللهو وهو يحس أنه عبقري ولا يشق له غبار ..... الأسف هو حال بلداننا .. وهنا أورد مذكرة أوردها عالم اقتصاد عراقي وطني مخلص، يحذر من الكارثة .... فكادوا أن يفتكوا به لو لطف الله سبحانه ...!

42. القوي الاحمق، والضعيف الذكي

كم قرأنا في القصص والأساطير والحكم، وكم شاهدنا في الأفلام، أن على القوي أن لا يغتر بقوته، فليس محتماً أن يفوز القوي في ختام الصراعات، بل من يخوض النزال بذكاء، ولا يلعب وزنه وضخامته في نتائج النزال النهائية إلا دورا يسيراً.

العبرة في الأمر، أن القوي يعلم انه وافر القدرات، وقد يبالغ في الاعتماد عليها، وربما هو محق بعض الشيئ، فالقوة وإدراك أبعادها أمر مهم في توازن القوى، **ولكن تجاهل المعطيات الأخرى هو الخطأ الذي قد يكون مميتا.** وتروي لنا القصص والأساطير الكثير منها .. ومنها: الأسد القوي الذي أحتاج لفأر أن ينقذه من الحبال التي تكبله، والسلحفاة البطيئة الذكية، وكيف انتصرت على الأرنب السريع ... وأخيرا وليس آخرا، قصص القط توم، والفأر جيري، وفي 161 نزال(هي عدد هذا المسلسل)، يفوز بها الفار جيري الصغير الأريب بذكاؤه .. ويخسر الهر توم القوي بحماقته .. ماذا تريد الأسطورة أن تنبؤنا ... وما هي العبرة ...؟

في الطبيعة كما في الاسطورة، الفأر حيوان صغير ضعيف جداً، بحيث ينفق بضربة أصبع لا غير، هو الفريسة المفضلة للصقور والبوم، وللثعابين، وعرضة للقتل على يد الإنسان حيث يوجد سواء في البيوت، أو في الحقول، وتتفنن الدول والمنظمات في مكافحته وتبذل جهوداً جبارة، ولكنه (الفأر ـ الجرذ) مع ذلك متواجد بقوة في المجتمعات على اختلافها، المتقدم منها والمتخلف ، ومن المدهش أن الفئران تعتبر حيوان التجارب الأفضل للمواد المختبرية والدوائية.

إذ كان من الصعوبة، أو المحال تقريباً، أن تقنع القوي، نسيان هذه الميزة المهمة (القوة) أو التنازل عنها، ولكن لنتقدم بنصيحة : على القوي أن يتذكر أن استخدام القوة هو من أجل تحقيق نتائج عادلة فقط، وإلا فإن القوة ستصبح غاشمة، وبصفة أخرى همجية ووحشية، وتدخل في إطار عملية باطلة ابتداء من مبادئها، و انتهاء بنتائجها. والتعامل مع هذه الواقعة فهناك من الحيوانات المتوحشة في الغابات من تتصف بالقوة الفائقة، ولكن هذه القوة لا تمنع في ختام الأمر من اصطيادها لفراءها أو حتى على سبيل المتعة ..!

القوي في الحسابات السياسية، عليه أن يفكر ملياً، أن تحالف قوى أقل قوة منه، تخلق قوة يمكن أن تردعه، أو أن ترد كيده إلى نحره، فتبوء خطط بالفشل، وإذا فكر بعمق وأستمع لرأي العقلاء والحكماء لربما سيتمكن من رؤية عاقبة أعماله قبل الشروع بها.

حسناً .... القوة ضرورية، ولكن الأهم والأكثر ضرورة تكمن في حسن استخدامها، فعدالة الموقف تمنح قوة إضافية وهي الحاسمة في النزال واستخدام القوة. القوة تغري على التهور، والقوي يعتقد أن بوسعه اختصار مسافة ومساحة من التفكير وحشد الأصدقاء وإقناع الأعداء، وبذل جهد، والمحاورة والمناورة أو وربما حتى التنازل قليلاً لتجنب النزال المجهول النتائج .. فقد تزل قدم من يتصارع بسبب أرضية ساحة المنازلة .. أو بسبب موقف الجمهور من المتفرجين .. أو في تجهيز الغذاء والمؤن، أو بسبب وباء قد يلحق به. إذن ليبذل جهدا ووقتاً وليتجنب النزال رغم أنه الأقوى ...بالعضلات(البدنية منها أو السياسية والاقتصادية والعسكرية)، ولكنه إذا أستخدم عقله سيكون أقوى بكثير ....!

في السياسة أثبتت تجارب الحياة، أن استخدام القوة إن توصل إلى تحقيق انتصار، فغالبا ما يكون هذا الانتصار مؤقت، تعقبها خسارة بمعنى الاندحار، أما من يستخدم الحكمة والعقل، فإنه سيتوصل إلى نتائج مستقرة، ولو أن لا شيئ في الحياة عرضة للتغير دون توقف كالسياسة. **ولكن الحكيم هو من يتوصل إلى**

فهم قوانين التطور التاريخي، ولا يقف بوجه التغيرات الحتمية، فيتلائم معها، بناء على فهم دقيق للمعطيات الجديدة وعلى سمت التحولات المقبلة.

القوة حق ... والحق قوة، وكقاعدة أكيدة أن تستخدم الحق وفق المعقول والمقبول، **والفقه القانوني ينص : على لا إفراط ولا تعسف ولا مبالغة في استخدام الحق، وعلم السياسة يقول أن لا يجوز أن تحقق مكاسب شرعية بأساليب غير شرعية**، وتذهب الأخلاق على نحو مقارب **" لا يمكن أن تحقق أهدافاً شريفة بوسائل غير شريفة ". وقواعد الشرع تنص " لا يمكن تحقيق منفعة شرعية بوسائل محرمة " العدوان فعل مدان أخلاقيا وقانونيا وسياسياً. وينص القانون الدولي، " لا يمكن الاعتراف بمكاسب تحقق بواسطة العدوان ".**

وأخيراً .. القوة قد تفرض واقعاً ... ولكن كم سيطول الأمر الواقع هذا ... القوة تسكت الجمهور المتفرج، وبعض المشجعين، وربما بعض اللاعبين، وقد ترهب حكم المباراة ... فيحول النتيجة لصالح القوي، وهذه حدثت كثيراً، ولكن القوة لا تمنح شهادة حسن السلوك أو الأخلاق ... والقوة لا تمنحك من هو ليس لك (والاستيلاء هو أمر وقتي) الصكوك المزورة، أو المستحصلة تحت تهديد السلاح، أو التهديد، لا قوة قانونية لها :**" أنت استوليت على غرضي وأنا مقيد اليد مكمم الفم ". فلا شرعية لكل ما أستوليت عليه ...!**

نقرأ لنتعلم ونستفيد، ولتكون لدينا قدرة التحليل .... والتنبؤ .....!

43. نصف نجاح

هذا مصطلح ربما ليس شائعاً في الأدب السياسي / الثقافي عندنا، والسبب أن الناس قد اعتادت بضرب من التثقيف الإرغامي، على النجاحات الخارقة، الهائلة، الساحقة، في حين أن الحصيلة في الواقع أقل من نجاح، بل وربما حتى فشل ...!

النصف نجاح (half success) هو ليس فشل، وهذا لوحده جيد ..! ونصف النجاح يعني أن مساعينا لم تخب، وأن قراءتنا للخريطة كانت صحيحة، وأن اختيارنا للطريق كان صحيحاً، ولكننا سرنا في الطريق ولم نبلغ المدى الأبعد .. وحققنا شيئ من النجاح ولكن ليس كله، ويعني أن عملنا لم يفشل، وأن تقديراتنا كانت صائبة، ومجهودنا لم يضع هباء، وأننا استعدنا شيئ مما وظفناه من قدرات، أو ربما كسبنا بعض الشيئ، **ولكن كان يمكن أن يكون أفضل** ...!

نعم هنا جوهر الأمر ...**" كان يمكن أن يكون أفضل "**، بتقديري هنا يجب أن نتوقف، وهذه الجملة صالحة لكل آن وأوان، ونتفحص الموقف بدقة. وهي تعني أن ندقق في فقرة كان النجاح ليس تاما .. ونحن بهذا نحن لا ندعو للقبول بأنصاف النجاح ... ولكن عندما تكون خياراتك صحيحة، ونلت بعض النجاح، هنا عليك أن تقوم بجرد لأعمالك وتراجعها ... فما حصل أن الأولويات التبست عليك، وبعض من قدراتك لم تزجها بشكل كاف، وبعض النجاحات لم تستثمرها كما يجب ...

إذا راجعت " نصف النجاح " بدقة وإخلاص، فسيكون نصف النجاح هذا مقدمة للنجاح التام .. النجاح الحقيقي وليس الإعلامي ...

44. تعرف على سقف الموقف ....!

ضرغام الدباغ

نصادف في الحياة أشخاصاً، على الأرجح ممن يعملون في السياسة، من يقبل خيارا مراً، عندما يجالس (يحادث / يفاوض) عدوا ما من محادثته / مفاوضته من بد، وهذه بالطبع من نكد الدنيا، ولكن من غير السياسي مقدر له أن يواجه نكد الدنيا ومكائدها بشجاعة وصبر ..؟

بعض الناس، والأسوء حين يتعاطى البعض منهم السياسة وهو يعتقد أنه يسير في درب معبد مليئ بالزهور والرياحين، فيتصرف على أن المكاسب السياسية سهلة المنال، وكأن الأطراف الأخرى والكثير منها من الخصوم العلنيين، أو المتسترين، أو ممن لا يقف موقفاً لصالحك بدون ثمن، وآخرون كتبت عنهم، يعتقد أن الموقف الأفضل، هو الموقف الأكثر قوة، وأن رأيه أهم من كل الآراء، وبالتالي رغبته أو إرادته " يجب " أن تنفذ، فيبالغ ويتطرف في طرح الموقف بأقصى درجاته، والأقل من ذلك يعتبره تراجعاً غير مقبول، هذا ما لم يضع عليه ظلال من الشكوك ...!

اليوم أريد الإشارة إلى بعض من يعملون في السياسة، لا أتطرق إلى حسن النوايا وصدق التوجه الوطني ، فمن خواص السياسي ولا سيما في المراتب المتقدمة أن يعرف كيف يقود الدفة بحكمة، وتهمني عمق الرؤية التي نحتاجها في تحليل الأوضاع السياسية، تخترق السطحي، بغير انفعال.

في عالم السياسة قواعد مشهورة، ومن تلك :

1. **ليس الذكاء في معرفة الخير من الشر، بل في أختيار أهون الشرين .**
2. **تجنب اتخاذ القرارات بناء على أحكام الهوى .**
3. **إذا أشتبه عليك أمران، فأنظر أقربهما إلى قلبك وأجتنبه.**
4. **لا أستخدم سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أستخدم سوطي حيث يكفيني صوتي**. (في اقتصاد القوة).
5. **" أن السياسة هي فن الممكن "** في علم السياسة الحديث، يتفق علماء الشرق والغرب على هذه القاعدة .
6. **(أن الموقف السياسي هو تحليل مادي ملموس لواقع مادي ملموس "** في علم السياسة.
7. **عليك أن تميز بين التناقض الثانوي (الذي يمكن التعايش معه)، من التناقض الجوهري (الذي لا يمكن التعايش معه). ولكل من التناقضين مستوى معين من الصراع معه له أدواته.**
8. **السياسي الحكيم يقبل بنصف نجاح مضمون، على النجاح التام بمجازفة وأتباع المغامرات.**
9. **كل سياسي يريد المجازفة، فليفعل ذلك بماله الخاص، وليس على حساب الشعب.**
10. **" بيني وبين خصومي شعرة أحرص أن تنقطع، إن شدوها أرخيت، وإن أرخوها شددت ".** هكذا يتكلم القائد السياسي، وليس القائد العام للأساطيل الجوية والبحرية ..!
11. **في السياسة هناك سيئ، وهناك أقل سوءاً ... وعلى السياسي إيجاد الفرق.**
12. **السياسي لا يعمل بالمزاج، بل بالممكن ..!**

هذه بعض من قواعد العمل السياسي، قواعد صالحة للعمل وليس للمناقشات التي لا تفضي إلى شيئ .. هناك فرق كبير في أن تفاوض / تتحادث، بحجم كبير من المسؤولية، وبما متاح لك من هامش مناورة

ضئيل جداً .. وبين مناقشات لتزجية الوقت .... أو محادثات جدية يجب أن تفضي إلى نتائج، لتستحق أن تسمى محادثات جدية .
الفرق بين قائد سياسي محنك يعرف قدراته ومقدار تأثيرها، ويناور بها ولا يستخدمها كلها ليبقي لنفسه احتياطياً للمواقف المقبلة... وقائد آخر يطيع هواه ويقذف بنفسه ومن معه في أتون نار محرقة. وبوسع القائد أن ينتحر (بدنيا أو سياسيا) ولكن ليفعل ذلك بعيداً عن الناس.

حين درسنا اللغة الألمانية، هناك كتاب صادر من معهد غوتة في الخمسينات " تعليم الألمانية لأبناء العربية " فيه مقطع لا يجوز أن تقرأه على أنه نص لتعليم اللغة فقط، الذي يدور عن صديقان مراهقان: ألماني وعربي بل وللعبرة والحكمة، ولأستخدامات سياسية واجتماعية. النص :

" Ich habe viele Wünsche, aber leider nicht genug Geld .....!

" لدي أمنيات كثيرة ... لكن للأسف ليس الكثير من المال ...! "

بالعربي نقول مثلاً جميلاً :

" مدر رجليك على قدر لحافك ..".